القصص الحق

ذكر ما ورد في القرآن من القصص حسب تسلسل السور

جمع:
خالد بن عبدالله الشايع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله و على آله وصحبه ومن والاه

أما بعد:

فإن هذا القرآن هو كلام الله المعجز ، الذي أورد فيه سبحانه من الحكم والفوائد ما تستنير به عقول الناس وتهتدي به أفئدتهم ، بل وتلين وتخشع عند سماعه فضلا عن تلاوته ، فلا عجب أن يكون القرآن هكذا فهو كلام الله جل في علاه (ومن أحسن من الله حديثا) (ومن أصدق من الله قيلا) ، وإن من جملة ماورد في القرآن تلك القصص عن الأنبياء والأمم السالفة مما أودع الله فيه من جميل العبارة وحسن الصياغة ، والتفنن في التكرار وتجديد السياق ما يسلب ا لعقول ، ويأسر الأفئدة ، ويأخذ بالأسماع (نحن نقص عليك أحسن القصص) فلا أحسن من قصص القرآن .

لقد أورد الله القصة لا سيما قصص الأنبياء والمرسلين في ألوان شتى فيوردها أحيانا على سبيل الإطالة والتوسع إذا كان المقام يقتضي ذلك ، وأحيانا على سبيل المساواة إذا كان المقام للمساواة ، وسبيل الإيجاز إن كان المقام للإيجاز ، وقد يورد القصة كاملة كما في قصة يوسف عليه السلام ، بل جعلها في سورة واحدة وباسم صاحب القصة ، وقد يوردها مجملة في موضع ومطولة في آخر كما في قصة إبراهيم وكذا موسى ، وهذا كله من باب إيراد القصة على حسب المقام .

وهذه القصص للأنبياء إنما تذكر لتأسي بهم ، وأخذ العبرة من مواقفهم مع أنبيائهم وأساليبهم في نشر الدعوة ومقارعة الخصوم ، كما قال تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)

وإن من الأساليب التي عرض فيها القرآن حلولا لما يعرض على البشرية من أوهام وشكوك ومصاد عن دين الله تعالى أسلوب القصص ، وما ذاك إلا لما لهذا الأسلوب من قوة في التأثير ووضوح في الحجة وزجر عن إتباع طرق الضلال ومسالك الشيطان . قال ابن عبد البر : قال بعض السلف (الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه)

لقد أكثر الله من القصص على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه (نحن نقص عليك أحسن القصص) فقص عليه من أنباء الرسل (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)فكانت القصص أكبر معين بأمر الله للثبات على مضايقات الدعوة .

كما قص عليه من أنباء القرى لينتفع بها وكيف أن كثيرا من القرى كذبت رسل ربها ومع ذلك صبروا ، وليتعظ قومه إذا علموا كيف كان عاقبة الظالمين (تلك القرى نقص عليك من أنبائها) (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) بل قص الله على نبيه في هذا القرآن من أنباء الزمن الذي سبقه بلا تحديد (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) ولشرف القصص وما يجنى من الثمار في سماعها أمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يقص على الناس ما قص الله عليه (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) ولم يكن القرآن يقص في كتابه على نبيه والمؤمنين فقط بل كان يقص على أهل الكتاب كذلك ويفصل بينهم فيما هم فيه مختلفون (إن هذا القرآن

يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) وفي جميع ما قص الله في كتابه عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)

إن مما يزيد القارئ معرفة بفوائد القصة ومعانيها ومغازيها هو قراءة ماورد في السنة وعن السلف من ملحقاتها ، ولكن لتعلم أخي القارئ أن القصص القرآني قد امتدت إليه يد يهودية آثمة بالتحريف والتشويه وهذا طبعهم كما أفسد اليهود دين النصارى على يد (شاول اليهودي) حتى رد عليه برنابا بإنجيله الذي حذر فيه من شاول وأكاذيبه ، ولقد سعوا في إفساد ديننا الحنيف على يد عبد الله بن سبأ اليهودي ، وبدءوا بالتخريب والدس واستقطاب الأعاجم وحديثوا العهد بالدين والجهال حتى كونوا عصابة ومن خلالها قتلوا الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهكذا دس اليهود في قصص الأنبياء الأكاذيب والافتراءات ما تقشعر منه الأبدان ، بل ما يستحي أحدنا أن ينسبه لأحد من العوام فضلا عن الأنبياء والمرسلين ، ولقد تأثر بهم للأسف بعض المؤلفين في الأمة الإسلامية سواء في التأريخ أو في التفسير فحشوا مؤلفاتهم من تلك الأكاذيب ، ظنا منهم أن ذلك يزين تآليفهم ، وغفلوا عن إضلال الناس ، وترويج أكاذيب اليهود ، كل ذلك عن طريق الإسرائيليات ، التي تسامحوا في روايتها ، ولقد بين أهل العلم أن ماجاء عن بني إسرائيل على ثلاثة أنواع :

نوع جاء مخالفا لما جاء به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهذا يرد ولا يقبل .

ونوع جاء موافقا لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهذا يغني عنه ماورد عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا بأس بإيراده للاستئناس به .

ونوع لم يرد في شرعنا ما ينفيه ولا يثبته ، فهذا مما لا يصدق ولا يكذب ، والإضراب عنه أولى ، لأن ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم كاف وشاف ، وماسكت عنه فلو كان فيه فائدة لذكره لنا نبينا صلى الله عليه وآله وسلم .

ولتعلم أخي القارئ خبث اليهود سنذكر بعضا من تحريفهم على أنبياء الله ، فهم يعتقدون أن أنبياء الله غير معصومين من الخطايا والذنوب بل جوزوا عليهم أن يرتكبوا المنكرات والفواحش كشرب الخمر والزنا وسلب النساء من أزواجهم وأنهم كانوا يقبحون في عين الرب على حد تعبيرهم ، فقد رموا نوحا عليه السلام بالسكر كما في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ، وفيه أيضا رمي لوط بالسكر والزنا ببنتيه وحملهما منه .واتهموا داود وسليمان بالزنا كذلك وهكذا حتى جاء أحفاد اليهود من المستشرقين فرموا نبينا بالعظائم كما فعلوا في قصة زواج نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها كما سيأتي خبرها لاحقاً .

أخي القارئ لا تحزن على ذلك فكما قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) فلقد قيض الله أئمة الدين وحماة الشريعة ودعاة الإسلام في كل عصر للذب عن حياض الدين وبيان أكاذيب المفترين ، فظهر بذلك علم كثير ، وهذا كما قال ابن فارس اللغوي رحمه الله :لولا الخطأ ما عرف الصواب وبضدها تتبين الأشياء .

سنمر على القصص التي ذكرها الله في كتابه ، على نمط الترتيب القرآني ، ونبين القصة وملحقاتها في السنة والأثر الصحيحين وشواهدها ، وقد نورد بعض الإسرائيليات للاستئناس بها ، ونذكر ما دس فيها أعداء الدين محذرين منه ، ثم نتكلم عن فوائدها وأحكامها بإذن الله تعالى ، سائلا المولى القدير أن يوفقنا للصواب وأن يجنبنا الخطأ والزلل ،وأن يجعل ذلك خالصا لوجهه عونا على طاعته إنه جواد كريم .

******

قصة خلق آدم عليه السلام

آدم أبو البشر لم يكن من البشر أحد قبله ، أكرمه الله بأن خلقه أولا وجعله أول البشر وأسكنه جنته ، وجعله نبيا ، وجعل كل الأنبياء والرسل من ذريته ، وقد جعل الله له أوليات فهو أول البشر خلقا ، وهو أول من دخل الجنة من البشر كذلك ، وهو أول نبي ، وهو أول بشر يطأ الأرض على الصحيح وهو أول من كلمه الله من الأنبياء والرسل فإن الله كلم آدم وكلم موسى وكلم محمد صلوات الله وسلامه عليهم .

ولعلنا نتكلم عن خلق آدم فقد جاء في القرآن بيان كيفية خلقه ومن ماذا خلق ؟

فقد بين سبحانه أنه خلق آدم من تراب كما قال سبحانه (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (59) آل عمران

وبين أيضا أنه خلق من صلصال من حمأ مسنون كما قال سبحانه (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) الحجر 26

وبين سبحانه أنه خلقه من طين كما قال سبحانه (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) المؤمنون 12

وبين أنه خلقه من صلصال كالفخار كما قال تعالى (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)

وبين أنه خلقه من طين لازب كما قال سبحانه (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (11) الصافات

وبالجمع بين هذه الآيات يتبين لنا كيف خلق أبونا آدم عليه السلام فقد بين سبحانه أنه خلقه من تراب وذلك أن الله قبض من الأرض قبضة منها خلق آدم وعلى صفاتها جاءت صفات بنوه من بعده لحكمة شاءها المولى كما أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي موسى قال صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر و الأبيض و الأسود و بين ذلك و السهل و الحزن و الخبيث و الطيب و بين ذلك) .

وهذا التراب مر بمراحل فقد بلّ سبحانه هذا التراب بماء حتى صار طينا وتركه مدة حتى صار صلصالا وهو الطين المتحجر ، الملتصق بالأرض وهذا معنى قوله من طين لازب ،

ولقد شاء الله أن تكون هذه القبضة من أنواع التراب كما أخرج ابن سعد من حديث أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (إن آدم خلق من ثلاث تربات :سوداء و بيضاء و حمراء) .

ثم إن الله تعالى صور آدم على صورته التي أراد وجعله أجوف بفم وفرج كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر إليه فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك)

وكان من صفة آدم عليه السلام أنه آدم اللون وبهذا سمي ، وجعله الله طويلا فقد كان طوله ستون ذراعا في السماء كما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (خلق الله آدم على صورته و طوله ستون ذراعا ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر و هم نفر من الملائكة جلوس فاستمع

ما يحيونك فإنها تحيتك و تحية ذريتك فذهب فقال : السلام عليكم فقالوا : السلام عليك و رحمة الله فزادوه و رحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله ستون ذراعا فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن)

فكان خلق بني آدم على خلق أبيهم في صفته ، ولم يزل الخلق ينقص حتى أصبح كما ترون لا يتجاوز الأربعة أذرع ، ثم يوم القيامة قبل دخول الجنة يزاد في خلقهم حتى يكونوا في خلق أبيهم آدم وعلى خُلُقِه كما أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون و لا يتغوطون و لا يتفلون و لا يتمخطون أمشاطهم الذهب و رشحهم المسك و مجامرهم الألوة و أزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء) .

وقد جعل الله آدم على صورته سبحانه بأن جعله سميعا بصيرا متكلما كما أخرج الطبراني في المعجم الكبير ج**12**/ص**430** من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقبحوا الوجه فإن بن آدم خلق على صورة الرحمن تعالى)

وكان ذلك يوم الجمعة كما أخرج أحمد وأبو داود والنسائي من حديث أوس بن أوس قال صلى الله عليه وآله وسلم (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم و فيه قبض و فيه النفخة و فيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) .

وبعد أن مكث آدم المدة التي أراد الله حتى صار طينا لازبا وصلصالا كالفخار ، وكل هذه الأطوار وتشكيل خلق آدم كان بيد الله سبحانه ولم يوكل خلقه لأحد كما قال سبحانه (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) سورة ص

وكما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (احتج آدم و موسى فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده و نفخ فيك من روحه و أسجد لك ملائكته و أسكنك جنته) .

ثم نفخ الله فيه الروح فلما طارت الروح لرأسه عطس كما أخرج ابن حبان والحاكم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (لما نفخ في آدم الروح مارت و طارت فصارت في رأسه فعطس فقال : الحمد لله رب العالمين فقال الله : يرحمك الله).

فقد علمه الله كيفية السلام وعلمه كيف يفعل العاطس وكيف يرد .

بل إنه سبحانه علمه أسماء كل شيء كما قال سبحانه (وعلم آدم الأسماء كلها) والمقصود كما قال ابن كثير في تفسيره ج1/ص74

" قال الضحاك عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها وروى بن أبي حاتم وبن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن بن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم الصحفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية وقال مجاهد (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم كل

دابة وكل طير وكل شيء وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء " أهـ

وبهذا تبين فضل آدم على الملائكة ، فلما أمرهم بالسجود له لم يترددوا في ذلك استجابةً لله أولاً وإقراراً بفضل آدم ثانيا ، إلا إبليس الشقي فمنعه الكبر من السجود فكان من الكافرين كما قال سبحانه (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) البقرة

وعندئذ بدأت العداوة بين آدم وإبليس علانية بعد أن كان إبليس يضمرها في صدره ، فلعن الله إبليس وطرده من ملكوت السماوات وانحطت رتبته عند الله بعد أن كان ذا شأن عظيم ، حيث كان من شأنه أن الله قربه وجعله مع الملائكة ولم يجعله مع أمثاله من الجن ، ثم أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وحذره من عداوة إبليس الذي سيسعى في إخراجه من الجنة ......

قال تعالى (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (38) البقرة

بعد أن خلق الله آدم وأسجد له ملائكته ، وامتنع إبليس أن يكون من الساجدين ، رفع الله منزلة آدمَ وزوجِه أن أسكنهما جنته ، وحذرهما من طاعة إبليس ، وأخبرهما أن في طاعته خروجَهما من الجنة وحذرهما من أن يأكلا من شجرة معينة في الجنة ، وعاقب إبليس أن لعنه و أبلسه من رحمته ، وطرده من ملكوته ، كل هذا بقدر الله وعلمِه السابقِ لخلقه ، لحكمة أرادها المولى جل في علاه ولقد احتوت هذه القصةُ على عبر عظيمة ، غفل عنها بعض الخلق واشتغلوا بما لا فائدة فيه فأخذوا في البحث عن نوع الشجرة التي نهي آدم أن يأكل منها ، وفي الجنة التي أسكنه الله فيها هل هي جنة الخلد أم جنة أخرى ، وكيف وصل إبليس إلى آدم في الجنة فأغواه ، وكيف دخل الشيطان إلى الجنة ومن الذي أدخله ، وأشياءَ يطول ذكرها وعلى المسلم العاقل اللبيب أن ينظر فيما ذكر الله له وأن يجني منه العبرةَ والفائدة وألا يشتغل بما أعرض الله عن ذكره ومالا فائدة في معرفته ، فلو كان في معرفته خيرٌ لنا لذكره الله تعالى لنا ، قال الشيخ ابن عثيمين قدس الله روحه : الأولى للإنسان ألا يضيع الوقت في مثل هذه الأمور التي فائدتها قليلة بالنسبة لغيرها أو ربما لا فائدة فيها إطلاقا . أهـ

ولعلنا أخي القارئ الكريم نعرج على مسألتين في سجود الملائكة لآدم ، الأولى عن المقصود من السجود لآدم ، فقد قال ابن كثير في تفسيره ج1/ص78 عند قوله تعالى

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) قال قتادة فكانت الطاعة لله ، والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته ، وقال بعض الناس كان هذا سجودَ تحية وسلامٍ وإكرام كما قال تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) وقد كان هذا مشروعا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا ، وقال معاذ قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال لا لو كنت آمرا بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ورجحه الرازي وقال بعضهم بل كانت السجدة لله و كان آدم قبلةً فيها كما قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وفي هذا التنظير نظر والأظهر أن القول الأول أولى والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما وهي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ماعداه من القولين الآخرين أهـ

والمسألة الأخرى : الحكمة من طرد إبليس من الملكوت حيث يقول ابن كثير في تفسيره ج**1**/ص**78**: عند قوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)

قال قتادة :حسد عدو الله إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال أنا ناري وهذا طيني وكان بدء الذنوب الكبر ، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام ، قلت القائل ابن كثير :وقد ثبت في الصحيح لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس أهـ

وعودا على بدء ، لقد سكن آدم الجنة هو وزوجته حواء ، وفي قوله (أسكن أنت وزوجك الجنة) دلالة على أن خلق حواء كان قبل أن يدخل آدم الجنة ، خلافا لمن قال

: لما سكن آدم الجنة ضاق صدره لكونه لوحده فخلق الله له حواء ، ومعلوم أن حواء خلقت من ضلع آدم كما صح ذلك في الحديث كما أخرج مسلم في صحيحه وأصله في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال صلى الله عليه وآله وسلم (إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت بها و بها عوج و إن ذهبت تقيمها كسرتها و كسرها طلاقها) .

ولبعض أهل العلم كلام لطيف عن الحكمة التي من أجلها خلقت حواء من ضلع آدم حيث يقول : لما خلق الله جسم آدم ولم يكن فيه شهوةُ نكاح وقد سبق في علم الله إيجاد التناسل في هذه الدار لبقاء النوع، استخرج من ضلعه القصير حواء فقصرت بذلك عن درجة الرجل { وللرجال عليهن درجة } فلا تلحق بهم أبداً وكانت من الضلع للانحناء الذي في الضلوع لتحنو على ولدها وزوجها فحنو الرجل عليها حنوه على نفسه لأنها جزؤه وحنوها عليه لكونها خلقت من الضلع والضلع فيه انحناء وانعطاف ، وعمر الله المحل من آدم الذي خرجت منه الشهوة إليها لئلا يبقى في الوجود خلاه ، فلما عمره بالهوى، حن إليها حنينه على نفسه لأنها جزء منه فحنت إليه لكونه موطنها الذي نشأت فيه فحُبُها حبُ وطنِها وحبه حبُ نفسِه ، وصُوِّر في ذلك الضلع جميع ما صور في جسم آدم ونفخ فيها من روحه فقامت حية ناطقة محلاً للحرث لوجود الإنبات فسكن إليها وسكنت إليه فكانت لباساً له وكان لباساً لها { فتبارك الله أحسن الخالقين } .

ومن المسائل التي تثار ولا فائدة فيها تذكر هل إبليس من الملائكة أم الجن ؟

ونسوق قول الحسن البصري رحمه الله ، قال بن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدي بن أبي عدي عن عوف عن الحسن قال (ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه

لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس)وهذا إسناد صحيح عن الحسن وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء . وقد قال تعالى (إلا إبليس كان من الجن) الآية

نعود لأصل موضوعنا وهو دخول آدم الجنة ، فهذا كان إكراما من الله له ولزوجه ، وإرغاما للشيطان ، فسكن آدم الجنة وحذره الله من أمرين : أن لا يقرب شجرة عينها له سبحانه ، و أن لا يطيع الشيطان ، فعاش آدم في الجنة ينعم فيها هو وزوجه ما شاء الله أن يعيشا ، يأكلان من حيث شاءا رغدا ثم لما كان في سابق علم الله أن آدم ينزل إلى الأرض ويسكن فيها ويتناسل هو وذريته ، ابتلي آدم بطاعة الشيطان فجاءه إبليس وأقسم له إنه لمن الناصحين ولم يكن آدم يظن أن أحدا من الخلق يقسم بالله كاذبا ، وبين له أن في أكله هو وزوجه من الشجرة المنهي عنها سببا في أن يكونا من الملائكة وأنهما يخلدان في الجنة بلا خروج ولا موت ، وكان آدم يخشى الخروج من الجنة ويرغب أن يعيش أبدا في الجنة ، ولذلك أغواهما إبليس من طريق يعلم أنهما يرغبان فيه ، فما زال بهما حتى أكلا من الشجرة ، كما قال سبحانه (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) سبحان الله كم في هذا الموقف من عبرة لمن تأملها !!! ...

لما ذاق آدم و زوجته تلك الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وذلك أن الله كساهما ما يستران به عوراتهما ، فلما عصيا سلب الله منهم ذلك الستر فاستحيا وأخذا يركضان في الجنة ويقطعان من ورق الجنة ما يستران به عوراتهما ، فنادى الله آدم يا آدم أفرارا مني قال بل حياء يارب ، قال ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين

.

قال ابن كثير تفسيره ج2/ص207

قال الثوري عن بن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن بن عباس وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال ورق التين قال ابن كثير :صحيح إليه ، وقال مجاهد جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب وقال وهب بن منبه في قوله ينزع عنهما لباسهما قال كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما رواه بن جرير بسند صحيح إليه أهـ

وهذا كما قال تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (**115**) طه

نسي أي أخطأ ولم نجد له عزما أي حفظا ، وما كان هذا إلا بقدر الله لينفذ قدره ويتم ابتلاؤه ،

ثم إن آدم وزوجه طلبا المغفرة من الله الغفار فقالا (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذه هي الكلمات التي ألقاها الله في رُوع آدم وزوجه لما أراد الله أن يتوب عليهما ، فقالا تلك الكلمات طالبين للمغفرة من الله كما قال سبحانه فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (**37**)

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال آدم أي رب أرأيت إن تبت واستغفرت قال إذا أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطى كل واحد منهما الذي سأله .

فهبطوا جميعا ، آدم وزوجه ، وإبليس وبعض المفسرين والمؤرخين يقول والحية ويزعمون أنها هي التي أخفت إبليس حتى دخل في الجنة ووسوس لآدم ، وهذه أمور لم يأت بها دليل صحيح وإنما تلقفها بعض أهل العلم من أهل الكتاب والله أعلم بصوابها .

أخي القارئ :حكم سبحانه على آدم وحواء وإبليس أن ينزلا من ملكوت السموات إلى الأرض وأن يعيشا فيها أعداء كما قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو)

قال ابن كثير في تفسيره ج3/ص169

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعا أي من الجنة كلكم ، بعضكم لبعض عدو قال آدم وذريته وإبليس وذريته .أهـ

هبطوا جميعا ولم يثبت سند صحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أماكن هبوطهما ، والقول بأن الله أنزلهما متفرقين كل واحد في منطقة لا دليل عليه وهي مما نقله أهل العلم عن بني إسرائيل ، وحتى صفة نزولهما لم يبين لنا رسولنا فيها شيئا ، ولو كان في ذلك فائدة لحدث به الذي ما من خير إلا ودل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه صلوات ربي وسلامه عليه .

أيها ا لقارئ الكريم: لما نزل آدم من الجنة أحس بآثار المعصية فبعد أن كان إذا تمنى شيئا أتاه في الحال بلا بذل سبب ، أصبح لابد أن يطرق الأسباب ، فيزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز وهكذا ، غير أنه استعان بربه و جد في العمل وهو يحن إلى وطنه الأول ويسعى في العودة إليه كما قال ابن القيم رحمه الله في ميميته :

فحي على جنات عدن فإنها********منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ***** نعاد إلى أوطاننا ونسلمُ**

وهكذا عاش آدم وزوجه في الأرض وتناسلا وتناكحا فقد كان جائزا في شريعته نكاح المحارم ولا بد فلا يوجد في الأرض غيرهم ، وقد ورد عن بعض الصحابة والتابعين أن حواء كانت تلد في كل بطنٍ ذكرا وأنثى ، وهكذا يتناكحون و يتناسلون ، حتى عمروا الأرض وكان من قصصهم ما قص الله علينا في سورة المائدة من قتل قابيل لأخيه هابيل وهو أول دم أريق في الأرض ، بغض النظر عن مسألة هل هما ابني آدم لصلبه أم أنهما من نسل بنيه ، كما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل).

روى ابن جرير الطبري في تفسيره ج6/ص188

عن مرة عن بن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي قالوا : كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج غلامَ هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ويزوج جارية هذا البطن غلام البطن هذا الآخر حتى ولد له ابنان يقال لهما قابيل وهابيل وكان قابيل صاحب زرعٍ وكان هابيل صاحب ضرعٍ وكان قابيلُ أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوجها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى وإنهما قربا قربانا إلى الله أيهما أحق بالجارية وكان آدم يومئذ قد غاب عنهما إلى مكة ينظر إليها ، وكان قابيل يفخر عليه فقال أنا أحق بها منك هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصي والدي فلما قربا قرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها

**

سنبلةً عظيمة ففركها فأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال هابيل إنما يتقبل الله من المتقين أهـ

وكان من أمر آدم في الأرض أنه أول من طاف بالكعبة على الصحيح لأن القواعد كانت موجودة قبل إبراهيم وإنما رفعها إبراهيم ، قال الحافظ الذهبي في كتابه العلو (مختصر الألباني ص **129**) : عن أبي قلابة قال : لما أهبط الله تعالى آدم قال : يا آدم إني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي) فلم يزل كذلك حتى كان الطوفان رفع فكانت الأنبياء تحجه يأتونه فلا يعرفون موضعه حتى بوأه الله لإبراهيم) قال الذهبي تعقيبا على هذا الأثر : وهو ثابت عن أبي قلابة ، وأين مثل أبي قلابة في الفضل والجلالة ؟.

وقد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس بسند صحيح قال في قوله (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ...) قال القواعد التي كانت قواعدَ البيت قبل ذلك أهـ

وقد ورد أن آدم كان عُمّر ألف سنة كما أخرج الترمذي في سننه من حديث ابن مسعود قال صلى الله عليه وآله وسلم : (لما خلق الله آدم و نفخ فيه الروح ....الحديث وفيه (فقال الله له و يداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت قال : اخترت يمين ربي و كلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم و ذريته فقال أي رب ! ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال : يا رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود و قد كتبت له عمر أربعين سنة قال يا رب زد في عمره قال : ذاك الذي كتبت له قال : أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال : أنت و ذاك ثم أسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط

منها فكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم : قد تعجلت قد كتب لي ألفُ سنة قال بلى و لكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته و نسي فنسيت ذريته فمن يومئذ أمر بالكتاب و الشهود) . وهذا حديث حسن بشواهده وقد صححه العلامة الألباني رحمه الله .وقد كانت المدة بين آدم ونوح ألف سنة كلها على التوحيد .

أخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين .

فلم يعرف الشرك في آدم وذريته حتى جاء القوم الذين أرسل فيهم نوح عليه السلام .

كما أنه لم يعرف المكان الذي مات فيه آدم عليه السلام إلا أنه مات في الأرض ودفن فيها .

الفوائد المجنية من قصة آدم

وفي ختام قصة آدم عليه السلام و سنذكر الفوائد المجنية من هذه القصة العظيمة ، وهي وإن كانت فوائدها غزيرةً ويعجز العقل عن إحصائها إلا أن القليل مما يفتح به الله ، فيه خير كثير ، وإن من أهم الحكم في جميع القصص التي ذكرها الله في كتابه ، أخذ العبرة منها كما قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)

فإذا اعتبر المسلم بهذه القصص وجعلها دروسا عملية لحياته ، لا شك أنه سيفلح وينجح في ابتلاء الدنيا ، كيف لا ؟ وهو يستعرض أمثال قصة أبيه آدم التي أودع الله فيها مفاتيح البلاء وكيفية التعامل معها ، ومثل هذا يتضح جليا عند استعراض تلك الحكم والعبر وهو مانحن بصدده

فمن الحكم والعبر في قصة أبينا آدم ، بيان سعة علم الله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، حيث قدر خلق آدم ورتب له تلك الحوادث مع إبليس ، ليتدرج فيها وينزل إلى الأرض ليعمرها هو وبنوه ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن الحكم كذلك : إكرام الله لبني آدم حيث خلق أصلهم بيده سبحانه ، وهذه منة لم ينلها من خلق الله إلا آدم ، وجنة عدن حيث غرسها سبحانه بيده ، وقيل كذلك في التوراة حيث كتبها الله بيده ، فدل ذلك على أن الله أراد بهذا الخلق الخير والرحمة ، ولذلك خلقهم .

ومن الحكم كذلك أن نعلم أن صالحي المؤمنين خير من الملائكة ، وهي وإن كانت مسألةً خلافية إلا أن هذا واضح في هذه القصة فانظر كيف أن الله سبحانه بين لهم فضيلة آدم عندما علمه أسماء كل شيء ، ثم عرضها على الملائكة ليعلموا بذلك عجزهم ، ويتضح لهم فضل آدم ، ثم لم يكتف بذلك حتى أمرهم بالسجود له علانية ، وعاقب من أبى بأشد العقوبة ، ثم تقريبُ الله له وإسكانُه الجنة ، ثم توبته عليه بعد المعصية ، كلها تدل على فضيلة آدم وذريته من بعده ، فكل فضل لآدم هو للصالحين من ذريته من بعده كما قال تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (**70**)الإسراء

ومن الدروس المستفادة من هذه القصة العظيمة أن نعلم أن الذنب قد يقع من الكبار ، وممن له قدم راسخة في الدين ، وليس هذا عيبا بحد ذاته فهو مما جبل الله عليه الناس كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (و الذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم و لجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) .

كما أن فيها من العبر معرفة كيفيةَ التوبة من الذنب ، كما فعل آدم عليه السلام ، فالإقرار بالذنب ، من أول أسباب التوبة ، والاعتراف بأن الخسارةَ لاحقةٌ من لم يغفر الله له ، والتخلي من الحول والقوة ، وسؤال الله بأسلوب الذل والافتقار ، داعٍ أكيد لقبول التوبة .

وهذا واضح في قوله تعالى (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(23) الأعراف

ومن العبر في هذه القصة ، استشعار قبح المعصية ولو صغرت ، فآدم عليه السلام لم يرتكب جرما عظيما لا من القتل ولا الزنا ولا مما يكبر عند الله وإنما أكل من الشجرة المنهي عنها فعوقب بالخروج من الجنة والنزول من ملكوت السموات ، فقلي بربك كيف الحال بمن ارتكب العظام من الذنوب !!

يا ناظرا يرنو بعيني راقد.... ومشاهدا للأمر غير مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درج الجنان ونيلَ فوز العابد

أنسيت ربك حين أخرج آدمَ ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال أبو الوفاء بن عقيل : أحذر ولا تغتر فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر وقد دخلت المرأة النار في هرة واشتعلت الشملة نارا على من غلها شهيدا.أخي القارئ :يحسن بنا أن نتحدث عن معصية آدم لربه في أكله من الشجرة ، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (احتج آدم و موسى فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده و نفخ فيك من روحه و أسجد لك ملائكته و أسكنك جنته أخرجت الناس

من الجنة بذنبك و أشقيتهم ! قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته و بكلامه و أنزل عليك التوراة أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ؟ ! فحج آدم موسى) .

وهذا الأمر يدعونا إلى الحديث عن الاحتجاج بالقدر في المصائب والمعائب ، وذلك أن المسلم له أن يحتج بالقدر في المصائب كما فعل آدم وليس له أن يحتج بالقدر في المعائب ، إلا إذا تاب منها كما فعل آدم عليه السلام فمن أصيب بمصيبة فيشرع له أن يقول قدر الله وما شاء فعل ، ويحتج على من لامه على وقوعه في مصيبة بالقدر وأن الله قدر ذلك ، أما المعاصي فليس له أن يذنب ويحتج بالقدر لأن الله قد جعل للعبد قدرةً ومشيئة في الترك والفعل ، لكن لو أذنب ثم تاب منها ثم جاءه من يلومه في وقوعه في المعصية فله الاحتجاج بالقدر كما فعل آدم عليه السلام .

ومن جهة الذنب الذي وقع فيه آدم ، لا بد من ذكر أمر وهو أن آدم قارف الذنب وهو وجل وفي حالة نسيان وهذا كما قال تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) طه

نسي أي أخطأ ولم نجد له عزما أي حفظا ، وما كان هذا إلا بقدر الله لينفذ قدره ويتم ابتلاؤه .

وفرق بين من يقع في الذنب مع الإصرار ، بل وهو مطمئن ومتلذذ بالفعل ، وبين من يقارف الذنب وهو وجل ومشفق ، قد نسي النهي حال المقارفة .

ومن الحكم في هذه القصة العظيمة ، معرفة قبيح عاقبة المعصية ، فانظر إلى حال إبليس وحال آدم بعد وقوعهما في المعصية ، فهذا إبليس بعد أن كان مقربا قد جعل في عالم

الملائكة وهو جني الأصل ، لما قارف المعصية ولم يتب ، لعن و طرد من ملكوت السموات ، وجعل مصيره إلى النار . وآدم بعد أن كان ينعم في الجنة يأكل منها حيث شاء رغدا ، وكما قال الله له (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى(118)وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى(119) طه

وكان كل شيء يأتيه بالطلب والشهوة ، فلما عصى تبدلت هذه الحال فوقع في التعب والشقاء كما قال سبحانه (فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(117) طه

وانظر إلى عقوبة آدم وعقوبة إبليس كيف خفت على آدم وعظمت على إبليس تعرف فضل التوبة

ومن شؤم المعصية أن من كان على خير ونعمة وعصى وسلب تلك النعمة فإنها لا تعود له بل حسبه أن يسلم من العقوبة ، وإن عاد عادت بعد فَقْدٍ ومدة يتبين فيها صلاحه ، ومن لم يتب فالجزاء يكون في الآخرة إن سلم من عقوبة الدنيا ، إن لم يتفضل الله عليه بالمغفرة .

و من الدروس الظاهرة في هذه القصة التنفيرُ الشديد من خُلق الكبر ، وأنه موروث شيطاني ، وكيف أنه أدى بصاحبه إلى الإبلاس واللعن والطرد من رحمة الله بل ومعاندة الرب جل في علاه وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ ».

وروى ابن جرير بسنده عن الحسن في قوله: { خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. وهذا سند صحيح.

وروى بسنده عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضا.

قال في تفسير السعدي - (ج 1 / ص 284) : وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنه باطل من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعا لها.

فأما قياسٌ يعارضها، ويَلزمُ من اعتباره إلغاءُ النصوص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أن قوله: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟"

ومنها: أنه كَذَبَ في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركاتُ الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين.

وفي هذا التحذير من القياس الفاسد وأن فيه مزالقَ عظيمة ، خصوصا إذا كان صادرا من هوى وكان مصادما للنص .أهـ

ومن الفوائد أيضا أن نعلم أن أول من قال بالاحتجاج بالقدر هو إبليس حيث قال (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (16) الأعراف

فنسب الإغواء إلى الله ليبرِّأ نفسه فصار بذلك قائدا للجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على فعله ، وفي معرفة ذلك أشدُ التنفير من مذهب الجبرية حيث تبين كذبُ قائِدهم ، وبطلان دعواه حيث لم تنفعه عند الله .

ومما يستفاد من هذه القصة العظيمة أن يعلم ابنُ آدم أن الشيطان هو العدو اللدود فقد أقسم بحضرة الله أن يسعى جاهدا لإضلال ابنِ آدم وأنه سيقف له بكل طريق ، ولقد حذر الله آدم منه وبين له أنه عدو له ولزوجه ، ثم حذر الله بني آدم كلَّهم من عداوته فقال { يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } .

يقول تعالى، محذرا لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: { يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ } بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتنقادون له { كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ } وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتى يفتنكم، إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لأمَةَ الحرب بينكم وبيْنه، وأن لا تغفُلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف { إِنَّهُ } يراقبكم على الدوام، و { يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ } من شياطين الجن { مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } فعدم الإيمان هو الموجب لعقد

الولاية بين الإنسان والشيطان.{ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ }.

ومن الدروس المستفادة من هذه القصة العظيمة ، أن الشيطان قد أجيب في النظرة ، فهو باقٍ إلى يوم القيامة ، فلا يجوز الدعاء عليه بالموت أو الهلاك كما نسمعه من البعض ، بل الواجب الاستعاذة منه كما ورد ، كما أن الله أعطاه الإذن القدري في إضلال الغاوين من بني آدم ، وأنه يقودهم إلى النار كما قال تعالى (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(36)قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ(37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(38)قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) فيتبين لنا من الآية أن مهنة إبليس في الأرض إغواء الناس والتزيين لهم ، حتى يحشرهم معه في جهنم ، ومما لا ينقضي العجب منه ، كيف يعلم الناس علم اليقين أن الشيطان لهم عدو ثم يطيعونه بل يتخذونه وليا ، كما قال تعالى (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(50)

ولعل البعض يتساءل كيف وقع آدم في هذه المعصية وكيف أطاع الشيطان وقد حذره الله منه ؟

والجواب : أن يقال كما أنك عصيت الله وأطعت الشيطان ، وقد بين الله لك أنه عدوك ، وحذرك من طاعته ، فكذلك وقع من آدم ، ثم لنعلم أن هذا الذنب وقع من آدم قبل أن يكون نبيا ، وهذه نقطة يغفل عنها الكثير من الناس ، وحتى لو كان نبيا ، فهذا الذنب من الصغائر ، والصغائر جائزة على الأنبياء والرسل ، ولكنهم لا يقرون عليها بل ينبهون ويتوبون كما حصل لآدم عليه السلام وقد حصل هذا لنبينا محمد صلوات ربي وسلامه عليه ، كعبوسه في وجه الأعمى وكقبول الفداء يوم بدر ، وكتحريم العسل ،

وكإذنه للمنافقين في الجلوس عن الغزو كما في سورة التوبة وغيرها ، ومما لا شك فيه أنهم معصومون عن الكبائر .

قال ابن عادل في تفسيره اللباب : قال ابن الخطيب : واقعة آدم عجيبة ، وذلك لأن الله تعالى رغَّبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله : { فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تضحى } [طه : 117–119] ورغَّبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله : { هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد } وفي انتظام المعيشة بقوله : { وَمُلْكٍ لاَّ يبلى } فكان الشيء الذي رغَّب (الله تعالى آدم) فيه هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة ، وإبليس وقفه على الإقدام عليها ، ثم إن آدم –عليه السلام– مع كمال عقله وعلمه (بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه) وأعلمه بأن عدوه حيث امتنع من السجود له ، وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته ، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بعداوته له ، وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمولى . ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه ، وعرف آخر الأمر أنّ هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ، ولا مانع منه ، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله ذلك وقدره .أهـ

وبهذا أيها القارئ الكريم نأتي على نهاية قصة أبينا آدم عليه السلام ، ومن شيء من فوائدها ، وتركنا الكثير لضيق المقام ، وقد أعرضنا عن كثير من الإسرائيليات في قصة آدم عليه السلام التي لا فائدة فيها أو أنها لا تصح .

قصة موسى عليه السلام

تحدثنا فيما مضى عن قصة أبينا آدم عليه السلام ، ولما كان منهجنا أن نمر على القصص القرآنية على حسب ترتيب ورودها في القرآن بدأ بالبقرة حتى نهاية القرآن ، كان حديثنا الآن عن قصة موسى عليه السلام حيث قال سبحانه في سورة البقرة (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(49) ومن المعلوم أن قصة موسى عليه السلام تكررت في القرآن كثيرا مطولة ومختصرة ، وكان من أطولها سياقا ما قصه الله علينا في سورة القصص حيث ذكر ولادة موسى ونشأته ومقارعته لفرعون ، ولعلنا نعرّف بشخصيات القصة وأراضيهم قبل الشروع في القصة .

فموسى هو ابن عمران وعمران هذا من نسل يعقوب عليه السلام ، وليس هو عمران والد مريم عليها السلام فبينهما قريبٌ من ألفي سنة ، وإنما كانوا يسمون بأسماء صالحيهم ، كما قال قوم عيسى لمريم (يا أخت هارون) ولم تكن أخته وإنما ذكّروها بالصالحين من آبائها .

وأخوه هارون أكبر منه بسنة ، وكان لهما أخت أكبر منهما بكثير ، هذا ماورد في القرآن كما في سورة القصص .

" فرعون " قيل إنه اسم ذلك الملك بعينه.

وقيل هو اسم كل ملك من ملوك العمالقة مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة وأن اسم فرعون موسى قابوس في قول أهل الكتاب.

قال السهيلي وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون.

وكان فارسيا من أهل اصطخر.

قال المسعودي لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية.

قال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وكلُ عاتٍ فرعون ، والعتاة الفراعنة.

وبنو إسرائيل هم من تناسل من أبناء يعقوب عليه السلام فإسرائيل اسم ليعقوب عليه السلام .

والأقباط هم ذرية حام وهم أتباع فرعون ، وهم أمم متفرقة في البلاد تجمعوا حول فرعون بمصر .

ولعلنا أخي القارئ نبدأ قصة موسى من قبل ولادته ونستمر في أحداثها كما ورد في القرآن الكريم حتى نهايتها ، ذاكرين بإذن الله ماصح في ذلك منبهين على دخائلها ومالا يصح فيها ثم نختم بالفوائد والعبر المجنية منها فإلى بدء القصة

لقد كان موسى من بني إسرائيل وكانوا يعيشون بمصر وكان بنو إسرائيل قد عتو في الأرض بالفساد ، وارتكاب المعاصي ، فسلط الله عليهم فرعون فتملك مصر ورفع من شأن الأقباط ، وسام الإسرائيليين سوء العذاب ، وهذا هو توعد من الله لبني إسرائيل أنهم كلما أفسدوا في الأرض أرسل الله لهم من يسومهم سوء العذاب كما قال تعالى (وإن عدتم عدنا) حتى أذن الله بفرجهم ببعثة موسى عليه السلام وكان من شأن فرعون قبل بعثة موسى عليه السلام ما رواه ابن جرير بسنده في تاريخه وتفسيره (تفسير الطبري – (ج 2 / ص 44) عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم قال: كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر. فدعا السحرة والكهنة

والعافة والقافة والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه –يعنون بيت المقدس– رجل يكون على وجهه هلاك مصر. فأمر بني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت. وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة. فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم، فذلك حين يقول الله تبارك وتعالى:(إن فرعون علا في الأرض) –يقول: تجبر في الأرض–(وجعل أهلها شيعا)– ، يعني بني إسرائيل، حين جعلهم في الأعمال القذرة–،(يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ) [القصص: 4] فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير. وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم. فدخل رؤوس القبط على فرعون، فكلموه، فقالوا: إن هؤلاء قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا! بذبح أبنائهم، فلا تبلغ الصغار وتفنى الكبار! فلو أنك كنت تبقي من أولادهم! فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة. فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد هارون، فترك، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى .أهـ

فلما جاء المخاض أم موسى خرجت خارج البلد خوفا عليه من فرعون وملئه ، فلما وضعته ، ورأت أنه ذكر ضاق صدرها ، وخشيت عليه ، فقيل ألقته في اليم مباشرة بعد أن قذف الله في رُوعها أن ألقيه في اليم فوضعته في تابوت وألقته ، وقيل لم تلقه إلا بعد أربعة أشهر ، وأيهما كان فقد وضعته في تابوت من خشب وألقته في اليم ، وهذا اليم هو – نيل مصر –

قال ابن جرير في تفسيره وأولى قول قيل في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر أمّ موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليمّ.

وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادتها إياه ،وأيّ ذلك كان، فقد فعلت ما أوحى الله إليها فيه، ولا خبر قامت به حجة، ولا فطرة في العقل لبيان أيّ ذلك كان من أيٍّ، فأولى الأقوال في ذلك للصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه، واليمّ الذي أُمِرَت أن تلقيه فيه هو النيل.أهـ

ولو قال قائل كيف طاوعها قلبها على رمي ابنها في النيل ، فالجواب أن الله ألقى في قلبها أن اقذفيه في النيل ولا تخافي عليه فلن يضره ذلك ولا تحزني فهو خير له وآمن عليه ، وسوف نرده إليك بعد حين ونجعله رسولا إلى من تخشين عليه منه .كما قال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7) القصص

ثم إن الله جعل التابوت يمر على نساء فرعون وهن الخادمات وقد وقفن على النيل يغسلن ، فرأينه فأخذنه إلى امرأة فرعون ، وهي آسية بنت مزاحم ، فلما رأته ألقى الله في قلبها حُبَّه ، فطلبت من فرعون أن يهبه لها ، فوهبها إياه ، وعاش في كنف فرعون فسبحان الله ما أعظم قدرته ، ولما احتاج إلى الرضاع لم يقبل أي مرضعة ، فطلبوا له من كل ناحية حتى وقع الاختيار على أم موسى فالتقم ثديها وحقق الله وعده لأمي موسى ، فرده إليها وأصبحت ترضعه بثمن ، وأمنت عليه من فرعون فأصبح يعيش في كنفه بعد أن كان يطلبه ليقتله ، سبحان من لا يكون في ملكه إلا مايشاء .

فبعد أن التقطه آل فرعون وقبل فرعون طلب امرأته في عدم قتله ، أصبح يسمى ابن فرعون ، فطلبت أم موسى من أخته الكبيرة أن تقص أثره وتسمع أخباره ، فبصرت به مع القوم وهم يبحثون له عن مرضعة وهو لا يقبل أي ثدي منهن ، حتى قالت لهم هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فجاءت بأمه فالتقم ثديها ،

وأخذت وأكرمت وأعطيت ثمن الرضاع فكان يعيش في قصر فرعون وكانت أمه تأتيه صباحا ومساء لترضعه ، حتى شب وكبر وأصبح له شأن في البلد فكان ينقذ من يرى من المستضعفين من بني إسرائيل على يد الأقباط ، حتى بلغ أشده ، وهو ابن بضع وثلاثين سنة أو أربعين على خلاف بين أهل التأويل ، فدخل المدينة في وقت هدوء الناس فوجد رجلين يقتتلان ، فصاح الإسرائيلي بموسى طالبا النجدة ، فقام موسى بنجدة الإسرائيلي حيث كان بنو إسرائيل مستضعفين من قبل القبط ، وكان موسى ينجد من استطاع منهم ، حيث كانت له المكانة في الناس بحكم عيشه في قصر فرعون ، وذلك أن موسى عليه السلام كان يسمى ابنَ فرعون، فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه ، وكان دخوله المدينة وسط النهار وقيل بين المغرب والعشاء ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى، لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم، فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون، { فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، والاستغاثة: طلب الغوث، فغضب موسى واشتد غضبه؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني: خل سبيله، فقال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، فنازعه، فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك، وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش، { فَوَكَزَهُ مُوسَى } وقرأ ابن مسعود: "فلكزه موسى"، ومعناهما واحد، وهو الضرب بجمع الكف. وقيل: "الوكز" الضرب في الصدر و"اللكز" في الظهر. وقال الفراء: معناهما واحد، وهو الدفع، فندم موسى عليه السلام، ولم يكن

قصده القتل، فدفنه في الرمل، { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } أي: بين الضلالة.

ثم عاهد الله أنه لن يعين كافرا بعد اليوم ، وفي هذا دلالة على أن الذي أعانة موسى كان كافرا ، ولما لم يقل إن شاء الله ابتلي بذلك في اليوم التالي قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني.

وكان موسى بعد قتله للقبطي خائفا أن يفتضح أمره ، وكان يمشي في المدينة وهو خائف يترقب ، وبينما هو كذلك إذ دخل المدينة مرة على غفلة من الناس فوجد صاحبه الإسرائيلي الذي نصره بالأمس يقتتل مع قبطي آخر ، فلما رأى موسى فرح ورجا أن ينصره ، فستصرخه على عدوه فقال له موسى إنك لغوي مبين ، فخشي الإسرائيلي أن يقتله موسى فقال له أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ، فسمعها القبطي فعرف أن موسى كان هو القاتل ، فأسرع وأخبر فرعون ، فأرسل فرعون في طلبه ، وقيض الله ذلك الرجل الناصح، ذُكر أنه مؤمن آل فرعون، وكان اسمه فيما قيل: سمعان ، وقال بعضهم: بل كان اسمه شمعون.وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رَأْيُ ملئهم. فقال: { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى } أي: ركضا على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به، قبل أن يشعر، فـ { قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأ يَأْتَمِرُونَ } أي: يتشاورون فيك { لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ } عن المدينة { إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } فامتثل نصحه.

{ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ } أن يوقع به القتل، ودعا الله، و { قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } وخرج قاصدا مدينة مدين ، ولم يكن يعرف الطريق ولهذا قال (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) القصص

**

ومدين من أراض الحجاز محاذيةً للبحر الأحمر ، جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون، فخرج إليها وهو خائف من الطلب أن يتبعوا أثره حتى وصل إلى مدين فوجد في مدخل المدينة بئرا عندها قوم يسقون أغنامهم ، ووجد امرأتين معهما غنم معتزلتين لا يسقيان ، وكان حالهما كما ذكر الله { امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ } يعني: تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يَفرغَ الناس وتخلو لهم البئر، ، وهو قوله: { قَالَ } يعني: موسى للمرأتين، { مَا خَطْبُكُمَا } ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس؟ { قَالَتَا لا نَسْقِي } أغنامنا، { حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ } حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء، و"الرعاء" جمع راع، مثل: تاجر وتجار. ومعنى الآية: لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء، لأنا امرأتان لا نطيق أن نسقي، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض.

{ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } لا يقدر أن يسقي مواشيه، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم. وقد وقع الخلاف بين أهل العلم في اسم أبيهما، فقال مجاهد، والضحاك، والسدي والحسن: هو شعيب النبي عليه السلام. وقال وهب بن منبه، وسعيد بن جبير: هو يثرون بن أخي شعيب، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كُفَّ بصره ، وقال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر الآراء السالفة (3 / 385-386): "وقال آخرون: كان شعيبٌ قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه: (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو -والله أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب: أنه لو كان إياه لأوشك أن يُنَصَ على اسمه

في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده".أهـ وبهذا يترجح لنا أن هذا الرجل ليس بشعيب النبي وإنما هو رجل صالح من ذرية شعيب ، وقد كانوا يسمون بأسماء صالحيهم ، ولنعد لقصتنا ، فبعد أن سقى لهم موسى وكان يوما حارا ، تولى إلى الظل ثم ناجى ربه ، فقال (ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير) فقد ضمن ثنائه على ربه الدعاء بأن يلطف به ويزيد في رزقه ، فاستجاب الله دعائه فبينا هو جالس في الظل ، إذ جاءته إحدى البنتين فقالت له إن أباها يدعوه ليجازيه أجر السقاية ، قال ابن كثير في تفسيره (ج **6** / ص **228**) روى ابن أبي حاتم بسنده عن عمر رضي الله عنه قال : جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع خَرَّاجةً ولاجة. إسناده صحيح.

قال الجوهري: السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة.وكان موسى جائعا ، خائفا فأحب أن يستأنس بأبيهم قال ابن كثير في تفسيره – (ج **6** / ص **227**) قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فما وصل مَدْيَن حتى سقطت نعل قدمه. وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة أهـ وقد كان سقيه لغنمهم تبرعا ، فذهب مع البنت إلى أبيها ، فجاءه فجلس معه واستأنس به وقص عليه خبره كله من قتل القبطي وطلبِ فرعون له وهروبِه إلى هذه البلدة فقال له الشيخ الكبير : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، حيث إن مدين لم تكن تابعة لملك فرعون ولا يستطيع الوصول إليها ، فتكلمت إحدى البنتين وكانت أعقلَهما ، فقالت يا أبتي استأجره لرعاية الغنم فإنه قوي أمين ، وقد ظهرت قوته في سقيه لغنمهم أولا وقد أخرج ابن أبي شيبة في

مصنفه(226/6) عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن موسى عليه السلام، لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرةُ رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم. إسناد صحيح ، وأما أمانته فظهرت في رعيه حرمة البنتين وسقيه لغنمهما ، وإشفاقه عليهما ، ولم تحدثه نفسه للنيل منهما كما ينقدح في ذهن الفساق خصوصا أن أباهما شيخ كبير ، وقد قال عمر، وابن عباس، وشُريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: { إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ } قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنه لما جئت معه تقدمتُ أمامهُ، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اجتنبت الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدّى إليه.

فوافقها أبوها على قولها فقال لموسى سأنكحك إحدى ابنتي ، ولك الخيار بينهما ، وسيكون المهر أن ترعى لنا الغنم ثمان سنين ، وإن أكملتها عشر سنين فهذه زيادة منك ، فوافق موسى ونكح إحداهما وعاش عندهم حتى أتم عشر سنين ، ثم انطلق بأهله راجعا لبلده بعد أن أيقن أنهم قد نسوا تلك الحادثة ولما كان في الطريق تاه عن الجادة فرأى نارا ، ففرح بها ، وتوجه لها ، يرجو الدلالة .

لقد كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمةٍ باردة، وكان قد أضل الطريق فنزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يُضيء شيئًا، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ { آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا } أي: رأى نارا

تضيء له على بعد ، { قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا } أي: حتى أذهب إليها ، { لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ } أي أهتدي إلى الطريق الصحيح ، { أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ } أي: قطعة منها ، { لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } أي: تَتدفؤون بها من البرد ، فذهب موسى متوجها إلى حيث يصدر ضوء النار فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ } أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ } ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحْف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتًا في أمرها، فناداه ربه : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) ولعل سائلا يسأل لم أمر موسى لأن يخلع نعليه ؟ وقد تكلم على ذلك أهل العلم ، قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكيّ.

وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيمًا للبقعة.

وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير منتعل. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وكان أول ما قرع أذني موسى من كلام الله التوحيد ، يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه!

ثم أراد الله سبحانه أن يطمئنه لما رآه خائفا ويريه بعض آياته فقال له : وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ، وهذا فيه دلالة على أن موسى استأنس بالخطاب فأخذ في التفصيل ، وكان يكفيه أن

يقول هي عصاي فقط ، ولكنه استرسل في الحديث مستأنسا بخطاب الله له ، ثم أراد الله سبحانه أن يريه آية ليزداد إيمانه ، فأمره سبحانه أن يلقي عصاه فألقاها فانقلبت حية عظيمة و هذا برهانٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزةٌ عظيمة، وخرقٌ للعادة باهر، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وتفسير قول موسى{ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } أي: أعتمد عليها في حال المشي { وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي } أي: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي.

قال عبد الرحمن بن القاسم: عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المِحْجَن في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضًا.

وقوله: { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى } أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

قال ابن كثير رحمه الله : والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانًا، فما كان يفر منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم عليه السلام. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة . أهـ

إن هذا اللقاء الذي من الله به على موسى هو أعظم لقاء حصل له عليه السلام في حياته ، حيث كان على موعد من ربه ، فلما جاء للوادي وكلمه ربه وعرفه بذاته العلية ، أمر الله موسى أن يلقي عصاه ، فألقاها فانقلبت بإذن الله إلى حية عظيمة تسعى ، فخاف منها موسى وولى هاربا ولم يعقب فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول للشيء: كن فيكون ، وذلك أنه رَآهَا تَهْتَزُّ أي: تضطرب { كَأَنَّهَا جَانٌّ } أي: في حركتها السريعة مع عظم خَلْق قوائمها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتنحدر في فيها تتقعقع، كأنها حادرة في واد. فعند ذلك { وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ } أي: لم يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك. فلما قال الله له: { يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ } ، رجع فوقف في مقامه الأول.

ثم إن الله جل جلاله زاد موسى يقينا بآية أخرى فقال له: { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق؛ ولهذا قال: { مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } أي: من غير برص، وقد كان فيها فائدة أخرى وهي ذهاب الخوف الذي يجده موسى سواء في مقامه هذا أو أي مقام كما قال سبحانه (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ } : قال مجاهد: من الفزع. وقال قتادة: من الرعب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية.

قال ابن كثير رحمه الله : (235/6) والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجد أو يَخِفُّ .

قال الحسن البصري: أخرجها –والله– كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: { لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } .

روى ابن أبي حاتم عن مجاهد، قال : كان موسى عليه السلام، قد مُلئ قلبُه رعبًا من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره، ففرّغ الله ما كان في قلب موسى عليه السلام، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار.

فلما رأى موسى تلك الآيات عرف أنه يكلم الله سبحانه ، فقال الله له بعد هذه التهيئة { اسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك { إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا } هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، فلما قرر له التوحيد أرسله بقوله (اذهب إلى فرعون إنه طغى) فأرسله الله ، واصطفاه وجعله كليمه ورسوله من بين الخلق ، فيا لها من هبة ربانية ، أصابت موسى عليه السلام .

أمره أن يذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجت فارًا منه وهاربًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى ، فبادر موسى سائلا ربه الإعانة فقال: { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

{ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي } وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه فرعون التمرة والجمرة بعد أن جذب لحيته ليتعرف على تمييزه ، فأخذ الجمرة

فوضعها على لسانه ، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث (3) يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ } أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي } قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه ، وبعث معه أخاه هارون ، فيالها من منة أهداها موسى لأخيه هارون أن شفع له فأدخله في الاصطفاء والنبوة ،ليكون ردءاً معه كما قال تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) ، ولنتأمل أيها القارئ الكريم كيف أن الله تعالى تولى الإيحاء إلى موسى بنفسه ولم يرسل أحدا من الملائكة وفي ذلك منحة عظيمة لموسى ، ومكانة رفيعة لم يبلغها نبي من قبله ولا من بعده ، ومن المعلوم أن الله جل في علاه لم يكلم نبيا ولا رسولا ، إلا آدم ومحمدا وكان تكليمهما في السماء وموسى وقد كلمه في الأرض ، وسنتطرق بإذن الله لفوائد تكليم الله لموسى من دون واسطة في فوائد القصة ، ولنعد لقصتنا ، فقد انطلق موسى مستجيبا لأمر ربه مستعينا به متوكلا عليه ، ولما رأى موسى أن الله قد اصطفاه وأعطاه مايريد ، تذكر الموقف الصعب الذي سيقفه بين يدي فرعون فقد خرج هاربا من جريمة القتل فكيف سيعود إليهم في صفة رسول ، فقال مبينا ضعفه ، سائلا الإعانة من

ربه (رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) فأعطاهما الله الأمان (لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)

فانطلق موسى وأخوه هارون قد امتلأت قلوبهما شجاعة ويقينا ، فقد ضمن الله لهما ألا يصيبهم مكروه ، كما قال سبحانه { قَالَ كَلا } أي لن يحصل لك مكروه وقال له : { سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا } أي: برهانا { فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } [القصص:35] .وقال{ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } و قال : { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } [طه:46] أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي.وقد بين لهما السلاح العظيم في مثل هذه المواقف وهو سلاح غفل عنه الكثير ألا وهو الذكر فقال لهما (اذهبا ولا تنيا في ذكري) وقد تعهد موسى بذلك هو وهارون كما قال الله حكاية عن موسى (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) بعد تلك الهبات لموسى وأخيه ذهبا متوجهين إلى فرعون وملئه حتى دخلا عليه بعد أن مكثا عند بابه –كما قيل– أياما لا يؤذن لهما فلما دخلا عرف فرعون موسى ، فابتدر موسى الكلامَ فقال إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) الأعراف

فبين لفرعون أنه مرسل من الله وأنه سيبلغ الرسالة التي أرسلت معه ، وأن الله يأمره أن يرفع العذاب الذي صبه على بني إسرائيل لأنهم من نسل نبي كريم ،وأن يطلقهم مع موسى ، إلا أن فرعون أعرض عن هذا كله ، وهذا طبعُ أهلِ الكبر والازدراء ، وذكّره بالماضي فقال له (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19))

فأجابه موسى على الفور وقال (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) أي لم أكن كافرا بالله وإنما كنت ضالا عن الصواب الذي أبحث عنه ، حتى أرشدني الله إليه ، فبين له موسى أنه كان يبحث عن الحق تلك الأيام التي يتحدث عنها وأن الله دله عليه واصطفاه وجعله من المرسلين ، فقال فرعون : ألست أنت الذي ربيناه فينا ، وفي بيتنا وعلى فراشنا ، وغذيناه ، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا عليك؛ ولهذا قال: { وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } أي: الجاحدين.

{ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا } أي: في تلك الحال، { وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } أي: قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليَّ بالرسالة والنبوة .

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: { وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } أي: الجاهلين.

واستمر موسى في مناظرته لفرعون ، حيث استكبر وعاند موسى مذكرا له بفعلته السابقة وبإنعامه عليه وتربيته له في قصره ، ولكن موسى واصل في دعوته ، و لما ذكر موسى له اسم الله ارتعد وخارت قواه ، ثم تماسك وقال مستكبرا (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) وهذا سؤالُ تنقصٍ وإلا ففرعون يعلم صدق موسى كما قال الله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) النمل فبادر موسى بالجواب بقوله (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

وبدأت المناظرة بين موسى وفرعون بحضور الأشراف من قوم موسى ، فلما رأى فرعون ضعف حجته ، ولم يستطع أن يفحم موسى عدل إلى القوة التي يملكها ، وهذا شأن المتكبرين يعمدون إلى الظلم والبطش ليظهروا على خصومهم عند ضعف حجتهم ،وليس لهم همٌ في بيان الحق وإرساء العدل ، ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

{ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) النمل

فأراد موسى أن يقيم عليه الحجة فقال له (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

{ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مخيف تلتقم ما أمامها، والثعبان هو ذكر الحيات .

وقد كان زمن موسى قد انتشر فيه السحر وبلغ فيه الناس شأنا عظيما ، ولهذا كانت معجزة موسى شبيهة بأفعالهم ، ليتبين لهم صدق معجزته ، وبهذا أيد الله موسى فأذعن السحرة لذلك كما سيأتي ،ثم أتبع موسى هذه الآية بالآية الأخرى { وَنزعَ يَدَهُ } من جيبه { فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ } تتلألأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون –بشقائه –إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: { إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } أي: فاضل بارع في السحر. فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ويا سبحان الله كيف يبادر أهل الكفر والعناد في كل أمة إلى مواجهة الرسل بهذا الافتراء وقذفهم

بالسحر ، تشابهت قلوبهم ، وذلك أنه يتبين لهم صدق دعواهم ووضوحها فلا يستطيعون الإنكار إلا برميهم بالسحر والتمويه، وانظر إلى فرعون بعد هذا الافتراء يهيج قومه ويحرضهم على مخالفته، والكفر به. فقال {إن موسى جاء بهذا السحر(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } وقصده من ذلك أن يذهب بقلوب الناس معه ، فاتهم موسى بذلك وأنه يريد أن يكثر أعوانه بهذا السحر وهذه الدعوى فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه فيغلب على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟

{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } أي: أخّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحَّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى ، ليكون ظهور الحق على الملأ ، ولتكون دعوةُ موسى واصلةً لكل الناس وتطير في الآفاق ، فيسمع به الناس فيبحثوا عن الحق فيؤمنوا به .

فتواعد موسى وفرعون على أن يجتمع الناس في يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم .

فجاء فرعون بمن شاء ليبطل سحر موسى كما زعم ، وجمع الناس لذلك اليوم المشهود ، وحضر موسى وأخوه هارون فإذا الناس حشود ،وإذا فرعون قد أحضر جمع عظيم من السحرة ، وقد جاءوا بمثل ماجاء به موسى ، فلما تقابلوا قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون ، وقد ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في "سورة الأعراف" وفي "سورة طه" وفي سورة الشعراء : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، كما قال سبحانه{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ

وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [الأنبياء:18]، { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } [الإسراء:81]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، قيل: كانوا اثني عشر ألفًا. وقيل: خمسة عشر ألفًا. وقيل: سبعة عشر ألفًا وقيل: تسعة عشر ألفًا. وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا. وقيل: ثمانين ألفًا. وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم.

قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعًا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم: وهم: ساتور وعازور وحطحط ويصقى.

واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: { لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ } ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، وهكذا الرعية على دين ملوكهم. { فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ } أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا موسى ، فقالوا: { أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي. فقاموا مجتهدين لمقارعة موسى { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى } فقال لهم موسى: { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ } ، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا: هذا بثواب فلان ، وقد ذكر الله في سورة الأعراف: أنهم { سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } [الأعراف:116] ، وقد بين سبحانه في "سورة طه" أن عملهم كان تخييلا وليس له

حقيقة ، ولكنه كان عظيما لدرجة أن موسى خاف منه كما قال سبحانه: { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } ولكن الله طمأن موسى في ذلك المقام { قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا } [طه:66 ، 69] . أي: تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا.

قال تعالى: { فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } [الأعراف:118–122] وكان هذا أمرا عظيما جدًا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله، وكان فرعون وقحًا جريئًا عليه لعنة الله، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول{ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الأعراف:123] .

وقال { آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } .

تهددهم فلم يرهبهم ذلك ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما. وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: { آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ } ؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم

فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا: { لا ضَيْرَ } أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به { إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا قالوا: { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا } أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر ، بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان .

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به لسلطانه، واقتداره إذ ذاك ، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه ، مستمرين على كفرهم ، ويضيقون على المؤمنين حتى شكى قوم موسى ذلك لموسى وأنهم لا يستطيعون إظهار شعائر دينهم أوحى الله لموسى كما قال سبحانه { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) } والمعنى والله أعلم في قوله{ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } أمروا أن يصلوا في بيوتهم ، كذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم ، وكأن هذا –والله أعلم –لما اشتد بهم البلاء من قبَل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة: 156] . وفي الحديث: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: { وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } أي: بالثواب والنصر القريب. وكان موسى يأتي آل فرعون بالآيات

البينات، وكلما جاءتهم آية ، وبلغت منهم كل مبلغ ، أتوا موسى ، وعاهدوه لئن كشف الله عنهم البلاء ، ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل ، فيكشفه الله ، ثم ينكثون ، فلما يئس موسى من إيمانهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم ، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: { أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي }.

أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. { إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى عليه السلام قال ابن كثير في البداية والنهاية – (ج **1** / ص **319**)

وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره، وحملوا الأزواد في الأردية، وألقوها على عواتقهم * وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيرا فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة.

فلما أصبح فرعون ومن معه علموا أن موسى قد سرى من الليل ببني إسرائيل { فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعا لقومه: { إِنَّ هَؤُلاءِ } أي: بني إسرائيل { لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ } ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبقوا منا.

{ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ } أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده، في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار، الذين منعهم العجز.

فخرجوا من ديارهم وهم يظنون أنهم سيقضون على موسى وقومه ثم يعودون لبلادهم ، فخرجوا من بلادهم وهي أحسن ماهي من بساتين مصر وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم ، وقد كانوا فِي مَقَامٍ كَرِيمٍ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهرا طويلا وقضوا بلذته وشهواته، عمرا مديدا، على الكفر والفساد، والتكبر على العباد والتيه العظيم. كما قال الله تعالى: { فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } وكانت العاقبة لموسى ومن معه حيث جعلهم الله هم الوارثين كما قال سبحانه { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } الذين جعلوهم من قبل عبيدَهم، وسخروهم في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

وكان خروج فرعون في طلب موسى مع شروق الشمس كما قال سبحانه{ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ } فساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحنق قادرين ، حتى انتهى الطريق بموسى وقومه إلى البحر ، ولم يجدوا مراكب للركوب ، وبينا هم كذلك إذ بفرعون وجمعه العظيم قد بدت غبرته قبل رؤيته ، ووصل صوت صهيل الخيول وسليل السيوف قبل رؤية مقدم الجيش ، فقال أصحاب موسى إنا لمدركون ، أي محاط بنا ، وذلك أن البحر أمامهم ، وهذا فرعون بجمعه العظيم المسلح قد قدم عليهم من خلفهم وفيهم حنق وكبر على قوم موسى ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير ، وهو عبارةٌ عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، قال ابن كثير :فأمَّا ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم ، ففي ذلك نظر. والظاهر أنه

من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم. والذي أخبر الله به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم.

وكان أصحاب موسى حديثوا عهد بكفر ، فأصابهم الخور والضعف ، فأيقنوا بالهلاك ، فقالوا ذلك ، لكن كان موقف موسى موقف العارف بربه ، الواثق بنصره ، كيف لا وقد رأى من آيات الله الشيء العظيم ، كالآيات التي جعل الله معه يريها فرعونَ وقومَه ، وكذلك نصره له على فرعون وملئه ، فقَالَ موسى، مثبتا لهم، ومخبرا لهم بوعد ربه الصادق: { كلا } أي: ليس الأمر كما ذكرتم ، أنكم مدركون، { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } لما فيه نجاتي ونجاتكم. وموسى يقول ذلك ولا يدري كيف سينصر ولم يكن يخطر بباله أن البحر سينشق له ، ولكنه الواثق بربه الذي لا يتطرق له شك أن الله ناصره وهو الذي يتذكر قول الله له (فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) فدعا موسى ربه ، فأوحى الله له أن اضرب بعصاك البحر .

قال ابن كثير في تفسيره : وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انفلق بإذن الله.

وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة، وله اضطراب لا يدري من أيِّ جانب يضربه موسى،

فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله أين أمرك ربك؟ قال: أمرني أن أضرب البحر. قال: فاضربه.

وذكر غير واحد أنه كناه فقال: انفلق عليّ أبا خالد بحول الله .

ولقد وصف الله لنا انفلاق البحر قال الله تعالى: { فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } أي: كالجبل الكبير. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقتادة، وغيرهم.

وقال عطاء الخراساني: هو الفَجّ بين الجبلين.

وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقًا، لكل سبط طريق ، وقام الماء كالحيطان، وجعل الله فيه مثل الطاقات ينظر بعضهم إلى بعض ليطمئنوا عليهم ويعلموا نجاتهم ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يَبَسا كوجه الأرض، قال الله تعالى: { فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى } .

فلما انفلق البحر دلف موسى ومن معه ، كما قال الله لا يخشون من إدراك فرعون ، سبحان الله وكيف يخشون وهذه الآيات بين أيديهم ، بل كيف يتمادى فرعون في غيه وهو يرى هذه الآيات !!

وبهذا نعلم أن أفعال الله سبحانه لا تنفك عن حكمة ، قد تُعلم بداهة ، وقد تخفى فلا تعلم إلا بعد تجليها ووقوعها .

ولنكمل القصة فقد دخل موسى ومن معه جميعا قبل وصول فرعون وجيشه ، ثم خرجوا من الجهة الأخرى ، فلما وصل فرعون ومن معه تردد في الدخول وهاله الأمر ، وأحجم

وهاب وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، فقد نفذ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل عليه السلام على فرس –وديقٍ حائل –فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقْتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم، لا يترك أحدا منهم، إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر اللهُ القدير البحرَ أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: { آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: { آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ } أي: أهذا الوقت تتوب وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه واستكبرت وردت الموعظة التي جاءتك مع موسى وأردت إطفاء نور الله ،وقد استعبدت الناس ؟ { وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }

أخرج الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله في مسنده من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما قال فرعون: { آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ } قال: قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وقد أخذت حالا من حال البحر، فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة" ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة به ، وقال الترمذي: حديث حسن.

وذلك لعلم جبريل بسعة رحمة الله ، ولأنه لايعلم الغيب ، خاف أن تنال رحمة الله الواسعة هذا الظالم المتعجرف ، وأراد أن تكون العاقبة لموسى عليه السلام

فلما أهلك الله فرعون وجميع من معه ولم ينج منهم أحد ، ونجا موسى ومن معه فلم يغرق منهم أحد ، كما قال سبحانه (وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) ولعل البعض يتساءل كيف غَرِقَ فرعون وقد قال الله (فاليوم ننجيك ببدنك) والجواب كما قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفةُ به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ، ليتحققوا موتَه وهلاكَه ؛ ولهذا قال تعالى: { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِك } قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه ليكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: " لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ" أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون. وقد كان إهلاك فرعون وملئِه يوم عاشوراء، كما أخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينَة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه" .

وبعد هذا أصبحت مصر ملكا لموسى ومن معه من بني إسرائيل وعاشوا فيها ينعمون بما خلفه آل فرعون من الثروات والمزروعات والقصور والخدم كما قال ابن كثير في البداية والنهاية – (ج 1 / ص 318) على قوله تعالى (فأخرجناهم من جنات وعيون ...) الآيات قال :

أي أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزَهم العزيزَ العريض في الدنيا وهلك الملكُ وحاشيتُه وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا.

وذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنةُ نساء مصر إلى يومنا هذا أهـ

ثم بعد ذلك عاش موسى بمن معه من بني إسرائيل وحصلت لهم وقائع عدة فيها عبرة لكل معتبر ،

من ذلك أن الله سبحانه لما جاوز ببني إسرائيل البحر ولمَّا تنشف أقدامهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة ، كما روى عن علي رضي الله عنه أن يهودياً قال له : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه ، فقال علي : اختلفنا عنه لا فيه . ثم قال له وأنتم قلتم اجعل لنا إلهاً ولما تجف أقدامكم ، وهذا كما قال تعالى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

وملخص هذه الحادثة أن موسى بعد ما صام يوم عاشوراء الذي نجاه الله فيه شكرا لله ، مر هو ومن معه على قوم قيل كانوا من لخم وقيل من الكنعانيين ، وقيل غيرهم ، وهم يعكفون لعبادة أصنام لهم وضعوها على صورة عجول ، وكان هذا منشأُ حب العجل في قلوب بني إسرائيل ، فطلبوا من موسى أن يشرع لهم عبادة الأصنام ، وقد كان هذا الأمر صدر من عوامهم ولم يصدر منهم جميعا فقد كان فيهم العقلاء والعباد ، فغضب موسى عليه السلام وأنكر عليهم ، موبخا لهم كيف تطلبون عبادة الأصنام وأنا أدعوكم لعبادة الله ، فهذا دليل على جهلكم بالله وعدم معرفته بصفاته ولهذا قال لهم (إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139)

وقد حصل لبني إسرائيل من الحوادث الشيء الكثير ومن الآيات والعبر مثلها ، ومن ذلك غير ما ذكر آنفا ، عصيانهم الدخول في الأرض المقدسة ، حيث أمرهم الله أن يدخلوها ، وقد وعدهم بالنصر والتملك ، وذلك أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل، وموسى الكليم الجليل، ولما بلغهم أن سكانها من العمالقة ، أبوا وطلبوا من موسى أن يدعو الله أن يهلكهم بغير قتال ، أو أن يخرجهم منها ثم يدخلونها ، ولما نصحهم أهل العقل والديانة أن يذهبوا لقتالهم فإن الله ناصرهم وليتوكلوا على الله فإنه منجز لهم ما وعدهم ، فأبوا وقالوا كلمة عظيمة تدل على عدم تعظيمهم لله ، ولا قدره حق قدره ، ويقال: إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى بلادهم، سجد موسى وهارون عليهما السلام، لله قُدام ملأ من بني إسرائيل، إعظاما لما هموا به، وشَق "يوشع بن نون" و "كالب بن يوفنا" ثيابهما ولاما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رجموهما. وجرى أمر عظيم وخطر جليل. فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلط الله عليهم الخوف، وألقاهم في التيه، يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون سنة ، كما قص الله في كتابه في سورة المائدة .

وقد ورد في قصص موسى في التيه ، كثيرا من الإسرائيليات ، التي ملئت التفاسير وكتب السيرة منها ، وما أحسن ما قال ابن كثير في ذلك حيث يقول تعليقا عن ماورد من صفات العمالقة : "وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل، في

عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عنق بنت آدم، عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث ذراع تحرير الحساب ، وهذا شيء يستحي من ذكره. ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن".

ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافرا، وأنه كان ولد زِنْية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحا دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا وقال تعالى: { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ } [الشعراء : **119-120**] وقال تعالى: { لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ } [هود : **43**] وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق، وهو كافر وولد زنية ؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له: "عوج بن عنق" نظر، والله أعلم.أهـ

وشاهد المقال أن قوم موسى أبو أن يجاهدوا في سبيل الله ، وما أحسن ما أجاب به الصحابة ، رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استشارهم في قتال النفير، فقد أخرج البخاري والحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عُدِل به ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين قال : والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ! فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ! ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرق لذلك وسر بذلك .

وهذه من أكبر الأدلة على استفادة الصحابة رضي الله عنهم من قصص القرآن وهو الواجب علينا عند سماع القصص التي ذكر الله لنا ، وهذا من أهم الحكم التي من أجلها حكا الله لنا هذه القصص ، كما قال سبحانه (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون).

و من المعلوم أن الله حكم على بني إسرائيل أن يتيهوا في صحراء سيناء بين مصر وبلاد الشام أربعين سنة ، وقد حصل لهم في التيه حوادث عظيمة نأتي على بعضها فمن ذلك أنه لما نجا الله موسى وقومه من فرعون وقومه ، واعد الله موسى أن يأتيه بجانب الطور بعد ثلاثين ليلة ، ثم أتمها له أربعين ليلة كما حكاه الله لنا في سورة الأعراف وغيرها كما قال سبحانه { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (**142**)

قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا } [المائدة:**3**]

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ } الآية [طه : **80**]، فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا

تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء ، فذهب موسى لميقات ربه وكان موسى عليه السلام في غاية الشوق لله سبحانه ، فلما وصل للميقات وكلمه الله سبحانه طمع موسى في التقريب أكثر فهو يرى نعم الله عليه تترا ، فلما كلمه الله ، طلب من الله تعالى أن يكشف الحجاب ليراه كما قال سبحانه { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ }

وموسى يعلم مقام ربه وهو أجل من أن يسأل الله مالا يحل له أو ما لا يليق به ، فقال الله موافقا له على طلبه غير أنه علقه على أمر محسوس ليعلم موسى شدة الأمر وأنه لا يستطيع ذلك في الدنيا {قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } فلما علق الله الأمر على ممكن أصبحت الرؤية ممكنة إن صمد الجبل غير أن الجبل عجز عن ذلك فبمجرد كشف الحجاب قيد أنملة خر الجبل دكا وساخ في الأرض وصعق موسى من إثر المشهد العظيم وتبين لموسى صعوبة الأمر المطلوب يقول تعالى {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } فاستيقظ موسى بعد غشوته وتبين له الأمر جليا وزادت عظمة الله في قلبه ولم يتمالك حتى قال { سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) }

أي أنك لا ترى في الدنيا . وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على إثبات الرؤية في الآخرة ، كما استدل بها آخرون على نفي الرؤية وسنتعرض لذلك في فوائد القصة بإذن الله

وفي هذا اللقاء أعطى الله موسى الكتاب والفرقان كما قال سبحانه ({ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } يعني: التوراة { وَالْفُرْقَانَ } وهو ما يَفْرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال

{ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } وكان ذلك –أيضا–بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف. ولقوله (1) تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص: 43].

ومن قصص بني إسرائيل العجيبة أن موسى لما ذهب للقاء ربه على الأجل المضروب له ، واستخلف عليهم أخاه هارون ، قال لهم هارون إن عندكم من حلي القوم من العارية مالا يحل لكم أن تأخذوه ولا أن تردوه لهم فاجمعوه ولنحرقه ، فلما جمعوه جاء السامري فأخذ الحلي وصورها على صورة عجل وكان قد انطبع في قلوبهم حب العجل الذي رأوه مع القوم الذين مروا بهم يعكفون على أصنامهم ، وسبق ذكر ذلك ، فألقى السامري قبضته على العجل كما قال سبحانه { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ }وكان الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، وقد كان قبض قبضة من أثر فرس جبريل لما رآه يركضه في إغراق فرعون ، فصار عجلا جسدا له خوار، و"الخوار" صوت البقر.

وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخبارا عن نفسه الكريمة: { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } [طه:85]

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتُتنوا به، { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ }

[طه:88] فقال الله تعالى: { أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا } [طه:89]

وقال في هذه الآية الكريمة: { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا } ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السماوات والأرض وربِّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلا جسدًا له خُوَار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال، كما أخرج الإمام أحمد وأبو داود، من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حبك الشيء يُعْمي ويُصِم" رواه أحمد في المسند (194/5) وأبو داود برقم (5130) مرفوعا وقد رواه الإمام أحمد في مسنده أيضا (450/6) موقوفا، قال الحافظ ابن حجر في أجوبته عن أحاديث المصابيح: "الموقوف أشبه".

وقد نهاهم هارون عن ذلك واشتد نكيره عليهم فلم يعبأوا بقوله وقالوا لن نبرح عنه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى بل قالوا (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) أي نسي مكان الأجل تعالى الله عن قولهم وقد أخبر الله موسى بما صنع قومه من بعده فاهتم لذلك ورجع إليهم مغتاظا ، فلما رآهم على الحال التي أخبره الله لم يتمالك أن كسر الألواح التي فيها كلام الله وأخذ بلحية هارون يجره من شدة الغضب ، وبني إسرائيل ينظرون وقد ملئت قلوبهم رعبا من موسى وعرفوا أنهم قد ضلوا ، قدم موسى حنقا على قومه بعد أن أخبره الله أنهم عبدوا العجل وضلوا ، فلما رآهم لم يكن الخبر – مع أنه من الله – كالمعاينة كما روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمُخْبَر؛ أخبره ربه عز وجل، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح" فإنه لما عاين

ضلالهم ألقى الألواح من يده وفيها كلام الله ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وكان خشي أن يكون قصر في الإنكار عليهم وقال له لمَ لمْ تتبعني وتخبرني بعصيانهم ، فبين له هارون أنه خشي أن يفترقوا إذا تركهم ، فصبر حتى يعود إليهم ، وكأنه اختار أقل الضررين ، فلما تبين لموسى براءة أخيه دعا له ولنفسه بالمغفرة ، ثم التفت إلى بني إسرائيل منكرا عليهم صنيعهم ، قائلا لهم أعجلتم أمر ربكم ، ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، ثم بين لهم أن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وأن هذا جزاء كل مفتر على الله إلى يوم القيامة وكان غضب الله عليهم أنهم لا تقبل لهم توبة حتى يقتلوا أنفسهم ، وأما الذلة فهي الذلة والصغار في الحياة الدنيا فاعتذروا إليه بقولهم ما أخلفنا موعدك عن قدرتنا واختيارنا ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حُلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، وتعللوا أن السامري هو الذي أضلهم فالتفت موسى إلى السامري فقال ماخطبك ياسامري ؟ قال ابن عباس : كان السامري رجلا من أهل بَاجَرْمَا، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل. وكان اسم السامري: موسى بن ظفر.

فأخبر أنه اطلع على مالم يطلعوا عليه ، من رؤية جبريل وأخذه من أثره ، وتعلل بأن نفسه الأمارةَ بالسوء وما أشربت من حب للعجل قد سولت له ذلك ، فطرده موسى وقال له { اذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ } أي: كما أخذت ومَسَسْتَ ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: "لا مساس" أي: لا تماسَّ الناس ولا يمسونك ، وقيل ابتلاه الله بمرض لا يمسه الناس من عضو إلا سقط ذلك العضو ، ولذلك يديم القول لكل من لقيه أن لا مساس فلا تمسني ولا أمسك ، وكأن

فيه هجران أهلِ الأرض كلِهم له على جريمته الشنيعة من عبادة الأصنام ودعوته الناس لعبادتها .

ثم بين له موسى أن له مَوْعِدًا أي: يوم القيامة، { لَنْ تُخْلَفَهُ } أي: لا محيد له عنه.

ثم أمر موسى بالعجل فحرق بالنار ثم نسف في اليم ،وذلك ليقطع أي شبهة تتعلق بقلوبهم تجاه العجل ومحبة عبادته .

ثم رجع الخطاب إلى بني إسرائيل فقال لهم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ، ولن يقبل الله توبتكم حتى تقتلوا أنفسكم .

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: { فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } قال: أمر موسى قومه –من أمر ربه عز وجل –أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظُلَّةٌ شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلَّة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة.

وقال الزهري: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم ، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضُديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم، بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من

قتل منكم فحي عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته ، فسُرّ بذلك موسى وبنو إسرائيل.رواه ابن جرير بإسناد جيد عن الزهري .

ومن قصص بني إسرائيل العجيبة طلبهم من موسى أن يروا الله تعالى ، بل إنهم علقوا إيمانهم بذلك كما قال سبحانه (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)

وكان هذا الطلب صدر من صفوة قوم موسى حيث إن موسى عليه السلام قد اختار قومه سبعين رجلا للميقات الذي واعد الله به موسى عليه السلام كما قال سبحانه { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً }

قال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاما، فقالوا: { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً }

وقصة ذلك أن موسى اختار منهم سبعين رجلا ، الخَيِّرَ فالخير ليتوبوا إلى الله من عبادة العجل، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وقَّتَه له ربه، فلما وصل طلبوا من موسى أن يسمعهم كلام الله ، وقيل أنهم لما سمعوا قالوا لن نؤمن حتى نرى الله جهرة أي عيانا بأبصارنا ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ أي الموت، وقيل: نار جاءت من السماء فأحرقتهم وهم ينظرون أي ينظر بعضهم إلى بعض حين أخذهم الموت. وقيل النظر هنا بمعنى العلم ، فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ "لو شئت أهلكتهم من قبل

وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا"(155-الأعراف) فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلا بعد رجل بعد ما ماتوا يوما وليلة، ينظر بعضهم إلى بعض، كيف يحيون فذلك قوله تعالى وأنتم تنظرون .

ومن القصص العجيبة التي وقعت لموسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، فمن ذلك رفع الجبل فوق رؤوسهم حتى يقبلوا ا لحق كما قال تعالى { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) }

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ } يقول: رفعناه، وهو قوله: { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ } [النساء:154]

وقال ابن عباس، رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

روى النسائي في سننه كما في حديث الفتون عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجها نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى به أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقربوها حتى ينتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

وقال سنيد بن داود في تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال موسى لقومه : هذا كتاب من الله أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحلَّ لكم وما حَرَّم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضُها يسيرةً ، وحدودُها خفيفةً قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودُها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مرارا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل؟

لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمينكم بهذا الجبل. قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجلٍ ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرقًا من أن يسقط عليه فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نَشَرَ الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه ، أي: حرك كما قال تعالى: { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ } [الإسراء:51] أي يحركونها . أقول ولعل في هذا أصل لما يفعله الذين يهزون رؤسهم وربما أجسادَهم عند تلاوة القرآن فهي موروث يهودي .

وقال في تفسير البحر المحيط – (ج 4 / ص 419)

وقد سرت هذه النزعة إلى أولاد المسلمين فيما رأيت بديار مصر تراهم في المكتب إذا قرأوا القرآن يهتزون ويحركون رؤوسهم وأما في بلادنا بالأندلس والغرب فلو تحرّك صغير عند قراءة القرآن أدبه مؤدّب المكتب وقال له لا تتحرك فتشبه اليهود في الدراسة أهـ.

أقول وفيه أيضا شبه بالمبتدعة من الصوفية الذين يطربون عند سماع الذكر فيتمايلون وربما يتساقطون على الأرض ، وإني لأقول هذا لكثرة من ابتلي بهذه العادة السيئة ، والغالب أنهم ورثوها من معلمهم الذين يرونه يهز عند التلاوة ، بل ربما جعلها بعض من انتسب للقراءة من السنن لأنها تجلب الخشوع زعموا .

ومن قصص بني إسرائيل العجيبة مع موسى عليه السلام ما أنعم الله به على بني إسرائيل أثناء التيه ، فمن ذلك أن الله أرسل لهم الغمام ليظلهم عن الشمس ، وأنزل عليهم المن

والسلوى قال تعالى { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) }

الْغَمَامَ } وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يَغُمّ السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظُلِّلوا به في التيه ليقيهم حر الشمس.

وقال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب.

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد: { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ } (6) قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم.

قال ابن كثير :وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زِيّ هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرا، كما قال سنيد في تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ } قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ } [البقرة : 210] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

وأما المن والسلوى فإنهم لما تاهوا ونفد ما كان معهم من الطعام طلبوا من موسى الطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقد اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا .

وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرِّبِ الغليظ.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلتهم سقوط الثلج، أشدُ بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوعِ الفجر إلى طلوعِ الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومَه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وقال وهب بن منبه –وسئل عن المن–فقال: خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النَقيِّ.

وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءا من المن.

ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت، حيث قال:

فرأى الله أنهم بمضيع ... لا بذي مزرع ولا مثمورا ...

فسناها عليهم غاديات ... وترى مزنهم خلايا وخورا ...

عسلا ناطفا وماء فراتا ... وحليبا ذا بهجة مرمورا

قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ساق اختلاف العبارات في المقصود بالمن : والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر، والله أعلم، أنه (1) كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب (2) ، وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما

وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا، وإن ركب مع غيره صار نوعا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك ماروواه البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن زيد، رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين".

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَّانى، كانوا يأكلون منه.

قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين .

فمكثوا على ذلك دهرا ثم انقلبوا كعادتهم طالبين من الطعام ما هو أسوء كما قال تعالى (وقالوا ياموسى لن نصبر على طعام واحد ...) الآية

فقد طلبوا ما اعتادوا عليه من البقل والفوم والبصل ونحوها كما حكى الله ذلك في كتابه حيث يقول (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)

ولا يفوتنا الحديث عن طلبهم الماء فإن بني إسرائيل لما عطشوا وهم في التيه طلبوا من موسى عليه السلام أن يحضر لهم الماء ، وكانوا مع موسى كالولد المدلل ، يطلبون فتلبى طلباتهم ، ويعندون فيعصون فيغفر لهم ، وكان موسى يرفق بهم ، فاستسقى موسى ربه فأمره سبحانه أن يضرب بعصاه الحجر ، وهو على الصحيح حجرٌ غيرُ معين بل أيُ حجر ، فضرب موسى الحجر القريب منه فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، والانبجاس أول خروج الماء ثم تفجر الماء من خلال العيون وكان لكل قبيلة من بني إسرائيل عينا يسقون منها ، فاجتمع لهم الماء المتنقل معهم في كل مكان والطعام يأتيهم في وقته طازجا

، ولكنهم كما قال الحسن البصري رحمه الله: بطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وفوم ، فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما "الفوم" فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود "وثومها" بالثاء، وكذلك فسره ابن عباس و مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير.

وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبز.

فروى ابن أبي حاتم أن ابن عباس سئِل عن قول الله: { وَفُومِهَا } ما فومها؟ قال الحنطة .

و كذا قال الجوهري وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز. قال: وقال بعضهم: هو الحمص لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فامي مغير عن فومي .

وقال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم.

وشاهدا لمقال أنهم طلبوا من موسى استبدال مارزقهم الله من الطعام الطيب بالطعام التقليدي الذي اعتادوا عليه في بلادهم حتى زجرهم موسى بقوله (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) فلما أصروا على طلبهم فما كان لموسى إلا أن يقول لهم : { اهْبِطُوا مِصْرًا } هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف على ذلك.

وقال ابن عباس: { اهْبِطُوا مِصْرًا } قال: مصرًا من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم

وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: "اهبطوا مصر" من غير إجراء يعني من غير صرف. ثم روى عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون.

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضًا.

وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضًا. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: { قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا } [الإنسان: 15، 16] . ثم توقف في المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟

قال ابن كثير وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره .أهـ

ومن قصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ما حكى الله في كتابه من قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (67) البقرة

وقصة ذلك مارواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن عبيدة السلماني قال كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فَشُدّد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا

بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا، فأخذوها بملء جلدها ذهبًا فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا، ولم يُوّرث قاتلٌ بعد.أهـ

ومن قصص بني إسرائيل التي اشتهروا بها ونذكرها استطرادا اعتداؤهم يوم السبت وقد كانوا نهوا عن الصيد فيه كما قال تعالى: { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأعراف : 163]

فهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

وهذه القرية هي "أيلة" وهي على شاطئ بحر القلزم.

أخرج عبد الرزاق في تفسيره قال أخبرنا ابن جُرَيْج، حدثني رجل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوما وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس، جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في "سورة الأعراف"، قال: تعرف أيلة قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من يهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعا بيضًا سمانًا كأنها الماخض، تتبطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها

وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك ، حتى جاءت الجمعة المقبلة ، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله. وقال الأيسرون: { لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا } ؟ قال الأيمنون: { مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نبايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلما، وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردةً والله تعاوى لها أذناب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها؟. قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: { لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ } ؟ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين يعني لأنه استنبط نجاتهم بكرههم للمنكر .

و من تلك القصص العجيبة التي وقعت لبني إسرائيل ، فمن تلك القصص امتناعهم عن دخول المسجد سجدا وذلك كما قال سبحانه (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا

مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

وهذه البلدة هي بيت المقدس ، التي نكلوا عن جهاد أهلها ، حيث فتحها الله عليهم ، بعد موت موسى وهارون عليهما السلام وبعد أن هلكت جميع تلك الطبقة التي أبت الجهاد ولم يبق إلا يوشع بن نون تلميذ موسى ، حيث أصبح نبيا لهم ، ومما حدث له في فتح بيت المقدس أن خرق الله له العادة ، بل السنن الكونية حيث حبس الله له الشمس حتى فتح الله لهم البلدة ولم يصح حبس الشمس لأحد غير يوشع بن نون ، كما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا فَغزَا، فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلاَةَ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذلِكَ فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ (يَعْنِي النَّارَ) لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا؛ فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولاً، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قبيلة رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيدِهِ فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الْغَنَائِمَ، رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا)

فلما تم لهم الفتح أمرهم الله أن يشكروا فيدخلوا المسجد سجدا أي راكعين لله قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله: { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا } أي ركعا.

ويطلبوا من الله المغفرة بقولهم حطة ، قال الأوزاعي: كتب ابن عبّاس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: { وَقُولُوا حِطَّةٌ } فكتب إليه: أن أقروا بالذنب.

وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا.

{ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضعفنا لكم الحسنات.

وبالجملة أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عند وقوعها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } [سورة النصر] فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نُعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها، وأقره على ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله : ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعي إليه روحه الكريمة أيضًا.أهـ

فلما فتح الله عليهم تلك البلدة التي عاقب أسلافهم على الامتناع عن الجهاد في فتحها ، ثم مَنّ عليهم بنهاية التيه ، وفتح الأرض المقدسة ، أمرهم أن يشكروا هذه النعمة العظيمة وبين لهم كيف يكون شكرهم لتلك النعمة ، وهو أنهم يدخلوا المسجد وهم ركوع في غاية الخضوع لله ويستغفروا من ذنوبهم السالفة طالبين من الله المغفرة ، فعندئذ تغفر ذنوبهم ، فما كان منهم إلا النكول والاستهزاء بأمر الله وتبديل كلام الله كما قال

تعالى : { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قيل لبني إسرائيل: { ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ } فدخلوا يزحفون على أستاههم ، فبدّلوا وقالوا: حطة: حبة في شَعْرَة" .

وهذا في غاية السخرية بعد هذه النعم المترادفة العظيمة ، فنزلت عليهم العقوبة وهم أهل لها كما قال تعالى (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(59) البقرة

واختلف أهل العلم في المقصود بالرجز فقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من "الرِّجْز" يعني به العذاب.

وهكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطاعون رجز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم" .

وهكذا رواه النسائي وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها" الحديث .

وروى ابن جرير بسنده من حديث أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن هذا الوجع والسقم رجز عُذِّب به بعض الأمم قبلكم" (5) . وهذا الحديث أصله مخرَّج في الصحيحين .

وقال البغوي في تفسيره قيل: أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى.

فسبحان الله كم رأوا من الآيات ، وكم أُهلكوا وهم ينظروا ، وكم رأوا بأعينهم هلاك أعدائهم ومع ذلك لا يزدادون إلا عتوا ونكرانا ، فسبحان الله ما أحلمه ، بيد أن فيهم صالحون وأهل بر ووفاء فلعلهم بهم كانوا يرحمون .

ومن تلك القصص العجيبة أيضا التي وقعت لبني إسرائيل مما ذكره الله في كتابه ، فمن ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) وبيان هذه القصة قد جاء في الصحيح ، فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن موسى عليه السلام كان رجلا حَيِيا سِتِّيرا، لا يُرَى من جلده شَيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدْرَة وإما آفة، وإن الله عز وجل، أراد أن يُبرئَه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوما وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانا أحسن ما خلق الله، عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر

لَندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا –قال: فذلك قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها } .

وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم . ويدل على قباحة بني إسرائيل ولمزهم بل سبهم لأنبياء الله ، فإذا فعلوا ذلك مع موسى عليه السلام وهو نبيهم وله من الفضل مالا يخفى عليهم ، فكيف حالهم مع بقية أنبياء الله ، عليهم من الله مايستحقون .

ومن قصصهم مع موسى عليه السلام ماقصه الله في كتابه في سورة الكهف حيث سألوا موسى عن أعلم أهل الأرض ، فكان ذلك سبباً لقصة فيها فائدة لموسى ولهم ولمن بعدهم قال الله سبحانه (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) (60)الكهف

(مجمع البحرين)

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب.

وقال محمد بن كعب القُرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: { أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا } أي: ولو أني أسير حقبًا من الزمان.

قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة قيس : سنة. ثم قد روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفًا. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: { أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا } قال: دهرًا. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك.

وقد وردت قصتهما في الصحيحين من حديث سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ نَوْفًا الْبَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ بِمُوسَى الْخَضِرِ فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقِيلَ لَهُ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ قَالَ أَنَا فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ بَلَى عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ أَيْ رَبِّ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ قَالَ تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَاتَّبِعْهُ قَالَ فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وَمَعَهُمَا الْحُوتُ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَنَزَلَا عِنْدَهَا قَالَ فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَنَامَ قَالَ سُفْيَانُ وَفِي حَدِيثِ غَيْرِ عَمْرٍو قَالَ وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا الْحَيَاةُ لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ فَأَصَابَ الْحُوتَ مِنْ مَاءِ تِلْكَ الْعَيْنِ قَالَ فَتَحَرَّكَ وَانْسَلَّ مِنْ الْمِكْتَلِ فَدَخَلَ الْبَحْرَ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَى قَالَ { لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا } الْآيَةَ قَالَ وَلَمْ يَجِدْ النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ قَالَ لَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ { أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ } الْآيَةَ قَالَ فَرَجَعَا يَقُصَّانِ فِي آثَارِهِمَا فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاقِ مَمَرَّ الْحُوتِ فَكَانَ لِفَتَاهُ عَجَبًا وَلِلْحُوتِ سَرَبًا قَالَ فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذْ هُمَا بِرَجُلٍ مُسَجًّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى قَالَ وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ فَقَالَ أَنَا مُوسَى قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ قَالَ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ يَا مُوسَى إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ قَالَ بَلْ أَتَّبِعُكَ قَالَ { فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا } فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ فَمَرَّتْ بِهِمْ سَفِينَةٌ فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمْ فِي سَفِينَتِهِمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ يَقُولُ بِغَيْرِ أَجْرٍ فَرَكِبَا السَّفِينَةَ قَالَ وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى

حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي الْبَحْرِ فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارَهُ قَالَ فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِذْ عَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى قَدُومٍ فَخَرَقَ السَّفِينَةَ فَقَالَ لَهُ مُوسَى قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا { لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ } الْآيَةَ فَانْطَلَقَا إِذَا هُمَا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَطَعَهُ قَالَ لَهُ مُوسَى { أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا إِلَى قَوْلِهِ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ } فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّا دَخَلْنَا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا { لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا قَالَ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا

انتهى الحديث وكم فيه من الفوائد الظاهرة لكل أحد ، ولعلنا نكتفي بثنتين كلاهما في الخضر عليه السلام فالبعض يتسائل هل الخضرُ نبيٌ أم لا ؟

وأكتفي بجواب علمائنا في اللجنة الدئمة للإفتاء حيث قالوا : الصحيح: أن الخضر عليه السلام نبي لما ذكره الله تعالى في سورة الكهف من قصته مع موسى عليهما السلام فإن فيها أنه خرق سفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، وقتل غلاما لم يرتكب جريمة، وأقام جدارا ليتيمين بلا أجر في قرية أبى أهلها إطعامهما، وأنكر موسى كل ذلك عليه فبين له السبب أخيرا، ثم ختمت القصة بأن كل ذلك كان منه بوحي من الله وذلك فيما أخبر الله عنه من قوله: { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } وبالله التوفيق

والفائدة الثانية ما ينتشر بين بعض الناس أن الخضر لا يزال حيا ، فهل هذا صحيح ، والجواب كما أفتت به اللجنة حيث قالوا : الصحيح من قولي العلماء ما ذهب إليه الجمهور من أن الخضر عليه السلام قد مات ؛ لظاهر العموم في قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ } ولما ثبت عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال: « أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد، قال ابن عمر : فوهَلَ الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدثون من الأحاديث عن مائة سنة وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن » رواه مسلم ثم هذا هو الأصل الغالب في سنة الله في بني آدم فيجب البقاء معه حتى يثبت ما ينقل عنه من الأدلة، ولم يثبت فيما نعلم ما يدل على استثناء الخضر عليه السلام.انتهى جواب اللجنة وفقها الله.

و بهذا نكون قد مررنا على جميع قصص موسى عليه السلام التي ذكرها الله في القرآن ونأتي على الفوائد المجنية منها.....

فوائد وعبر من قصة موسى عليه السلام

وما أعظمَ فوائدِ قصص موسى مع قومه ، فقد استفاد منها قبلَنا نبيُنا محمد صلى الله عليه وسلم لما آذاه بعض المنافقين فقال (رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأعظم من ذا فصبر) رواه البخاري من حديث ابن مسعود ج5/ص2319 ح5933

ومن أعظم الفوائد في قصة موسى عليه السلام ، علم الله الواسع ، ومشيئته النافذة ، فمن تأمل الأحداث التي ترتبت في قصة موسى منذ ولادته حتى وفاته في التيه ، أنها كانت تسير بتدبير الولي الكريم ، وليظهر هذا جليا تأمل ولادة موسى في السنة التي يقتل فيها الذكور من بني إسرائيل ، مع أن سبب القتل هو البحث عن موسى الذي سيكون زوال ملك القبط على يديه ، ولو شاء الله لجعله يولد في السنة التي لا يقتلون فيها ، ولكن لله الحكمة البالغة في جميع أفعاله ، فها هو يحميه الله ويربيه في بيت عدوه ، ويكلؤه قبل ذلك في اليم حتى يصل سليما ليتربى في القصر مع فرعون ويأكل من طعامه ، وكأن الله يريد أن يعلم الناس أنه لا راد لقدر الله ، وأن الله هو المدبر لهذا الكون ، وأنه لا يغني حذر من قدر ، ثم لا يرضعه إلا أمه ، ثم يخفف الله عن بني إسرائيل من الظلم بنشأة موسى بينهم في قصر فرعون ، وكأنها إرهاصات تسبق النجاة من فرعون وملئه ، ثم انظر إلى ذهاب موسى لمدين ومكثه عشر سنين فيها ، ثم رجوعه ولقائه مع الله حيث يقول الله له (وجئت على قدر يا موسى) يعنى الأمر لم يكن مجرد صدفة بل كل ذلك بتقدير من الله وترتيب على حكمة أرادها سبحانه ، ولعل هذا القدر من الحديث عن الفائدة يوضح المقصود ويسلك بالسامع في طريق التأمل لهذه الفائدة .

ومن الفوائد العظيمة :

تعلق موسى عليه السلام بربه حتى إنك لتجده في كل حين وفي كل موقف يرفع يديه لربه ، فتأمل يوم أن قتل القبطي ماذا قال (قال ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له) ولما توجه تلقاء مدين قال (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) ولما سقى للمرأتين وتولى إلى الظل قال (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) ولما أمر بالذهاب إلى فرعون طلب من الله الإعانة والنصرة و الحماية فأعطاه الله ذلك وهكذا في حياته وتقلباته كلها ومن تأمل قصص موسى عليه السلام علم ذلك يقينا وكذا ينبغي أن يكون المؤمن دائما متعلقا بربه يعلم أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله تعالى ، فيفرغ قلبه من المخلوقين ، ويفوض أمره إلى الله .

– ومن الفوائد كذلك إثبات كلام الله تعالى حيث إن موسى لما أتم الأجل وسار بأهله ، كان على موعد لا يعلم به ،موعد من أعظم المواقف التي مرت به في حياته ، كيف لا وهو موعد لسماع كلام الرب سبحانه بلا واسطة ، وانظر إليه بعد لذة السماع التي حصلت له ، فقد أصبحت أجوبته باستطراد ، كقوله (هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على قومي) وانظر إليه يجمل القول ويبهمه عله أن يسأل عنه فقال (ولي فيها مآرب أخرى) فكلمه الله بلا واسطة وسمعه موسى عليه السلام ، قال تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وقال (وكلم الله موسى تكليما) وكلام الله صفة من صفاته الذاتية الفعلية ، فالله جل وعلا تكلم في الأزل ، ويكلم من شاء ، في أي وقت شاء ، والكلام من صفات الكمال ألم نسمع لقوله تعالى لما أنكر على بني إسرائيل عبادة العجل قال لهم (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) والذين سمعوا كلام الله بلا واسطة من أنبياء الله ثلاثة آدم ونبينا محمد وموسى عليهم الصلاة والسلام ،ويسمعه المؤمنون كذلك في الجنة ، بل يسمعونه ويرونه وهو أعظم نعيم الجنة ، جعلنا الله وإياكم منهم .

أما عن فائدة تولي الله جل وعلا تكليم موسى بنفسه ولم يرسل إليه رسولا كباقي الرسل ، وهذه لها حكم عظيمة نذكر بعضا منها ، فمن ذلك إثبات كلام الله تعالى كما مضى ، ومنه بيان فضيلة موسى عليه السلام حيث اختصه الله بذلك من بين الأنبياء والرسل ، هذا ولقد قاسى موسى من بني إسرائيل الشيء الكثير ، وكان صابرا عليهم داعيا لهم ، رفيقا بهم ، ولقد استفاد النبي صلى الله عليه وسلم منه ومن قصصه الشيء الكثير وكان يترحم عليه إذا ضايقه وآذاه قومه ويقول (رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر) ، وقد جعله الله من أولي العزم ، وحث النبي صلى الله عليه وسلم أن يهتدي ويقتدي به .

ومن الحكم كذلك في تكليم الله لموسى بدون واسطة ، التثبيت لموسى حيث إنه سيواجه أمورا عظاما من فرعون وقومه ومن بني إسرائيل أنفسهم لما طبعوا عليه من الغدر والخديعة ونقض العهود

– ومن الفوائد كذلك أن غض البصر وصيانة النفس عن الخنى من شيم الرجال ولو لم يكن مؤمنا

ألم نسمع لقول عنترة الجاهلي / وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وهذا موسى عليه السلام لما وجد المرأتين تذودان غنمهما أن تختلط بأغنام القوم ، وأحس بحاجتهما وضعفهما ، أخذته شهامة الرجال ، فكفاهما المئونة بلا ثمن لما جاءته إحداهما تدعوه لأبيها جعلها تمشي خلفه وترشده بالحجارة حتى لا تمشي أمامه فتكشفها الريح أو تحجم عورتها ، أين أولئك الأنذال الذين يدخلون السوق لهذا الغرض ،

ويتتبعون عورات المسلمين ، بل يقلبون القنوات الفضائية بحثا عن الرذيلة ، أين هم عن صفات موسى وكريم خلقه التي جاء الإسلام حاثا على إلتزامها آمرا بها ، (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30)وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)

ومن الفوائد كذلك الأدب عند سؤال الله تعالى ، فانظر إلى موسى عليه السلام لما سقى للمرأتين وتولى إلى الظل ، مع ما هو فيه من الجوع والخوف وقلة الناصر توجه لربه قائلا (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) فانظر إليه لم يقل رب ارزقني ، أو رب أطعمني ونحو ذلك مما يجوز له شرعا ، ولكنه تلطف في السؤال وسأل سؤالا فيه الحياء وضمنه الطلب ولم يصرح به ، وانظر إليه لما أراد أن يطلق الله لسانه قال (واحلل عقدة من لساني) فلم يطلب إلا بقدر الحاجة ، وهذا أدب الأنبياء اسمع إلى أيوب لما أصابه الضر سنين طويلة وهو صابر محتسب ، فلما أراد الدعاء قال (أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) فلم يقل اشفني بل وكل الأمر لله وهو أرحم الراحمين ، فما أعظمه من أدب وما أحرانا أن نتأدب به ، ونسير على خطا الأنبياء والمرسلين .

– ومن الفوائد أيضا تلك الدروس العملية التي صدرت من موسى عليه السلام في التوكل على الله فانظر إليه يخرج هاربا من فرعون وقومه ، بعد أن قتل منهم رجلا فاستوجب أن يقتل في عرفهم ، ثم لما أمره الله بالرجوع إلى فرعون ليدعوه إلى الحق انطلق مستجيبا لأمر ربه مستعينا به متوكلا عليه والأمر صعب فقد خرج منهم متلبسا بالقتل وعاد إليهم نبيا رسولا فياله من موقف عصيب لا يقوم به إلا أهل الحزم والشجاعة الذين يعلمون أن الأمر كله لله ، ونواصي الخلق بيده ، ولا يكون في ملكه إلا مايريد فيتوكلون عليه ولنعم المولى هو ولنعم الوكيل .

ومن الفوائد أيضا التلذذ بكلام الله ، فانظر لموسى عليه السلام مع ما أصابه من الخوف والجوعِ والبرد يستأنس لسماع كلام الله ، ويظهر ذلك جليا في استرساله في الأجوبة على أسئلة الله ألم تسمع له حيث قال له الله (وما تلك بيمينك يا موسى)

فكان الجواب بدلا من أن يقول عصاي ، زاد في الاسترسال عله أن يسأل عن بعض تفصيله فقال (هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) وكيف لا يستأنس بكلام الله وهو بحضرته ويسمع كلامه ويتحاور معه ، ولئن حرم العبد من مخاطبة الله كما حصل مع موسى إلا أن الله قد عوضنا بالصلاة التي هي صلة بين العبد وربه ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (وجعلت قرة عيني في الصلاة) أخرجه النسائي من حديث أنس ، بل كانت الصلاة هي راحته وطمأنينته ، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ولقد أوصى الله المؤمنين بالاستعانة بالصلاة عند الضيق والهم والبلاء كما قال سبحانه (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

ومن الفوائد أيضا أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته فهذا فرعون طغى وتجبر وقال أنا ربكم الأعلى ، وقال أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ، فأمد الله له في طغيانه وزين له سوء عمله واستكبر هو وجنوده بغير الحق كما قال تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) والله جل في علاه من عادته أنه إذا أملى للظالم ثم أخذه فإن أخذه أليم شديد كما قال سبحانه (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102) هود وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله لَيُمْلي لِلظَّالِمِ ، حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» ، ثم قرأَ { وَكَذلكَ أَخْذُ ربِّكَ إذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِي ظالمةٌ ، إنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَديدٌ }

ولهذا لما وقعت العقوبة بفرعون ومن معه كانت أليمة لم ينج منهم أحد ، وكما فخر فرعون بجري الأنهار من تحته جعلها الله تجري من فوقه ، ولما قال أنا ربكم الأعلى جعل الله موتته ذليلةً حقيرة ، فأهلكه الله من غير قتال وأغرقه في اليم وهو مليم .

ومن الفوائد أيضا

أن من أراد الله فتنته فلن يملك له أحد من الخلق الهداية ، كما قال تعالى (وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) وكما قال تعالى (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا(17)الكهف

فانظر إلى فرعون وكم جاءه من الآيات وكم رآى من العبر ما على مثله يؤمن البشر ، ومع ذلك استكبر عن متابعة الهدى ، فيا لله كيف يصرف قلبه عن الإيمان وقد رأى هزيمة السحرة ، ويالله كيف يصرف عن الهداية وقد رأى انشقاق االبحر لموسى ومن معه ثم يصر مستكبرا ، ولكن نعلم أن لله الحكمة البالغة في ذلك .

ومن الفوائد أيضا معرفة عظيم رحمة الله ، فانظر إلى جبريل عليه السلام وهو من هو من المنزلة من الله والمعرفة به ، يخشى أن تنال فرعون الرحمة لما أراد التوبة عندما غرغرت روحه ، كما أخرج الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله في مسنده من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما قال فرعون: { آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ } قال: قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وقد أخذت حالا من حال البحر، فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة" ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة به ، وقال الترمذي: حديث حسن.

ومما يزيدنا معرفة بعظيم رحمة الله ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه قال * قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغى إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا :لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله: أرحم بعباده من هذه بولدها .

ومن الفوائد كذلك أن إنكار المنكر إذا كان من الشرك يجب أن ينكر ولا يقال كما يقول البعض إن ذلك يفرق الصف أو ينفر من الدين ، فانظر إلى موسى عليه السلام لما جاوز هو وقومه البحر ، وأتوا على قوم يعكفون على أصنام يعبدونها ، قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، فما سكت موسى عليه السلام بل قال لهم (إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون)

وحصل مثل هذا لنبينا صلوات ربي وسلامه عليه كما أخرج الترمذي في جامعه من حديث أبي واقد الليثي : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا :يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي صلى الله عليه و سلم :سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

ومن الفوائد أيضا استفادة الصحابة مما حصل لموسى مع قومه لما امتنعوا من الجهاد لفتح بيت المقدس ، لما قالوا له تلك المقالةَ الشنيعة (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) والتي من شناعتها لما سمعها منهم موسى وهارون ويوشع بن نون ، خروا سجدا لله أن تصيبهم قارعة من الله ، فما أبشعها من كلمة تخرج من قوم بعد ما حصل لهم

ماحصل من النعم والنجاة من ظلم فرعون وملئه الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، فالصحابة رضوان الله عليهم يعلمون أن قصص القرآن نزلت ليستفيدوا منها عمليا في حياتهم ، وهذا ماحصل منهم يوم بدر يوم خشي النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أن لا يقاتلوا لأنهم بايعوه على نصرته في المدينة ، فقال أيها الناس أشيروا علي وكان منهم رضي الله عنهم المواقف المشرفة ومنها ماحصل للمقداد بن الأسود رضي الله عنه كما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود قال لقد شهدت من المقداد مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي من ملئ الأرض من شيء كان رسول الله إذا غضب احمرت وجنتاه فجاء وهو على تلك الحال فقال يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن والذي بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك .

وقال ذلك الأنصار كلهم كما أخرجه أحمد في مسنده من حديث عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَاسِحٍ الْحَضْرَمِيُّ، وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِي اللَّهُ عَنْهما، فَمَنْ دُونَهُمَا، عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَقَاتِلُوا قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلاَ نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَم، {فاذهب أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة]، وَلَكِنِ انْطَلِقْ أَنْتَ وَرَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ فَقَاتِلاَ وَإِنَّا مَعَكُمَا نُقَاتِلُ.

و من الفوائد أيضاً أن في طلب موسى من الله أن يكشف له الحجاب ليراه عيانا ، كما قال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا

وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا..) الآية ،حيث استدل أهل العلم من أهل السنة والجماعة بهذه الآية على نفي الرؤية في الدنيا و إثباتِها في الآخرة ، كما استدل بها آخرون على نفي الرؤية مطلقاً ، وهؤلاء هم المبتدعة من المعطلة و الجهمية ، ولسنا في مقام بيان الأدلة على ثبوت الرؤية فأدلة إثبات الرؤية أكثر من أن تحصر بل هي عند أهل السنة من الأدلة المتواترة ، ويهمنا في هذا المقام بيان أن هذه الآية ليست من أدلة نفي الرؤية كما زعم ذلك المعطلة والرد على استدلالهم هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن سؤال موسى ربه أن يراه ليس دليلا على عدم الرؤية بل هو دليل على جواز رؤيته سبحانه، إذ موسى أعلم بالله من أن يسأله مستحيلا في حقه .

الوجه الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان ما سأله محالا وممتنعا لأنكر الله عليه سؤاله كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله نجاة ابنه، وقال سبحانه لنبيه نوح عليه السلام:{ إني أعظك أن تكون من الجاهلين }.

الوجه الثالث: أنه تعالى قال:{ لن تراني } ولم يقل إني لا أُرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن من كان في كمِّهِ حجر فظنه رجلٌ طعاماً فقال أطعمنيه، فالجواب الصحيح أن يقول: إنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاما، صح أن يقال إنك لن تأكله، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه قوله : { ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني } فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف .

الوجه الرابع: تجليه سبحانه للجبل :{ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا } فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته.

الوجه الخامس: قوله تعالى: { ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني } حيث علّق سبحانه رؤيته على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمر ممكن، والمعلّق على الممكن ممكن.

الوجه السادس: أن دعواهم أن "لن" تفيد النفي المؤبد مردودة كما قد نص على ذلك أئمة اللغة، يقول ابن مالك في ألفيته: ومن رأى النفي بلن مؤبدا * فقوله اردد وسواه فاعْضُدا

ومما يدل على بطلان ادعاء أن "لن" تفيد النفي المؤبد، قوله تعالى عن الكفار:{ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم } أي: الموت، فلو كانت "لن" تفيد التأبيد المطلق لما صح أن يتمنى كافر الموت لا في الدنيا ولا في الآخرة، لكن الله ذكر أن الكفار يتمنون الموت في الآخرة،كما في قوله سبحانه: { ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك }(الزخرف: **77**) فدل على أن "لن" لا تفيد النفي بإطلاق بل يمكن تقييدها بأدلة أخرى، وعليه فيكون معنى قوله تعالى لموسى: { لن تراني } أي في الدنيا .

وبهذا ينتهي المقصود من الجواب على هذه الشبهة التي أثارها المعطلة .

ومن الفوائد المجنية من تلك القصص قول الله تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)

فقد بين سبحانه أن توبة بني إسرائيل لا تكون إلا بالموت ، ولن يقبل الله توبة أحد منهم مهما فعل إلا بذلك ، وبهذا نعرف عظيم فضل الله علينا ، حيث سهلت لنا التوبة أكثر من غيرنا ، فمن أذنب ذنوبا تبلغ عنان السماء ، ثم أراد أن يتوب فله ذلك ، وبدون أن

يعلم أحد فهي بين الله وبين العبد وله شروط أربعة : وهي الإخلاصُ في التوبة لله ، والندمُ على الوقوعِ في المعصية ، والإقلاعُ عن الذنب ، والعزمُ على عدم العودة لذلك الذنب مرة أخرى ، ويزاد شرط خامس وهو إن كان الذنب يتعلق بحقوق الآخرين وجب رده لهم ، وبعد هذا تقبل توبة العبد ، بل إن الله ليفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه كما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ).

فما على العبد إلا المسارعة بالتوبة قبل فوات أوانها .

ومن الفوائد التي نجنيها من قصص بني إسرائيل ، معرفة سعة حلم الله على خلقه ، خصوصا على بني إسرائيل حيث حلم الله عليهم مع كثرة عصيانهم ، وترادف نعم الله عليهم ، وكثرة آياته وحججه ، وهذه الآيات خطاب وجه إلى بني إسرائيل الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم فذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم ، مع كثرة معاينتهم من آيات الله جل وعز وعبره ما تثلج بأقلها الصدور ، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم ، وسبوغ النعم من الله لديهم ، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله ، ومرة يعبدون العجل من دون الله ، ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى الله جهرة ، وأخرى يقولون له إذا دُعُوا إلى القتال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ومرة يقال لهم: قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم ، فيقولون: حنطة

في شعيرة! ويدخلون الباب من قبل أستاههم ، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم عليه السلام ، التي يكثر إحصاؤها ، فأعلم ربنا تبارك وتعالى ذكره الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل ، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم لن يعدوا أن يكونوا –في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه و سلم، وجحودهم نبوته ، وتركهم الإقرار به وبما جاء به ، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره– كأسلافهم وآبائهم الذين فصّل عليهم قَصصهم في ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتوثبهم على نبيهم موسى صلوات الله وسلامه عليه تارة بعد أخرى ، مع عظيم بلاء الله جل وعز عندهم، وسبوغ آلائه عليهم.

ومن الفوائد أيضا التي تستفاد من أفعال نبي الله موسى مع قومه إحراقه للعجل حيث أمر بالعجل فحرق بالنار ثم نسف في اليم ،وذلك ليقطع أي شبهة تتعلق بقلوبهم تجاه العجل ومحبة عبادته ، وهكذا ينبغي لكل مؤمن ينكر منكرا أن يزيله بالكلية حتى ينقلع من قلوب أهله ، على حسب استطاعته ، أو من قلبه هو إن كان هو صاحب المنكر ، كالذي يتوب من سماع الغناء ، فيجب عليه أن يتلف أشرطة الغناء ، ليزول المنكر من قلبه بالكلية ، وكالذي يتوب من المسكر يجب عليه إراقة ما بقي من الخمور عنده أياً كان نوعها بل يجب عليه أن يهجر أصحابه الذين كانوا يعاقرون الخمر معه .

ومن الفوائد أيضا بيان فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرك الشاة، فدعا الله فيه،

وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

و بهذا نكون أتينا على ما فتح الله من الفوائد المجنية من قصة موسى عليه السلام.

*****

قصة إبراهيم عليه السلام ومناظرته لقومه

ذكر الله قصة إبراهيم في بناء البيت في سورة البقرة ، وقبل البدء في قصة بناء البيت لا بد من بيان بدء دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فإبراهيم عليه السلام هو ابن آزر كما نص القرآن على ذلك بقوله (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلة إني أراك وقومك في ضلال مبين)

وقد خالف البعض في ذلك فقالوا إن اسمه تارح أو تارخ بالمعجمة أو المهملة وليس آزركما قال البغوي في تفسيره – (1 / 144) هو إبراهيم بن تارخ بن ناخور وكان مولده بالسوس من أرض الأهواز ، وكان أبوه نقله إلى أرض بابل أرض نمرود بن كنعان أهـ

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزرُ، إنما كان اسمه تارح..

وروى أيضا بسنده عن ابن عباس في قوله: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأبِيهِ آزَرَ } يعني بآزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثاني، وامرأته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سريةُ إبراهيم.

وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارِح. وقال مجاهد والسُّدِّي: آزر: اسم صنم.

قال ابن كثير : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم .

وقال البغوي في تفسير – (3 / 158)

قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي: آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارخ أيضا مثل إسرائيلَ ويعقوبَ وكان من كوثى قريةٍ من سواد الكوفة، وقال مقاتل بن حيان وغيره: آزر لقب لأبي إبراهيم، واسمه تارخ .

وقال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقبا . قال ابن كثير تعليقا على كلام ابن جرير رحمهما الله وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم.

قال البغوي في تفسيره – (**3 / 159**)

قال أهل التفسير: ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان، وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته، وكان له كُهان ومنجمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلامٌ يغيّرُ دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، يقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام.

وقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ، ففزع من ذلك فزعا شديدا، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة، فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه، قالوا: فأمر بذبح كلِ غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، وأمر بعزل الرجال عن النساء، وجعل على كل عشرة رجال رجلا فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها، لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض، فإذا طهرت حال بينهما، فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام .

وقال محمد بن إسحاق: بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقرية ، فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية حديثة السن، لم يعرف الحبل في بطنها.

وكانت مهنة آزر صناعة الأصنام التي يعبدونها ، فنشأ إبراهيم بين قوم لا يعرفون الله تعالى ، ولم يكن يسير بسيرهم بل كان ينكر صنيعهم ، حتى كبر وشب بينهم وكان يناظرهم ، ويفحمهم ، وقد شهر باعتزاله لآلهتهم ، حتى وقعت بينه وبينهم مناظرة عظيمة كما في قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) إلى آخر الآيات

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أي تأمل وبحث عن الحقيقة أو مناظرة لقومه ؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقامُ نظر، واختاره ابن جرير مستدلا بقوله: { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ }

ولقد تكلم ابن كثير في تفسيره بكلام جيد في هذه الآية أسوقه مختصرا بعضه لما فيه من التأصيل وموافقة الكتاب حيث يقول :

والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ،

ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة ، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم ، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أي: إنما أعبد خالقَ هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } الآيات [الأنبياء: 51، 52]، وقال تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركِينَ } [النحل: 120] وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كل مولود يولد على الفطرة " فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل –الذي جعله الله { أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 120] ناظرا في هذا المقام ؟! بل هو أولى

الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب ، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } أهـ كلام ابن كثير وهو كلام نفيس في هذه المسألة والله تعالى أعلم .

كان إبراهيم عليه السلام يعيب آلهتهم ، ولا يتابعهم في ذلك ، ويسخر من عقولهم التي دعتهم لهذا ، حتى وصل الأمر إلى أنه هدد أصنامهم بالتكسير .

قال السدي: كان لهم في كل سنة مجمعٌ وعيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: { تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } فسمعه أولئك.

فلما ذهبوا لعيدهم خالفهم الخليل إلى معبدهم وأخذ ضربا فيهم بيمينه ، حتى جعلهم جذاذا كلَّهم إلا كبيرَهم ، ليتوهموا أنه هو الذي غار منهم في عبادتهم معه ، فكسرهم ، وأراد الخليل أن يستعمل قومه عقولهم ، ويعرفوا أن هذه الآلهة لا تدفعُ عن نفسها شيئا فضلا أن تنفع غيرها ، وهذا ما حصل فإنهم لما رجعوا لآلهتهم ، لم يرعهم إلا وأصنامهم قد كسرت جذاذا فلم يبق منهم إلا كبيرُهم وقد علق إبراهيم الفأس على عاتقه ، وكأنه هو الفاعل ، فلما تراجعوا القول بينهم من فعل هذا بآلهتهم ، تكلم بعض من سمع إبراهيم وهو يتوعد الأصنام فقالوا سمعنا فتى يذكرهم بالسوء يقال له إبراهيم ، فأحضروا

إبراهيم وجمعوا الناس لتلك المحاكمة وهذا ما أراد إبراهيم أن يفحمهم على الملأ ليستفيد الجمع من الناس ، فلما سألوه أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوه ؟

فكأنهم أرادوا أن يسألوه ثم تذكروا أنه لا ينطق !! فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ(64)ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ(65) فقالوا كيف تسألنا أن نسأله وهو لا ينطق ؟

فعندئذ أحرجهم إبراهيم بقوله أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ(66)أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(67)فلما واجههم إبراهيم بذلك وخافوا على العامة من الفتنة به ، قالوا لمن حولهم من الناس انتصروا لآلهتكم ، وأحرقوا هذا الفاعل ، فأخذوا يجمعون الحطب من كل ناحية وقد كان يكفيه كوم من الحطب لكنهم بالغوا في الانتصار ، وأخذتهم حمية الجاهلية ، حتى أوقدوا نارا عظيمة يقال إن الطير إذا مر من فوقها سقط ميتا ، وقد سخر الله لإبراهيم جميع الحيوانات تطفئ النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ ليوقدها ، والوزغ هو ما تسميه العامة بالبرصي أو البعيرصي ، أو الظاطور ، ولهذا جعل الله لمن قتله في الضربة الأولى مائة حسنة ، وفي الضربة الثانية أقل من ذلك ، كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قتل وزغا في أول ضربة كتبت له مائة حسنة وفي الثانية دون ذلك وفي الثالثة دون ذلك " .

ويخطئ بعض العامة من زعمهم أن قتله يكون باليد ومن فعل ذلك فكأنما صافح النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لا أصل له .

وقد أخرج البخاري في صحيحه – (11 / 146) من حديث أُمِّ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِقَتْلِ الْوَزَغِ وَقَالَ كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام

وأخرج مسلم في صحيحه – (11 / 293) من حديث عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِقَتْلِ الْوَزَغِ وَسَمَّاهُ فُوَيْسِقًا

وقد كان لعائشة رضي الله عنه رمحٌ وفي رواية عكازةٌ لقتل الأوزاغ فقد أخرج ابن ماجه (2 / 295) و ابن حبان (1082) و أحمد (6 / 83 و 109 و 217) من حديث سائبة مولاةً للفاكه بن المغيرة ، أنها دخلت على عائشة فرأت في بيتها رمحا موضوعا ، فقالت : يا أم المؤمنين ! ما تصنعين بهذا الرمح ؟

قالت : نقتل به الأوزاغ ، فإن نبي الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا : إن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، لم تكن دابة إلا تطفئ النار عنه غير الوزغ ، فإنه كان ينفخ عليه " .

ولنعد لقصتنا ، فلما أججوا النار العظيمة ، أحضروا إبراهيم على الملأ ، ونصبوا المنجنيق ثم قذفوه من بعد لأنهم لم يكن باستطاعتهم أن يقتربوا منها لعظمها ، فألقوه فيها وقد كان الجميع من البشر ضده وكان عليه السلام أمة لوحده كما وصفه الله بذلك ، وبينما إبراهيم يطير في الهواء ويهوي في النار تبدى له جبريل عارضا عليه المساعدة فقال له هل من حاجة فقال أما إليك فلا وأما من الله فنعم حسبي الله ونعم الوكيل وقد أخرج أخرجه البخاري (4563) من قول ابن عباس : (حسبنا الله و نعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، و قالها محمد صلى الله عليه وسلم حين

قالوا : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل)* .

ثم إن الله نصر إبراهيم بأن سلب من النار خاصية الإحراق فقال للنار كوني بردا وسلاما على إبراهيم فكانت كذلك !

فخرج إبراهيم ليس به سوء ، ثم حصلت المحاجة بينه وبين ملك البلد كما حكى الله في كتابه

حيث يقول سبحانه { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (**258**) }

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه وهو ملك بابل: نمروذ بن كنعان ، يقال نمروذ بالمعجمة ونمرود بالمهملة ، قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين. والكافران: نمرود بن كنعان وبختنصر .

أقول وفي هذا التحديد خلاف بين المؤرخين أعني في الذين ملكوا الدنيا ليس هذا موضع بسطه .

ولنعد لقصتنا في محاجة النمروذ لإبراهيم الخليل فقد اختلفوا في وقت هذه المناظرة، قال مقاتل: لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ وقيل قاله له لما أصاب الناس قحط فكانوا يمتارون من النمروذ وكان يمتحنهم في الربوبية عند العطاء حتى مر به إبراهيم فكانت المناظرة والله تعالى أعلم

**

ومعنى قوله: { أَلَمْ تَرَ } أي: بقلبك يا محمد { إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } أي: في وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثمّة إله غيرُه كما قال بعده فرعون لملئه: { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص:38] وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبّره، وطول مدته في الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه؛ ولهذا قال: { أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } وكأنه طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم: { رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } أي: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال النمروذ : { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ }

قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أُوْتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة.

وظن النمروذ أنه أفحم الخليل عليه السلام بهذا الجواب البارد ، وما علم أن الحجة الدامغة ستأتيه بسبب رده المتهكم ، حيث أعرض الخليل عن مناقشته في جوابه ، لأنه أتفه من أن يرد عليه ، فألقمه السؤال المسكت ، حيث يقول ابن كثير رحمه الله : والظاهر –والله أعلم–أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه ؛ لأنه غير ممانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يَدّعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: { فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ } أي: إذا كنت كما تدعي من أنك أنت

الذي تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب. فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } أي: لا يلهمهم حجة ولا برهانًا بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.أهـ

أقول وقد تكلم بعض المنطقيين بكلام لا يليق بمقام إبراهيم عندما عدل عن الرد على جواب فرعون ، ننزه أسماعكم عن ذكره ، وهذا الذي ذكره ابن كثير تحقيق طيب ولائق بنبي مؤيد من ربه .

بعد هذه المحاجة أصبح النمروذ يتربص بإبراهيم فعزم إبراهيم على الهجرة من بلده إلى أرض الله الواسعة حيث ذهب إلى الأرض المقدسة ، فاستودع أباه بعد أن دعاه للتوحيد بأجمل عبارة كما قصه الله علينا في سورة مريم (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ...) فحاج أباه ونصحه وبين له بألطف عبارة ، واستعطفه ، بألين كلمة عل الله أن يهديه ، ولكن أباه أصر على كفره ، وطرده ، وأمره أن يهجره ، فاستودع أباه ، ووعده أن يستغفر له ، وذلك من باب استمالة القلب ، ولكن لما تبين له أن عدو لله تبرأ منه ، قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم، ومعنى كلامهم أنه كان يرجو هدايته في حياته ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو لله .

فلما انطلق الخليل إلى أرض البلاد المقدسة ، وانطلق معه أيضا لوط حيث لم يؤمن من قوم إبراهيم إلا سارة زوجة إبراهيم و لوط يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو: لوط بن هاران بن آزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل. وقد يستشكل البعض كيف يكون لوط قد آمن به وقد ثبت أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: هي أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: "إنك: أختي"، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيرك وغيري ، فأنت أختي في الدين ، وقد أجاب عن ذلك ابن كثير رحمه الله حيث قال : وكأن المراد من هذا –والله أعلم –أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطا عليه السلام، آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسِل في حياة الخليل إلى أهل "سَدوم" وإقليمها، وكان من أمرهم ما قص الله في كتابه .

وقصة إبراهيم الخليل وذلك الجبار هي ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله قوله (إني سقيم)

وقوله (بل فعله كبيرهم هذا)

وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها : من هذه ؟ قال : أختي فأتى سارة فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك فأرسل إليها فأتي بها قام إبراهيم يصلي فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده . فأخذ – ويروى فغط – حتى ركض برجله فقال : ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ

مثلها أو أشد فقال : ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق فدعا بعض حجبته فقال : إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الكافر في نحره وأخدم هاجر " قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الله كشف الحجاب لإيراهيم لما خرجت سارة من عنده يراها حتى رجعت ، تطييبا لخاطره ، فالله أعلم .

ومن هذه القصة يتبين لنا معنى قوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين)

قال ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير – (**4 / 137**)

قوله تعالى : { إِن إبراهيم كان أُمَّة } قال ابن الأنباري : هذا مثل قول العرب : فلان رحمة ، وفلان علاَّمة ، ونسَّابة ، ويقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه ، والعرب قد توقع الأسماء المبهَمة على الجماعة ، وعلى الواحد ، كقوله : { فنادته الملائكة } [آل عمران : 39] ، وإِنما ناداه جبريل وحده . وللمفسرين في المراد بالأُمَّة هاهنا ثلاثةُ أقوال :

أحدها : أن الأُمَّة : الذي يعلِّم الخير ، قاله ابن مسعود ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه المؤمن وحده في زمانه ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث : أنه الإِمام الذي يُقتدَى به ، قاله قتادة ، ومقاتل ، وأبو عبيدة ، وهو في معنى القول الأول . فأما القانت فقال ابن مسعود : هو المطيع .أهـ

أقول وكلها قد اجتمعت في الخليل عليه السلام .

ولما كان إبراهيم الخليل أمة قانتا لله ، وتصدى للشرك في زمنه ، اصطفاه الله فجعله خليلا له من دون البشر ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فجعله أبا للأنبياء ، وجعله قدوة وأسوة لمن بعده كما قال سبحانه (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ)

ومن فضله عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وسلم سماه أباه وسمى عليه أول بنيه كما أخرج مسلم في صحيحه (11 / 452) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ .

وبهذا نعرف فضل التوحيد والدعوة إليه ، فقد كانت هي هجيراء الخليل ، فعلى العلماء وطلبة العلم أن يتمسكوا بالدعوة إلى التوحيد ، والاهتمام به بأن لا تخلوا منه دروسهم ، وأن يغرسوه في قلوب الناس ، فهو أساس الثبات ، والعامل الأقوى في زيادة الإيمان ، فما يزيد في الإيمان ويقويه مثل التوحيد والتعرف على الله بأسمائه وصفاته ، وأفعاله التي لا تنفك عن حكمة ، ولهذا صار التوحيد أعدل العدل ، والشرك أظلم الظلم ، كيف لا وقد خاف الخليل على نفسه وبنيه من الشرك ودعا الله النجاة منه (رب اجنبني وبني أن نعبد الأصنام)

ما أعظم التوحيد في قلوب أهله ، فبه تعظم الخشية وبه يكمل الدين في قلوب أهله ، وأهله هم أعرف الناس بربهم وأتقاهم له .

فإن إبراهيم عليه السلام لما نجاه الله من ذلك الجبار الذي أراد أن يأخذ زوجته سارة ، فلما رد الله كيده وأهداها جارية اسمها هاجر ، التي أصبحت بعد زوجة لإبراهيم حيث أهدتها له سارة ، ومع مرور الزمن ولحكمة أرادها المولى جل وعلا حصل بين سارة وهاجر مايحصل بين الضرات ، وذلك عندما رزق إبراهيم بالولد من هاجر فغارت منها سارة ، حيث رزق الله إبراهيم إسماعيل ، وقد رزق به بعد أن كبر وجاوز الثمانين من عمره ، وقد كان سبب الغيرة بين الزوجتين داعيا لإبراهيم أن يذهب بهاجر وابنها إلى مكان آخر ، وقد أمره الله أن يضعهم بمكة عند موضع الكعبة التي سيبنيها ، وقد أورد البخاري قصتهم كاملة من حديث سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قال :قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَ وَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوادي الَّذِى لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شيء فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِى أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذريتي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) حَتَّى بَلَغَ (يَشْكُرُونَ). وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا ، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوادي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ

أَحَدًا ، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوادي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ ، حَتَّى جَاوَزَتِ الوادي ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا ، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا , فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا ، فَقَالَتْ صَهٍ ؟ تُرِيدَ نَفْسَهَا ، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا ، فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ. فَإِذَا هي بِالْمَلَكِ ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا ، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا ، وَهْوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا , قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا ، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ ، يَبْنِيه هَذَا الْغُلاَمُ وَأَبُوهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ ، حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا. فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوادي وَمَا فِيهِ مَاءٌ ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ ، فَأَقْبَلُوا ، قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ. قَالُوا نَعَمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهْيَ تُحِبُّ الإِنْسَ , فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ ، وَشَبَّ الْغُلاَمُ ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ

وَهَيْئَتِهِمْ فقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا ، فَقَالَ هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا ، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ فَهَلْ أَوْصَاكِ بشيء قَالَتْ نَعَمْ ، أمرنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ. فطَلَّقَهَا ، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى ، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ. فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ ، وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ مَا طَعَامُكُمْ قَالَتِ اللَّحْمُ. قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ قَالَتِ الْمَاءُ. فَقَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ. قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ , قَالَ فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ. قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ فَأَوْصَاكِ بشيء قَالَتْ نَعَمْ ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ ذَاكِ أَبِي ، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ ، أمرنِي أَنْ أُمْسِكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ ، إِنَّ اللَّهَ أمرنِي بِأَمْرٍ. قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ وَأُعِينُكَ. قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أمرنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا. وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهْوَ يَبْنِي ، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ،

وَهُمَا يَقُولاَنِ (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) قَالَ فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ ، وَهُمَا يَقُولاَنِ (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

وقد ابتلي إبراهيم بابنه هذا حيث أمر بذبحه بعد أن شب وبلغ السعي ، وهذا هو الصواب خلافا لمن زعم أنه إسحاق وأسوق هنا كلاما لابن كثير رحمه الله في هذا المقام حيث يقول في تفسيره – (7 / 27) :

" وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا "إسحاق"، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا "إسحاق" لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: "وحيد" إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسحاق نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } . ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ } [الحجر:53]. وقال تعالى: { فَبَشَّرْنَاهَا

بِإسحاق وَمِنْ وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ } [هود:71]، أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام " انتهى كلام ابن كثير رحمه الله وهو كلام عظيم في بابه ،و قد كان إبراهيم عليه السلام قد أحب إسماعيل حبا شديدا ، وكان إبراهيم يمر به ويهاجر كل وقت يأتيهم عند مكان البيت ، وقد قيل إنه كان يركب البراق في سفره ، وهذه من الإسرائيليات التي لم يرد ما يثبتها في شرعنا ، ولا مانع من حدوثها ، فلما شب إسماعيل ، وبلغ سنا يكون في الغالب ، أحب ما يكون لوالديه ، قد ذهبت مشقته ، وأقبلت منفعته ، فقال له إبراهيم عليه السلام: { إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } أي: قد رأيت في النوم والرؤيا ، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي { فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى } فإن أمر الله تعالى، لا بد من تنفيذه ، قال إسماعيل صابرا محتسبا ، مرضيا لربه ، وبارا بوالده : { يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } أي: امض لما أمرك الله { سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل ، وأخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } ، وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

فلما أسلما لله وانقادا لأمره وأخذه إبراهيم فتَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيرُه، فاخلعه حتى تكفنني فيه. فعاجله

ليخلعه، فنُوديَ من خلفه: { أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا } ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين.

ولقد كان أمر الخليلِ بذبح ابنه كما وصف الله { لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ } أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حبا شديدا، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفي وُدَّه ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدّم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه .

أقول إن هذه الرحمة التي نزلت على إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام ، شملتهما وشملت من بعدهما ، وذلك أن إبراهيم لو سن للناس ذبح الأبناء قربة لله ، لأوشكت والله أعلم أن تسري في الناس من بعده ، ولكن الله جل في علاه ، عطف على الناس بعفوه ، وفداه بذبح من عنده من الجنة ، لتكون السنة في القرابين بها ، وكذلك كان ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش. يعني لشرائه وأكله .

ولو تخيل الإنسان أنه سيتقرب بذبح ابنه يوما ما لحار عقله ، وهو مجرد خيال ، فكيف لو شرع للناس ، فسبحان الله اللطيف الرحيم .

ومن قصص إبراهيم الخليل عليه السلام التي قص في كتابه طلبه من الله أن يريه كيف يحيي الموتى كما قال تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ...) الآية

وإبراهيم الخليل عليه السلام لم يقل ذلك شكا في قدرة الله وحاشاه بل أراد أن يصل لدرجة حق اليقين ، كما أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم (ليس الخبر كالمعاينة : إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت)

ومن ذلك حال موسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله ، لكن المُخْبَرَ وإن جزم بصدق المخبِرِ ، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه ، كما يتصوره إذ عاينه ، ولنعد للقصة فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أو لم تؤمن. قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي" يعني لو كان إبراهيم في حالة شك ، لكنا نحن أولى أن نشك ، وهذا لبيان حال إبراهيم عليه السلام ودفع التوهم الباطل ، وهو من باب هضم النفس والتواضع من النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ونتف ريشهن، ومزقهن ، وخلط بعضهن في ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، قيل: أربعةُ أجبل . وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته .

ومن قصص إبراهيم عليه السلام ما تبدى فيه عظيم كرمه ، وذلك لما زارته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه كما قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) الآيات

وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

والخليل عليه السلام رأى عليهم الهيبة ، فأجلهم وأكرمهم في القول والفعل فإنهم سلموا عليه بالنصب ورد عليهم بالرفع والرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من تسليمهم ؛ ولهذا قال تعالى: { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } [النساء: 86]، فالخليل اختار الأفضل.

وهؤلاء الضيوف هم : جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شبان حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: { قَوْمٌ مُنْكَرُونَ } .

فبالغ في إكرامهم حيث راغ إلى أهله فجاء بعجل سمين مشوي محنوذ ، وذلك خفية عنهم وهم لا يعلمون وكان الخليل جالسا معهم وسارة قائمة تخدمهم ، ولكنه نكرهم حيث إنهم لم يمدوا أيدهم إلى الطعام ، قال ابن كثير رحمه الله : وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: "نأتيكم بطعام؟" بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: { أَلَا تَأْكُلُونَ } على سبيل العرض والتلطف .أهـ

{ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ } [هود: 70 ، 71] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود 72 ، 73]؛ فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منهما، فكل منهما بشر به.فلما سمعت سارة بالبشرى بالولد أَقْبَلَت فِي صَرَّةٍ } أي: في صرخة عظيمة ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم والثوري والسدي وهي قولها: { يَا وَيْلَتَا } { فَصَكَّتْ وَجْهَهَا } أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط.وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، { وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم ، وقد كنتُ في حال الصبا عقيما لا أحبل؟.

{ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

الفوائد من قصة إبراهيم عليه السلام

فمن الفوائد :

معرفة قدرة الله النافذة ، وعلمه الذي و سع كل شيء فانظر إلى النمروذ لما أراد قتل الغلام الذي رأى في المنام أن هلاكَ ملكِه على يديه ، وكما فعل فرعون من بعده بموسى ، وانظر إليه وقد ظفر به وأرادوا إحراقه لم يستطيعوا ذلك وذلك أن الله أراد منعه ، وكما

جاء في حديث ابن عباس عند الترمذي مرفوعا (فلو اجتمع الخلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه أو يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه) وهذا ما استقر في قلب الخليل عليه السلام فانظر إليه وهو أمة لوحده ، وقد عاداه الخلق كلهم ، ثم يجابههم بالتوحيد وإبطال التنديد ، ولما ألقي في النار أعلن التجاءه بالله فرفض مساعدة جبرائيل لما عرض له ، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، فمن تأمل قصة الخليل عليه السلام وجد أنه مدرسة في التوحيد وصدق العبودية ، ولهذا استحق أن يكون خليلا لله تعالى ، ومكث دهراً لم يشاركه أحد في الخلة ، حيث لم يرد أن الله اتخذ خليلا قبله أو بعده ، حتى بُعث محمدٌ صلى الله عليه وسلم ومكث زمنا ثم قبل وفاته بخمس سنين ارتقى لدرجة الخلة كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث جندب قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا .

ومن الفوائد أيضا المناظرة في الحق ، وهي مطلوبة من أهل العلم الذين لديهم ملكة في العلم وقدرة على المناظرة ، فانظر إلى الخليل عليه السلام وهو يتدرج مع قومه ويتنازل في الخصومة ليبين لهم الحق ، علهم أن يهتدوا ، ونتعلم من هذه المناظرة أن يكون هدفُ المناظر هداية المناظر وبيان الحق لا أن يكون هدفه الظهورُ على الخصم ، فانظر إلى الخليل وهو يجاريهم في آرائهم ثم يبين بطلانها ، حتى فند جميع أقوالهم وآرائهم ، وأظهر لهم الصواب ناصعا .

ومن الفوائد أيضا القوة في الحق إذا كانت سبيلا للهداية ، فانظر إلى الخليل عندما راغ إلى أصنامهم فكسرها حتى جعلها جذاذا ، وهذا التكسير لم يكن همجيا بل بحكمة فانظر إليه وهو يعلق الفأس على عاتق كبيرهم ، ليقررهم أن هذه الآلهة لا تدفع عن

نفسها فضلا عن غيرها ، ثم هي لا تملك حتى النطق بالإخبار عمن فعل بها ذلك ، ولهذا قال الله عنهم (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) لأنه تبين لهم بما لا شك فيه ضعف آلهتهم عن كل شيء ، ولكن العناد ساقهم إلى التكبر ومعاندة الحق ، فنصره الله عليهم ، كما قال سبحانه (فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين)

ومن الفوائد العظيمة في قصص إبراهيم عليه السلام الولاء والبراء في التوحيد ، حيث جعله الله نبراسا يهتدى به في التوحيد فها هو إبراهيم عليه السلام يتبرأ من قومه ويجابههم بالعداوة إن لم ينخلعوا من عبادة غير الله كما قال سبحانه (قد كانت لكم أسوة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومن ما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده)

وانظر إليه كيف يتصرف مع أبيه ، فها هو يدعوه إلى الله ، بكل أسلوب لطيف ، داعيا له واصلا له ، راجيا من الله أن يهديه ، حتى مات على الكفر ، عندها تبين له أنه عدو لله وأن الله ختم عليه بالكفر فلم يتردد في البراءة منه كما قال تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لحليم أواه منيب)

ومن الفوائد أيضا حفظ الله لأوليائه ، ويتجلى ذلك في حفظ الله لسارة عندما أُخذت لذلك الجبار ، فما إن مد يده نحوها إلا وشلت ، ثم يعود ، حتى سقط أرضا يرجف بساقه ، حتى أيقن أنها ممنوعة منه فصرفها وقد أهداها هاجر عليهما السلام .

ومن الفوائد أيضا أن الداعية إذا لم يجد قبولا عند بني قومه ومحلته أنه يهاجر من بين أظهرهم ليبحث عن بيئة صالحة للدعوة ، وألا يصيبه الإحباط فيتقاعس ويستحسر ويدع الدعوة ، فها هو إبراهيم عليه السلام يهاجر ، وها هو محمد صلى الله عليه وسلم

يهاجر ، فقد جعل الله في الأرض سعة ليهاجر المؤمنون إليها عند ضيق المكان وعدم استطاعة الدعوة والعبادة .

ومن الفوائد في قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ...) الآية التفرقة بين الشك وطلب زيادة الإيمان والاطمئنان برؤية الأمر على الواقع ولهذا أسوق كلاما نفيسا لشيخ الإسلام يبين ذلك حيث يقول رحمه الله : وقد سئل عن قوله تعالى : { حَقُّ الْيَقِينِ } [الواقعة : 95] و { عَيْنَ الْيَقِينِ } [التكاثر : 7] و { عِلْمَ الْيَقِينِ } [التكاثر : 5] فما معنى كل مقام منها ؟ وأي مقام أعلى ؟ .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة .

منها : أن يقال : { عِلْمَ الْيَقِينِ } ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر، و { عَيْنَ الْيَقِينِ } ما شاهده وعاينه بالبصر، و { حَقُّ الْيَقِينِ } ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار .

فالأول : مثل من أخبر أن هناك عسلًا، وصدق المخبر . أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده .

والثاني : مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس المخبر كالمعاين) .

/والثالث : مثل من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد، كما قال النبي صلى الله عليه

وسلم في الحديث الصحيح : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (ذاق طعم الإيمان : من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا) فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات :

الأولى : من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك .

والثانية : من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر، والمستدل بآثارهم .

والثالثة : أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها : إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب . وقال آخر : إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طربًا . وقال الآخر : لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم . أهـ كلامه رحمه الله

ومن الفوائد التوكل على الله حيث تمثل في شخص إبراهيم الخليل وزوجه ، فانظر إلى إبراهيم وقد وضع زوجته ورضيعه عند مكان البيت ، وَ وَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوادي الَّذِى لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شيء فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لاَ

يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِى أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ ، كمال التوكل على الله إذا لا يضيعنا ، عبارة ملئت بالتوكل على العزيز الغفور .

(قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ...)

هذه القصة التي وردت بعد قصة إبراهيم الخليل في الترتيب القرآني يقول الله جل وعلا (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (**243**)البقرة

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: دا وردان. وكذا قال السدي وأبو صالح وزاد: من قبل واسط. وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات .

وروى وكيع بن الجراح في تفسيره:بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ } قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم موتوا فماتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ } الآية.

وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارًا من الموت إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملأوا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فحيزوا إلى حظائر وبُني عليهم جدران وقبور وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مَرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع عظام كل جسد بعضها

إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك بأن تكتسي لحمًا وعصبًا وجلدًا. فكان ذلك، وهو يشاهده ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن تَرْجِعَ كلُّ روحٍ إلى الجسد الذي كانت تعمره. فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرةٌ ودليلٌ قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال: { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ } أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه القصة عبرةٌ ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلبًا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعًا في آن واحد.

ومن هذا القبيل ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علما، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه" فحمد الله عمر ثم انصرف.

و ذكر هذه القصة توطئة للجهاد في سبيل الله فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك ، ولهذا عقب تلك القصة بالأمر بالجهاد في سبيل الله .

وعن الأصمعي قال : لما وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على حمار ومعه أهله وولده وخلفه عبد حبشي يسوق حماره ، فطفق العبد يرتجز وهو يقول :

لن نسبق الله على حمار ... ولا على ذي منعة مُطار

قد يصبح الله أمام الساري ... فرجع الرجل بعياله لمّا سمع قولَه

وقد ذكر أهل التأريخ كابن عساكر وغيره عن خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال:– وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفًا وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير!! فلا نامت أعين الجبناء يعني: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلا في الحرب ويتأسف على ذلك ويتألم أن يموت على فراشه.

ويستفاد من هذه القصة بيان أن الأجل واحد وأن وقت الموت محدد لا يقدمه مرض ولا يدفعه صحة ، وأن طريقة الموت قد تختلف ، ولكن النتيجة واحدة وهي خروجِ الروح ونهاية الدنيا

من لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد

ويدخل في هذا الإيمان بالقدر وأن الله مقدر كل شيء وأنه لا يكون شيء إلا بقدر فمن أيقن بذلك صار شجاعا مقداما لا يهاب الموت ، ولا يهاب شيئا أبدا ، لأنه أيقن أنه لن

يصيبه إلا ما قدره الله له كما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) فقد روى البيهقي في السنن الكبرى– (4 / 66)

عن قتادة قال هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فيرضى وَيُسَلِّمُ. وَرُوِيَ هَذَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كان الأمر كذلك فعلى العبد أن يسعى جاهدا في بناء آخرته ، وأن لا يجعل ذكر الموت محبطا له عن العمل الصالح ، أو منغصا له ، فإن البعض أصبح ذكر الموت عنده كالصاعقة ، لا يرغب في سماعه ، ولا يحب أن يحضر مجالس التذكير به ، وكأنه لن يموت حتى يحضر هذه المجالس أو أن الموت يصيب من يكثر من ذكره ، ولكن الله قطع الطريق على الجبناء بقوله (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وقوله (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) تأمل لم يقل يلحقكم أو يدرككم بل قال يلاقيكم فكأن الإنسان يفر من الموت وهو يسير في الاتجاه المعاكس ، فالموت أمامك وليس خلفك ، مهما فعلت ، لذا على العبد أن يسعى في إصلاح نفسه والاستعداد للموت .

ومن الفوائد أن أمر الله للجميع كأمره للواحد ، وأنه لا يكرثه شيء عظم أن يفعلَه ، أو كثر أن يأخذ منه وقتا في فعله لصعوبته ، بل الكل يكون بقوله كن فيكون مباشرة قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وكقوله (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (28) فهو يأمر الشيء فيكون بكلمة واحدة سواء كثر أو قل عظم أو دق الكل سواء ، وهو مع ذلك بأمر واحد لا يحتاج إلى تكرار كما قال سبحانه ({ وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } [القمر: 50] أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده ، فهو سبحانه المالك والمتصرف الذي لا يعجزه شيء ولا يكرثه جل في علاه .

******

(قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم الجهاد ...)

أخي القارئ الكريم :نأتي الآن على قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم الجهاد في سبيل الله مع ملك يختاره لهم كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..... الآيات

روى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون. قال ابن جرير: يعني ابن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب. وقال ابن كثير :هذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم.

وقال السدي: هو شمعون وقال مجاهد: هو شمويل عليه السلام. وكذا قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه وهو: شمويل بن بالي من ولد لاوي بن يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام.

وجاء في السير لأبي إسحاق الفزاري – (1 / 135) بسند فيه ضعف عن مجاهد ، في قول الله : ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، ثم قال : هي الآية التي في سورة البقرة ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال : ثم قرأ إلى قوله : فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين .

وقال وهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم

يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرا وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، بعد أن لم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم ، فعندئذ طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم فعين لهم طالوت وكان رجلا من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم ؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا: { أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا } أي: كيف يكون ملكًا علينا { وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ } أي: ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعةٌ وقول معروف ثم قد أجابهم النبي قائلا { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ } أي: اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم. ولست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك { وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } وهو مع هذا أعلم منكم ، وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة بها أي: أتم علمًا وقامة منكم.

وقد جعل الله له علامةً على بركة ملكه عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم.

ومعه بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ .

روى ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية: { وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } قال: عصاه ورضاض الألواح. وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس وعكرمة وزاد: والتوراة.

ومن بركات ملكه عليهم أن التابوت تأتي به الملائكة لهم كما قال سبحانه { تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ } قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون.

وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت.

وبعد أن رأوا الآيات وتابعوا نبيهم وملكهم ، سار بهم طالوت ملك بني إسرائيل وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفًا فالله أعلم، فأراد الله أن لا يصحبه في جهاده إلا أهل الصدق والصبر فابتلاهم الله بالشرب من النهر على ظمأ منهم كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ } قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين يعني: نهر الشريعة المشهور { فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي } أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته { ومن لم يطعمه } أي: لم يشرب منه فإنه مني { إلا من اغترف غرفة بيده } فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو ، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر

ما يزداد به الثابتون توكلا على الله، وتضرعا واستكانة وتبرؤا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم .

وقد انسحب عامة الجيش ولم يبق مع طالوت إلا المؤمنون الخلص وكانت عدتَهم بضعةَ عشر وثلاثمَائةِ رجلا كعدد الصحابة يوم بدر كما روى البخاري في صحيحه عن البراء قال: "كنا –أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم–نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة" .

ولهذا استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم وهم العالمون بأن وعد الله حق فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد. وقالوا: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ }يعنى بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، { والله مع الصابرين } بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم.

ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده قال جميعهم { ربنا أفرغ علينا صبرا } أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين.

من ها هنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم { فهزموهم بإذن الله وقتل داود } عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، { جالوت } أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره { وآتاه الله } أي: آتى الله داود { الملك والحكمة } أي: منَّ

عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال { وعلمه مما يشاء } من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وبهذا تنتهي هذه القصة العظيمة التي ذكرت في القرآن لما فيها من المواعظ والعبر الظاهرة لكل من قرأ القصة من كلام الله .

******

قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه

قال سبحانه (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً

لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) البقرة

تحدثت الآية عن قصة ذلك الرجل الذي مر على قرية فاستبعد أن يحييها الله بعد كونها ترابا واختلفوا في ذلك المار، فقال قتادة وعكرمة والضحاك: هو عزير بن شرخيا، وقال وهب بن منبه: هو أرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون، وهو الخضر وقال مجاهد: هو كافر شك في البعث، واختلفوا في تلك القرية فقال وهب وعكرمة وقتادة: هي بيت المقدس، وقال الضحاك: هي الأرض المقدسة، وقال الكلبي: هي دير سابر أباد، وقال السدي: مسلم باذ، وقيل ديرهرقل، وقيل: هي الأرض التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وقيل: هي قرية العنب، وهي على فرسخين من بيت المقدس .

أقول وكل هذا الخلاف لا فائدة منه فإن المثل المضروب ، والفوائد المجنية منه لا علاقة لمعرفة ذلك بها ولهذا قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله في تفسيره : والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرا، وأن يجعله آية ودليلا للناس لثلاثة أوجه أحدها قوله { أنى يحيي هذه الله بعد موتها } ولو كان نبيا أو عبدا صالحا لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: { فلما تبين له } أي: تبين له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم أهـ

وقال ابن كثير رحمه الله : وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بَخْتنصر لها وقتل أهلها. أهـ

وملخص القصة أن هذا الرجل المنكر للبعث أو المستبعد له لما رأى هذه القرية وحال الخراب بها وهي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: { أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه ، فأراد الله أن يجعله آية للناس وأراد به خيرا من علمه بالحقيقة على وجهها قال الله تعالى: { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } قال : وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟ فلما استقل سويا قال الله له –أي بواسطة الملك–: { كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } قالوا: وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ، فكان الجواب له { بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ } وذلك: أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب تعفن ثم قيل له { وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ } أي: كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر { وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ } أي: دليلا على المعاد { وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا } أي: نرفعها فتركب بعضها على بعض.

وقرئ:(ننشرها) أي: نحييها قاله مجاهد { ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا } .

وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا ، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها فبعث الله ريحًا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في

موضعه حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا، وبعث الله ملكًا فنفخ في منخري الحمار فنهق كله بإذن الله عز وجل وذلك كله بمرأى من ذلك الرجل فعند ذلك لما تبين له هذا كله { قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أي: أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانًا فأنا أعلم أهل زماني بذلك وقرأ آخرون: "قَالَ اعْلَمْ" على أنه أمر له بالعلم.

فقد جعل الله له أدلة في واقعته ، فنظر بعينيه إلى جسده وهو يخلق ويركب ثم نظر إلى طعامه لم يفسد ، ثم نظر إلى حماره كيف يخلق وتنفخ فيه الروح ثم نظر إلى القرية التي استبعد حياتها ، وهي عامرة بأهلها أعمرَ مما كانت قبل خرابها .

وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة؛ فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شابا وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم.

ومن الفوائد التي نجنيها من هذه القصة ، أن المسلم ينبغي له أن يتفكر في مثل هذه الحالات والمواقف التي يمر بها ، وأن يكون له فيها عبرة فهذا الرجل وقف على هذه القرية و قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبا و { قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها } استبعادا لذلك وجهلا بقدرة الله تعالى ، فاستفاد من تفكره وإن كان أخطأ في جهله بقدرة الله إلا أن الله رحمه فجعل له من الآيات ما يدله على الصواب ، ونحن لو وقفنا على مثل هذه القرية فالتفكر الصحيح أن نعلم بذلك حقارة الدنيا وأنها إلى زوال ، وكيف أن الدنيا مهما تزخرفت وتطورت وازينت فإن مصيرها للزوال .

ومن فوائدها أيضا ظهور الدليل على توحد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء ، حيث أمات الرجل وخرق له قوانين الحياة بأن أماته مائة عام ثم بعثه ، فأراه كيف يخلق هو وحماره ، وأراه قدرته على حفظ الأشياء من الفساد ، حيث بقي طعامه طيبا لم يفسد بل لم يتغير عن حاله بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادا .

ومن الفوائد أيضا أن الله سبحانه يجعل العبرة للناس في أبسط الأمور ، وعلى أدنى سبب طالما أن فيه فائدة للناس ، فكم من الملوك والأمراء والعظماء ممن ملكوا الدنيا ماتوا وليس لهم ذكر ، وهذا الرجل البسيط جعل الله فيه و في حماره آية للناس ، وأي آية ؟ آية في إثبات البعث على وجه الحقيقة ، فسبحان من يفعل في ملكه مايشاء متى شاء .

*****

قصة امرأة عمران

وهي أم مريم عليهما السلام حيث قص الله علينا قصتها في سورة آل عمران حيث يقول سبحانه (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35)

امرأة عمران هذه أم مريم بنت عمران عليها السلام وهي حَنَّة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يوما طائرًا يَزُقُّ فرخه ، فاشتهت الولد فدعت الله عز وجل أن يهبها ولدا ، فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون { مُحَرَّرًا } أي: خالصا مفرغا للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } أي: السميع لدعائي، العليم بِنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرا أم أنثى؟ { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقُرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز

وجل { وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى } أي: في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ، وقد سمتها مريم ، ثم توجهت بالدعاء طالبة من الله أن يحفظها وذريتها من الشيطان وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت: { وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } أي: عَوَّذتها بالله، عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما رواه عبد الرزَّاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا مَسَّه الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلّ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إيَّاهُ، إلا مَرْيَمَ وابْنَهَا". ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: { وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }و أخرجه الشيخان من حديث عبد الرزاق .

ثم إن الله تقبلها من أمها نذيرة، وأنه { وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } أي: جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا، ويَسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين.

قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سَنَةُ جَدْب، فكفل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين. والله أعلم.

وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعًا وعملا صالحًا؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: "فإذا بِيحيى وعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ"، وقد يُطْلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا تَوسُّعا، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في عمارة بنت حَمْزَةَ أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال: "الخَالَةُ بِمَنزلَةِ الأمِّ"

فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاها

.

ونقف على هذا من قصة مريم وابنها عليهما السلام . ولنتحدث الآن عن :

قصة زكريا عليه السلام

كان نبيًّا عظيمًا من أنبياء بني إسرائيل. وفي صحيح البخاري: أنه كان نجارًا، أي: كان يأكل من عمل يديه في النجارة.

وقد جعل الله الكفالة من نصيبه حيث كان يكفل مريم وَكُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا } قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم : يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.

فإذا رأى زكريا هذا عندها { قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا } فتقول له: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } .

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى خرق لمريم العادة فيرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وإن كان شيخا كبيرا قد ضعف و وَهَن منه العظم، واشتعل رأسه شيبا، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا، وقوله: { إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا } : قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره. حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة في هذه الآية { إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا } : إن الله يعلم القلب التقي (4) ، ويسمع الصوت الخفي.

وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك. وقال: { رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } أي: ولدا صالحا { إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } .

فسمع الله دعاءه ، فَخاطبته الملائكة شفاها خطابًا أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خَلْوَته، ومجلس مناجاته، وصلاته ، وكان نداء الملائكة بشارةً له بأَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحي. قال قتادة وغيره: إنما سُمِّي يحي لأن الله تعالى أحياه بالإيمان.

وكان من صفات المولود المبشر به أنه مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ أي مؤمنا بعيسى ابن مريم كما روى العَوْفِيّ وغيره عن ابن عباس. و قال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى

ابن مريم، وقال قتادة: وعلى سننه ومنهاجه. وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس في قوله: { مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ } قال: كان يحيي وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يَسْجُد للذي في بطنك فذلك تصديقه بعيسى: تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى عليه السلام، وهكذا قال السدي أيضا.

وهكذا استجاب الله دعاء زكريا ووهبه بيحيى عليهما السلام ، وأمره الله أن يسبح كثيرا بعد هذه البشارة ، شكرا لله على ما من به عليه .

ولقد احتوت هذه القصة على فوائد عظيمة نأتي على بعضها فمن تلك الفوائد في قوله (وليس الذكر كالأنثى) دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب .

وفي قوله { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ } دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقررًا، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَد سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ". أخرجاه البخاري تعليقا (1303) ورواه مسلم (2315) من حديث أنس بن مالك ، وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَحَنَّكه وسماه عبد الله رواه البخاري (5470) ورواه مسلم (2144) وفي صحيح البخاري (6186) من حديث جابر: أن رجلا قال: يا رسول الله، وُلِدَ لي وَلَد، فما أُسَمِّيه؟ قال: "اسْم وَلدِك عَبْد الرَّحْمَنِ" وثبت في الصحيح أيضًا: أنه لما جاءه أبو أسَيد بابنه ليُحنّكه، فذَهَل عنه، فأمر به أبوه فَرَدّه إلى منزلهم، فلما ذكَرَ رسولُ الله صلى

الله عليه وسلم في المجلس سَمّاه المنذر البخاري (**6191**) ورواه مسلم (**2149**) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وفي قوله (هو من عند الله) وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافا لمن نفى ذلك .

******

قصة مريم وعيسى عليهما السلام

نأتي على قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، حيث تكلمنا عن بدء أمر مريم وكفالة زكريا لها ، و الآن سنتحدث عن حملها بابنها وولادتها حيث يقول الله جل في علاه { إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } . [45]آل عمران

ويقول سبحانه في سورة مريم (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) مريم

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته، ولدًا زكيًّا طاهرًا مباركًا –عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليهما السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وسورة مريم وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر .

ومريم هي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد نشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب ، فلما أراد الله تعالى –وله الحكمة والحجة البالغة–أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، { انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

قال السدي: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. وبهذا نعلم سبب صلاة أهل الكتاب لجهة المشرق كما قال ابن عباس : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: { انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } قال: خرجت مريم مكانًا شرقيًّا، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وروى ابن جرير أيضًا عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله تعالى { انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } واتخذوا ميلاد عيسى قبلة .

وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقي من الماء.

وقال نَوْف البِكَالي: اتخذت لها منزلا تتعبد فيه. فالله أعلم.

وقدَ اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِ قومهاْ حِجَابًا سترا ومانعا، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب والله أعلم هو من أجل أن تعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثالٌ منها لقوله تعالى: { يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ }

ولما كانت في خلوتها وقنوتها ، أرسل الله لها الملك لما أراد الله لها ولنسلها ولتلك الأمة السعادة كما قال سبحانه { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } وهو جبريل عليه السلام { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } أي كاملا من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه فلما رأته في هذه الحال وهي معتزلةٌ عن أهلها منفردة عن الناس قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها خافت أن يكون رجلا قد تعرض لها بسوء وطمع فيها فاعتصمت بربها واستعاذت منه فقالت له { إِنِّي

أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ } أي ألتجئ وأعتصم به أن تنالني بسوء إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى لما قالت له (إن كنت تقيا) وهي في تلك الحالة شابة خالية بعيدة عن الناس وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها وإنما ذلك خوف منها وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه وهذه العفة – خصوصا مع اجتماع الدواعي وعدم المانع – من أفضل الأعمال .

فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة قال { إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ } أي إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك { لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا } وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة فتعجبت من وجود الولد من غير أب فقالت { أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا } والولد لا يوجد إلا بذلك؟"

{ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ } تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها { وَرَحْمَةً مِنَّا } أي ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس .

ثم إن جبريل نفخ في جيبها روحا من خلق الله ، فطارت في فرجها ، وقال الله له كن فحملت بعيسى كما قال سبحانه { وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا } [التحريم:12] .

فلما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس { مَكَانًا قَصِيًّا } فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسيا منسيا فلا تذكر. وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل.

فحينئذ سكّن الملك روعها وثبت جأشها وناداها من تحتها، لعله كان في مكان أنزل من مكانها، وقد قيل إن المنادي لها هو ابنها عيسى عليه السلام فالله أعلم ، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } أي: نهرا تشربين منه.

{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا } أي: طريا لذيذا نافعا { فَكُلِي } من التمر، { وَاشْرَبِي } من النهر { وَقَرِّي عَيْنًا } فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب .

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحدا من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: { إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا } أي: سكوتا { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } أي: لا تخاطبيهم بكلام، لتستريحي من قولهم وكلامهم. وكان معروفا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، .فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى التي لو أقيم عدةٌ من الشهود لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة ، أمرا من جنسه ، خارقا للعادة أيضا وهو كلام عيسى في حال صغره جدا .

فلما تعلت مريم من نفاسها، أتت قومها بعيسى تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: { لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا } أي: عظيما وخيما، وأرادوا بذلك البغاء حاشاها من ذلك.

ونادوها باسم أخيها زيادة في التوبيخ فقالوا يا أُخْتَ هَارُونَ ، والظاهر أنه أخ لها حقيقي، فنسبوها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قرونا كثيرة كما سبق بيانه.

لقد جعل الله في قصة مريم عليها السلام عبرا وحكما لمن كان له قلب ، فإن مريم لما تعلت من نفاسها، أتت قومها بعيسى تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها ، وثقتها بربها وبوعده ، فأتت قومها غير مبالية ولا مكترثة بهم ، فقالوا لها { لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا } أي: عظيما وخيما، وأرادوا بذلك البغاء حاشاها من ذلك ، وقالوا لها مشددين عليها في التوبيخ{ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا } أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصا هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟. وذلك أن الذرية – في الغالب – بعضها من بعض، في الصلاح وضده، فتعجبوا – بحسب ما قام بقلوبهم – كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه.

وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: { إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: { كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا } لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن ، وهذا ظاهر أن عيسى تكلم في المهد وهذه أولى معجزاته بعد كونه خلق من أم بلا أب .

فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا }

قال الأكثرون أوتي الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال.

فأخبر سبحانه أن عيسى خاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلها، أو ابنا للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ } وهم مع ذلك مدعون موافقته ، وفي هذا بيان لسعة علم الله حيث نبه على كونه عبدا لله ، لعلمه أن طائفة من خلقه سيدعون فيه مالا يلق به من كونه إله أو ابنا لإله .

ثم بين لهم عيسى الحال التي هو فيها ومكانته من ربه بقوله { آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ } أي: في أي: مكان، وأي: زمان، فالبركة جعلها الله فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

ثم بين لهم ما أوحاه الله إليه بقوله { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا } أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوقِ عباده، التي أجلها الزكاة، مدةَ حياتي، أي: فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، و أوصاني أيضا، أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

وأخبرهم بخُلُقه الجميل الذي فطره الله عليه بقوله { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا } أي عاصيا لربه. قيل: "الشقي": الذي يذنب ولا يتوب ، وقال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا .

ثم بين لهم أن الله حفظه في حال كونه حملا وفي حال ولادته وفي حياته إلى مماته وفي هذا رد صريح على من زعم أن عيسى قد قتل كما تزعمه النصارى أهل الكذب والإفك .

{ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ } أي: السلامة عند الولادة من طعن الشيطان ، أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال : قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : «ما من بني آدمَ من مولود إلا نَخَسَهُ الشيطان حين يولَدُ ، فَيَسْتَهِلُّ صارخا من نَخْسِهِ إيَّاه، إلا مريمَ وابنَها» وفي رواية : «إلا والشيطان يمسّه حين يُولَد ، فيستهلُّ صارخا من مسِّ الشيطان إياه، إلا مريمَ وابنَها – ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم} [آل عمران: **36]**».

وللبخاري قال : «كلُّ ابن آدم يَطْعَنُ الشيطانُ في جَنْبَيهِ بِإِصْبِعَيْه حين يولَد، غيرَ عيسى ابن مريم، ذهب يَطْعُنُ فطعَن في الحجاب».

ولمسلم قال : «كل بني آدم يمسُّه الشيطان يوم ولدته أُمُّه ، إلا مريمَ وابنَها».

وفي أخرى له قال : «صِياحُ المولود حين يقع نَزْغَة مِن الشيطان».

وفي أخرى له قال : «كلُّ إنسان تَلِدُهُ أُمُّه على الفِطْرة، وأبواه [بعدُ] يُهَوِّدَانِهِ ، ويُنَصِّرَانِهِ ، ويُمَجِّسانِهِ ، فإن كانا مُسلمَين فمسْلِم ، وكلُّ إنسان تلدهُ أُمُّه يَلْكُزُهُ الشيطان في حِضْنَيْه ، إلا مريمَ وابنَها».

ولما كلمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى عليه السلام، فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

فكان كلامه لهم وهو في المهد أكبرَ شاهد على صدق مريم عليها السلام فيما قالت ، وتكذيبا لهم في رميهم لها بالبهتان ، قال تعالى : { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "يعني أنهم رموها بالزنا". وكذا قال السدي، وجُوَيْبِر، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك –زاد بعضهم: وهي حائض– فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

فمن لاحظ منشأ عيسى بنِ مريم عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام وجد أن الله اصطفاه من قبل ولادته ، وكلأه بحفظه وعنايته ، فانظر كيف جعل أمه صديقة عاشت في كنف نبي كريم وهو زكريا كما مر ذكره ، ثم جعل الله ولادته خارقة لكل العادات حيث خلقه من أم بلا أب ليبتلي الله به من شاء من عباده ، ثم جعله يتكلم في المهد ليبرأ أمه من الكذب والافتراء ، ثم جعله الله مباركا أينما كان ، وجعل الله عليه السلام في ولادته وفي حياته وعند مماته ، وقبل موته رفعه الله إليه ، ثم ينزل في آخر الزمن ليقتل الدجال وغيرها من الأمور العظيمة التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

ومع ذلك تجد أن اليهود يكيلون له الافتراءات بلا خوف من الله ويلصقون به وبأمه عليهما السلام مالا يليق بعامة الناس فضلا عن نبي كريم بل من أولي العزم من الرسل وأمه الصديقة ، ولكن كيف نعجب وقد سبوا الله تعالى الله عن قولهم قبل ذلك ورموه بالعظائم ، فما أبهتهم من قوم وما أكذبهم ، ولا زلنا نعيش في عدائهم كفى الله المسلمين شرورهم ، وردهم على أعقابهم خاسرين .

******

افتراءات اليهود والنصارى على عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام

لقد افترقت الأمم من بعد عيسى بن مريم عليه السلام فيه على عدة فرق ،ففرقة قالوا بأنه ابن زنى وكذبوه وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعات ، وفرقة ألهوه فجعلوه إلها وابنَ إله وثالث ثلاثة ، وهؤلاء هم النصارى أهل الجهل والضلال ، وأخرى قضت بأنه نبي كريم من أولي العزم من الرسل ، أكرمه الله وجعل له من الخوارق مالم يتم لغيره ، وأن الله رفعه لما هم اليهود بقتله ، وسينزل في آخر الزمن ليقتل الكفار وينشر شريعة محمد عليهما الصلاة والسلام وهؤلاء هم المسلمون .

ولنأتي على افتراءات اليهود فبادئ ذي بدء ، اليهود يعدون أن نبيهم هو موسى بن عمران ويكذبون بكل نبي من بعده ، ولهذا عادوا النصارى وكذبوا نبيهم ، وأكبر فريتين اقترفوهما في حق عيسى عليه السلام أنهم قذفوا أمه بالزنا فجعلوه ابنَ زنا ، وافتخروا بأنهم قتلوا عيسى بن مريم ، وكان من خبر اليهود –عليهم لعائن الله وسخطُه وغضبه وعقابُه–أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله،

ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهَدُ طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسَعَوْا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان –وكان رجلا مشركًا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان–وأنهوا إليه: أن ببيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امتثل مُتَوَلِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر –وقيل: سبعة عشر نفرًا– وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتَدَب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدبُ إلا ذلك الشاب –فقال: أنت هو–وألقى اللهُ عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفُتحَت رَوْزَنَة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنةٌ من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ [وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] } الآية [آل عمران: 55].

فلما رُفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في

البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، وأنه خاطبها ، والله أعلم.

ولقد حكم الله في هذه القضية فقال تعالى –وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون–: { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } وقال (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إليه وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } وفي هذه الآية مع إثباتها عدم قتل عيسى عليه السلام وأنه رفع إلى السماء فيها دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم .

ثم إن المسيح عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شيَعًا من بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابنَ الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورَد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نَبَع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة –التي هي الخيانة الحقيرة–وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصَلّوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى

المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيَّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفارا ، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق –كانوا هم أتباعَ كُلِ نبي على وجه الأرض–إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ما قد حَرّفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته شريعةَ جميع الرسل بما بعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم من الدين الحق، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائما منصورًا ظاهرا على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميعُ الدول، وكسروا كسرى، وقَصروا قيصر، وسلبوهما كُنوزَهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، عز وجل، في قوله: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا } الآية[النور : 65] ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقا سلبوا النصارى بلاد الشام وأَجْلَوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمَّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جدا، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها ، ومن افتراءات النصارى على عيسى

عليه السلام رفعهم له فوق منزلته ، بأن جعلوه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، وبدلا من طاعته عبدوه ، ولقد كفرهم الله بذلك .

افتراءات النصارى على المسيح عليه السلام

لقد افترت النصارى على عيسى بن مريم عليه السلام افتراءات كثيرة حيث إنهم رفعوه لدرجة الألوهية ، ولقد حكى الله أقسامهم في سورة المائدة حيث يقول (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ) ثم هددهم الله بقوله (وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) ثم وعظهم بقوله (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) ثم بين سبحانه القول الفصل في ذلك بقوله (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75)

وبهذا يتبين تفرقهم واختلافهم وذلك في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاث من الملكية واليعقوبية والنَّسطورية تقول بهذه الأقانيم. وهم مختلفون فيها اختلافًا متباينًا ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة.أهـ

ولقد بين سبحانه أن النصارى قد غلوا في دينهم حتى خرجوا منه حيث يقول: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقّ } أي: لا تجاوزوا الحد في إتباع الحق، ولا تُطْروا

من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه عن حَيّز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهًا من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا، { وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال.

وكذلك غلوهم في مريم عليها السلام حيث رفعوها لدرجة الألوهية ، حيث رد عليهم سبحانه بقوله : { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } أي: مؤمنة به مصدقة له. وهذا أعلى مقاماتها فدل على عدم بلوغها لما رفعوها إليه ، بل ليست بنبية كذلك ، كما زعمه بعض أهل هذه الأمة كابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارةَ أمِ إسحاق، ونبوة أمِ موسى، ونبوة أم عيسى استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص: 7] ، قالوا وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيًا إلا من الرجال، قال الله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } [يوسف: 109]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله، الإجماع على ذلك.

وعندما ننفي ذلك عن المسيح وأمه عليهما السلام فلا يعني تنزيلهما عن مرتبتهما التي لهما بل الواجب الاعتدال في ذلك فعيسى هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأمه من الصديقات اللاتي جعل الله لهن من الكرامات التي لم يجعله لغيرها ، ولعلنا نعرج على شيء من المعجزات التي أجراها الله على يديه فمن ذلك خلقه للطير وشفاؤه للمرضى وإخباره ببعض المغيبات كما قال سبحانه أنه يقول للناس (أني أَخْلُق } أي أصور وأقدر { لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ } قرأ أبو جعفر كهيئة الطائر ، والهيئة الصورة المهيأة من قولهم: هيأت الشيء إذا قدرته وأصلحته { فَأَنْفُخ فِيهِ } أي في الطير {

فَيَكُون طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ } قراءة الأكثرين بالجمع لأنه خلق طيرا كثيرا، وقرأ أهل المدينة ويعقوب فيكون طائرًا على الواحد هاهنا. وفي سورة المائدة ذهبوا إلى نوعٍ واحد من الطير لأنه لم يخلق غير الخفاش وإنما خص الخفاش، لأنه أكمل الطير خلقًا لأن لها ثديًا وأسنانًا وهي تحيض. قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا، ليتميز فعل الخلق من فعل الخالق، وليعلم أن الكمال لله عز وجل { وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْـرَصَ } أي أشفيهما وأصححهما، واختلفوا في الأكمه، قال ابن عباس وقتادة: هو الذي ولد أعمى، وقال الحسن والسدي: هو الأعمى. وقال عكرمة: هو الأعمش. وقال مجاهد: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، { وَالأَبْـرَصَ } الذي به وضح، وإنما خص هذين لأنهما داءان عياءان، وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك. قال وهب: ربما اجتمع عند عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفا من أطاق منهم أن يبلغه بلغه ومن لم يطق مشى إليه عيسى عليه السلام وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان.

قوله تعالى: { وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ } قال ابن عباس رضي الله عنهما قد أحيا أربعة أنفس، عازرَ وابنَ العجوز، وابنةَ العاشر، وسامَ بنَ نوح، فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته إلى عيسى عليه السلام: أن أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرةَ ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره، فدعا الله تعالى فقام عازر وودكه يقطر فخرج من قبره وبقي وولد له .

وأما ابن العجوز مُرَّ به ميتًا على عيسى عليه السلام على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره، ونزل عن أعناق الرجال، ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له .

وأما ابنة العاشر كان أبوها رجلا يأخذ العشور ماتت له بنت بالأمس، فدعا الله عز وجل باسمه الأعظم فأحياها الله تعالى وبقيت بعد ذلك زمنا وولد لها . وأما سام بن نوح عليه السلام فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة، ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم، ثم قال له: مت قال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت فدعا الله ففعل.

قوله تعالى: { وَأُنَبِّئُكُمْ } وأخبركم { بِمَا تَأْكُلُونَ } مما لم أعاينه { وَمَا تَدَّخِرُونَ } ترفعونه { فِي بُيُوتِكُمْ } حتى تأكلوه وقيل: كان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكل اليوم وبما ادخره للعشاء.

وقال السدي: كان عيسى عليه السلام في الكتّاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا، ورفعوا لك كذا وكذا، فينطلق الصبي إلى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون: من أخبرك بهذا؟ . فيقول: عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا: ليسوا هاهنا، فقال: فما في هذا البيت؟ قالوا خنازير، قال عيسى كذلك يكونون ففتحوا عليهم فإذا هم خنازير ففشى ذلك في بني إسرائيل فهمت به بنو إسرائيل، فلما خافت عليه أمه حملته على حُمير لها وخرجت هاربة منهم إلى أهل مصر، وقال قتادة: إنما هذا في المائدة وكان خوانا ينزل عليهم أينما كانوا

كالمن والسلوى، وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبؤا لغد فخانوا وخبؤا فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وبما أدخروا منها فمسخهم الله خنازير. ومن ذلك نزول المائدة التي طلبها بنو إسرائيل ،كما قال سبحانه {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (**112**) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (**113**) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ (**114**) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (**115**) }

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: "سورة المائدة". وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة.

وقد ذكر بعض الأئمة أن قصةَ المائدةِ ليست مذكورةً في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ } وهم أتباع عيسى عليه السلام: { يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ } هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: "هل تَسْتَطيع رَبَّك" أي: هل تستطيع أن تسأل ربك { أَنْ يُنزلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ } .

والمائدة هي: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة.

قال: { اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } أي: فأجابهم المسيح، عليه السلام، قائلا لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين.

{ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا } أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها { وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا } إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء { وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا } أي: ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك، { وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } أي: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

{ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأوَّلِنَا وَآخِرِنَا } قال السُّدِّي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن وَمَنْ بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يومًا نصلي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا.

{ وَآيَةً مِنْكَ } أي: دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك { وَارْزُقْنَا } أي: من عندك رزقًا هنيئًا بلا كلفة ولا تعب { وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ } أي: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها { فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } أي: من عالمي زمانكم، كقوله: { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر:46]، وكقوله: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء:145].

وقد رُوِيَت آثار عن السلف في نزول المائدة على الحواريين:

روى أبو جعفر بن جرير في تفسيره بسنده عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يومًا، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له. ففعلوا، ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يومًا، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يومًا إلا أطعمنا حين نَفْرُغ طعامًا، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: { اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن سلمان الخير؛ أنه قال: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة، كره ذلك جدا وقال: اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية، فابتلوا بها حتى كان بَوَارهم فيها. فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: { نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا } الآية.

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، وجبة من شعر، وعباءة من شعر، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته قام قائمًا مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا، فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض

بصره، وطأطأ رأسه خشوعًا، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله فقال: { اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ } فأنزل الله عليهم سُفْرَة حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم، وعيسى يبكي خوفًا للشروط التي اتخذها الله عليهم –فيها: أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين –وهو يدعو الله من مكانه ويقول: اللهم اجعلها رحمة،إلهي لا تجعلها عذابًا، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني، إلهي اجعلنا لك شَكَّارين، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبًا وجزاء، إلهي اجعلها سلامة وعافية، ولا تجعلها فتنة ومثلة.

فما زال يدعو حتى استقرت السُّفْرة بين يدي عيسى، والحواريين وأصحابه حوله، يَجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط، وخَرَّ عيسى والحواريون لله سجدًا شكرًا بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمرًا عجيبًا أورثهم كمدًا وغمًا، ثم انصرفوا بغيظ شديد وأقبل عيسى. والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، ، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ أنزلت من السماء، لم ينتقص منها شيء، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون،

وقد قال قائلون: إنها لم تنزل. فروى لَيْث بن أبي سليم، عن مجاهد في قوله: { أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ } قال: هو مثل ضُرب، ولم ينزل شيء.

رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وروى ابن جرير بسنده عن الحسن؛ أنه قال في المائدة: لم تنزل.

وبسنده قال : كان الحسن يقول: لما قيل لهم: { فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل.

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا، ولا أقل من الآحاد، والله أعلم. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله تعالى: { إِنِّي مُنزلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق.

وهذا القول رجحه كذلك ابن كثير في تفسيره ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيرًا لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة. ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود، عليهما السلام، فالله أعلم.

****

غزوة بدر

جاء ذكر غزوة بدر في سورة آل عمران وترتيبها في القرآن بعد قصة عيسى عليه السلام حيث يقول الله سبحانه (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (**123**) الآيات

ولقد كان ذكر غزوة أحد قبل غزوة بدر حيث يقول قبل هذه الآية {{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ والله سميع عليم } ولكن سنتحدث أولا عن غزوة بدر للتسلسل التاريخي ولتعاقبهما في الآيات مباشرة وفي نفس السورة وقوله: { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } أي: يوم بدر، وكان في جمعة وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغَ فيه الشرك وخرَّب مَحِله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم فرسان وسبعُون بعِيرا، والباقون مُشاة، ليس معهم من العَدَد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبَيَّضَ وَجْه النبي وقبيله، وأخْزى الشيطان وجيله ولهذا قال تعالى -مُمْتَنا على عباده المؤمنين وحِزبه المتقين: { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } أي: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا } فبين سبحانه أن الكثرة والقلة ليست السبب الحقيقي للنصر وهذا ما قاله عمر لأصحابه كما أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عِياض الأشعري قال: شهدتُ الْيَرْمُوك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حَسَنَة، وخالد بن الوليد، وعياض ، قال: وقال عمر، رضي الله عنه: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تَسْتَمِدُّونَني وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا، وأحصن جندًا: الله عز وجل، فاستنصروه، فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد نُصر يومَ بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ، قال: وأصبنا أموالا فتشاورنا،

فأشار علينا عياض أنْ نُعْطِيَ عن كل ذي رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة : من يراهني؟ فقال شاب: أنا، إن لم تَغْضَبْ. قال: فسبقه، فرأيت عَقِيصَتَيْ أبي عُبَيدة تَنْقزان وهو خَلْفه على فرس عُرْي .

وبهذا رسخ في قلوب الصحابة رضي الله عنهم أن النصر من الله وأن العدد لا يغني في الحرب شيئا إلا بإذن الله .

وكان مبدأ الغزوة أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع بقدوم أبي سفيان من الشام في قافلة فيها أموال قريش ، فقال قوموا إليهم عسى الله أن ينفلكموها ، وكان قصد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستردوا أموالهم التي أخذها كفار قريش ممن هاجر وترك ماله وداره وولده ، فخرج وخرجوا معه وكان أغلبهم الشباب ،ولم يستعدوا لحرب لأنهم يعترضون قافلة لا تحتاج لقتال ، فقد كان أكثرهم مشاة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدا القافلة ، وكان أبو سفيان يسير بحذر ويسأل عن الأخبار التي أمامه خشية من الرصد ، حتى بلغه مقصد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل النذير إلى أهل مكة أن أدركوا أموالكم ، فخرجوا حنقين ولم يتخلف أحد إلا أرسل مكانه من ينوب عنه ، وغير أبو سفيان طريق القافلة فأخذ بهم طريق الساحل حتى أمن أبو سفيان على سلامة القافلة وبعدها أرسل الى زعماء قريش وهو بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة الى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها وقد انشق بنو زهرة ، وتخلف في الأصل بنو عدي فعاد بنو زهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت بدر .

و لما بلغ النبي– صلى الله عليه وسلم – نجاة القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي – صلى الله عليه وسلم –استشار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصحابه في الأمر ، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش حيث أنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عموماً في قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } (الأنفال، الآيات**5**–**8**) وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو وكان للمقداد بن الأسود موقفاً متميزاً، فقد قال عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه –: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدِلَ به :أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: { اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّاهَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة ، **24**). ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك.

فرأيت الرسول أشرق وجهه وسره .

وبعد ذلك عاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: (أشيروا عليَّ أيها الناس) وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول – صلى الله عليه وسلم – خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي – صلى الله عليه وسلم – من

ذلك فنهض قائلاً: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال – صلى الله عليه وسلم – (أجل)، قال: (لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضي يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ماتخلف منا رجل واحد، ومانكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر على بركة الله) .

فسُرّ النبي – صلى الله عليه وسلم – من مقالة سعد بن معاذ ونشطه ذلك فقال – صلى الله عليه وسلم –: (سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم) . كانت كلمات سعد مطمئنة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال ، ولعل من أهم الفوائد فيما مضى مبدأ الشورى فإن حرص النبي على استشارة أصحابه في الغزوات مع أنه مؤيد بالوحي من الله ليدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات، ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء

.

فلما اطمأن النبي صلى الله عليه وسلم على عزم أصحابه خصوصا الأنصار ،نظم النبي – صلى الله عليه وسلم – جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلّمه الى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة وقام – صلى الله عليه وسلم – ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله – صلى الله عليه وسلم

– عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه – صلى الله عليه وسلم – من أخبارهم: فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إذا أخبرتنا أخبرناك فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: نعم. فقال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا –للمكان الذي به جيش المسلمين– وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا –للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً– ثم قال الشيخ: لقد أ خبرتكما عما أردتما، فأخبراني: ممن أنتما؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: نحن من ماء. ثم انصرف النبي – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق .

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر ، أرسل عليه الصلاة والسلام عليّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقال لهما: أخبراني عن جيش قريش، فقالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ماعدتهم؟ قالا: لاندري. قال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: كم ينحرون كل يوم؟ قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (القوم ما بين التسعمائة والألف) فقال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أصحابه قائلاً: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها) .

وبعد أن جمع – صلى الله عليه وسلم – معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء بدر من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يارسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يارسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم – أي جيش المشركين– فننزله ونغوِّر –نخرب– ماوراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار ، وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول مايترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله، هذا وإن كان في إسناد هذه القصة نظرا إلا أن بعض أهل العلم حسنها

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول – صلى الله عليه وسلم –.

يارسول الله ، أرايت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

**

إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

وعلى العكس من صورة هذا الجيش المتواضع المتحد نجد أن الله أخبرنا عن جيش المشركين وما فيه من النزاع قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (سورة الأنفال، آية **47**).

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبي أن المقصود بالآية (يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني – وكان صديقاً لأبي جهل– بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال وإن شئت أمددتك بنفسي مع ماخف من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله مالنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لانرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب، بمخرجنا فتهابنا آخر الآبد. فوردوا بدراً ولكن جرى ماجرى من هلاكهم) أهـ .

وبين سبحانه وتعالى موقف المشركين لما قدموا إلى بدر قال تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} (الأنفال، آية **19**).

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم –في بدر– : اللهم اقطعنا للرحم، وآتانا بما لانعرفه فأحنه – أي أهلكه– الغداة. فكان المستفتح .

ولما وصل جيش مكة إلى بدر دبّ فيهم الخلاف وتزعزت صفوفهم الداخلية، فعن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: (لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر فقال إن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا وهو يقول ياقوم أطيعوني في هؤلاء القوم فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسي وارجعوا فقال أبو جهل:

انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه إنما محمد وأصحابه أكلة جزور لو قد التقينا.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي وكأن وجههم السيوف...) .

وهكذا دب الخلاف بين المشركين قبل بدء المعركة فكان علامة على الهزيمة .

ومن صور الخلاف بين المشركين الظاهرة لما أن أرسلت قريش عمير بن وهب الجمحي ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني انظر أللقوم كمين أو مدد، قال فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَ شيئاً، فجاءهم وقال لم أرى لهم كمين ولا مدد ولكن قد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة

إلا سيوفهم، والله ماأرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم ؟

وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداءً خوفاً من الموت، فأتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني ، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يأم صفوان جهزيني.

فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ماقال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له سمعت رسول الله يقول إ نهم لقاتلوك .

قال: لا –ماأريد أن أجوز معهم إلا قريباً فلما خرج أمية أخذ لايترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر .

لقد كانت القوة المعنوية لجيش مكة متزعزعة في النفوس، وإن كان مظهره القوة والعزم والثبات إلا أن في مخبره الخوف والجبن والتردد .

ولقد كان لرؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب أثر على معنويات أهل مكة فقد رأت في المنام أن رجلاً استنفر قريشاً، وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة فتفتتت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة فسكنت مكة وتأولت الرؤيا ، كما أن جهيم بن الصلت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجحفة، فقد رأى رجل أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له؛ ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالاً من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب

في لَبَّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه، فلما بلغت أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضاً نبي من بني المطلب، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا ، كانت تلك الرؤى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى في إضعاف النفسية القرشية المشركة.

أما بالنسبة لموقع الجيشين فقد بينهما الله تعالى في كتابه كما قال تعالى {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} (سورة الأنفال، آية **42**). هذه الآيات الكريمة توضح الأماكن في غزوة بدر وصور لنا –سبحانه وتعالى– الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة، وكانت أرضه رخوة تغوص فيها الأقدام، ولم يكن هناك ماء، وكان الكفار بالجانب الآخر من الوادي –الأبعد– من المدينة وكانت أرضه ثابتة، وكان فيها ماء، وكان ركب العير الذي يقوده أبوسفيان {أَسْفَلَ مِنْكُمْ} بالقرب من ساحل البحر .

فقد ذكر المولى عز وجل المؤمنين بنعمته عليهم فقال: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} أي اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة فسرتم حتى كنتم {بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} أي بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة المنورة {وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} أي والكفار بالجانب الأبعد الأقصى الذي هو بعيد بالنسبة للمدينة {وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} أي وعير أبي سفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بعد ثلاثة أميال منكم.

وفي الآيات تصوير ما دبر – سبحانه – من أمر غزوة بدر، ليقضي أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وأقلق قريشاً مابلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم ، فنفروا ليمنعوا عيرهم، وسبّب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى وراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ماكان . وقوله تعالى {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا} بيان لتدبير الله الحكيم، وإرادته النافذة أي ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك لاختلفتم في الميعاد لكراهتكم للحرب على قلتكم وعدم إعدادكم شيئاً من العدة لها، وانحصار همكم في أخذ العير، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا يأمنون نصر الله له لأن كفر أكثرهم به كان عناداً أو استكباراً لا اعتقاداً .... {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا} أي ولكن تلاقيتم هنالك على غير موعد ولا رغبة في القتال ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه وحكمته أنه واقع لابد منه وهو القتال المفضي إلى خزيهم ونصركم عليهم وإظهار دينه وصدق وعده لرسوله كما تقدم .

وقوله: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

و بعد نزول النبي والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بناء عريش له يكون مقراً لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى

جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك، أقوام، يا نبي الله، مانحن بأشدَّ لك حبَّا منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك) فأثنى النبي – صلى الله عليه وسلم – خيراً ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – على تلِّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر – رضي الله عنه –، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

هذا ولقد منّ الله على عباده المؤمنين يوم بدر بمنن عظيمة منها أنه أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم قال تعالى {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} (سورة الانفال، آية **11**). قال القرطبي : (وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم.

وعن علي – رضي الله عنه – قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، سوى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت شجرة يُصلي حتى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد .

الثاني: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: الأمن منيم، والخوف مسهر .

وبيّن سبحانه وتعالى –أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نـزول الأمطـار وذلـك فضـلاً منـه وكرمـاً، وإسـناد هـذا الإنـزال إلى الله للتنبيـه علـى أنـه أكرمهم به.

فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب .

ولما كـان – صـلى الله عليـه وسـلم – يعـدل الصـفوف ويقـوم بتسـويتها لكـي تكـون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية وقد خرج من الصف فطعنه – صلى الله عليه وسلم – في بطنه وقال له: استو يا سواد. فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن بطنه وقال: استقد، فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد، قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بخير . وكان – صلى الله عليه وسلم – وهو يصف أصحابه يحثّهم على القتال ويحرضهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} (سورة الأنفال:**65**).

ومن الحث قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ (كلمة تعجب)

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ما يحملك على قولك: بخ بخ؟

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: فإنك من أهلها.

فأخرج ثمرات من قرنه(جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .

وفي رواية قال: قال أنس: فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد #إلا التقى وعمل المعاد# والصبر في الله على الجهاد# وكل زاد عرضة للنفاد# غير التقى والبر والرشاد.

فقاتل رحمه الله حتى استشهد ، ومن صور التعبئة المعنوية أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمين كان يحدد مكان كل واحد منهم ، كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال فيقول: أبشر أبا بكر. ووقف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول للصحابة رضوان الله عليهم: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

وقد أثرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم والذين جاءوا من بعدهم بإحسان.

وكان – صلى الله عليه وسلم – يطلب من المسلمين أن لا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس رضي الله عنه قال:(.. فانطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :(لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون دونه) ، فدنا المشركون فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)

ومن وسائل تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهي كذلك من وسائل التربية ، دعاؤه صلى الله عليه وسلم قبل الحرب كما قال تعالى:{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} (الأنفال:9). لما نظم – صلى الله عليه وسلم – صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه واتجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً) ومازال – صلى الله عليه وسلم – يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول:يارسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك وأنزل الله عزوجل :{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} وفي رواية ابن عباس قال:قال النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر:(اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد) فأخذ أبو بكر بيده، فقال:حسبك الله، فخرج – صلى الله عليه وسلم – وهو يقول:(سيهزم الجمع ويولون الدبر)

وروى ابن إسحاق: أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني) .

وبعد أن دعا – صلى الله عليه وسلم – ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش، فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين وقال:(شاهت الوجوه)، ثم أمر – صلى الله عليه وسلم – أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصاء إلى أعين المشركين فلم يبقى أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال

الله تعالى:{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} (الأنفال:17). ثم اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أرجعهم لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك قال – صلى الله عليه وسلم –: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، ويقال أن كفار قريش لما برز لهم الأنصار قالوا لهم أنتم أكفاء ولكن نريد بني عمنا ،وبارز حمزة شيبة فقتله وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرّ حمزة وعلي على عتبة فقتلوه، وحملا عبيدة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكن ما لبث أن استشهد متأثراً بجراحه ، وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى:{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ } (سورة الحج، آية:19–24). ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضباً وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي – صلى الله عليه وسلم – وكان شعار المسلمين: أحد أحد. ثم أمرهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بالهجوم المضاد محرضاً لهم على القتال وقائلاً لهم (شدوا) و واعداً من يقتل صابراً محتسباً بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي – صلى الله عليه وسلم – {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} (سورة القمر، آية:45) وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين .ومن العوامل المثبتة للصحابة في القتال رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان – صلى الله عليه وسلم – قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان رأى المشركين، وعددهم قليل، وقد قصّ رؤياه على أصحابه فاستبشروا

خيراً قال تعالى: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (الأنفال، آية:**43**). المعنى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رآهم – أي رأى المشركين – في منامه قليلاً فقصّ ذلك على أصحابه فكان ذلك سبباً لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الرؤيا في المنام {وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ} أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقصّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيتٌ لهم وتشجيعا وجرأةً على عدوهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلاً، قال تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}(سورة الأنفال، آية: **44**) وإنما قللهم في أعين المسلمين تصديقاً لرؤيا النبي – صلى الله عليه وسلم –، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقيناً ويجدّوا في قتالهم ويثبتوا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً. وقوله تعالى:{ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} حتى قال قائل من المشركين إنما هم أكلة جزور. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن رؤية المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبتهم ونشطهم وجرأهم على قتال المشركين ، ونزع الخوف –من قلوب المسلمين– من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على قتالهم غير خائفين ولامبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلاً تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتكسر شوكتهم

حين يرون مالم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم .

ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى:

{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} (الأنفال، آية:**12**).

وأورد البخاري ومسلم والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم عدداً من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، و قيامهم بضرب المشركين وقتلهم . فعن ابن عباس رضي الله عنه قال:(بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم . فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال:(صدقت) ذلك مدد من السماء الثالثة (مسلم في الجهاد (**1763**)). و أخرج البخاري (**3995**)من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: (إن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال يوم بدر:"هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب"من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: (إن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال يوم بدر:"هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب". من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:(فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبدالمطلب أسيراً، فقال العباس: يارسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يارسول الله فقال:(أسكت فقد أيدك الله بملك كريم) ،

ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري) . إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لاشك فيه، وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل مايكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ماحصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل مايمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معانون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال ولاشك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا مادلت عليه الآيات، وصرحت به الأحاديث النبوية

.

وقد يسأل سائل ماالحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحداً من الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

والجواب أن هذا من قدر الله السائر وهو أن العباد لابد وأن يجتهدوا في طلب النصر ، وأن فعلهم من أسباب النصر وأنه يجب أن يعملوا بالأسباب التي سنها الله في الحياة ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ولكن كل شيء له سبب

فسنة الحياة اعمل حتى أساعدك ولا تهمل فأكلك لنفسك .

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين

أربعة عشر رجلاً، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار ولما تم الفتح وانهزم المشركون، أرسل – صلى الله عليه وسلم – عبدالله بن رواحة، وزيد بن حارثة، ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين .

ومكث – صلى الله عليه وسلم – في بدر ثلاثة أيام ، فعن أنس رضي الله عنه قال:(أنه – صلى الله عليه وسلم – كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة ليال...) ولعل الحكمة في ذلك: –تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارّين هرباً إلى الجبال.

ولقد كانت هي عادة العرب قديما ليسمع بهم بقية الأعداء فيهابوهم ، وليعلموا أنهم لا زال بهم قوة ،ولم يكونوا كالفرحين بانتهاء المعركة ليفروا .

وفي هذا الوقت تم دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة ولم يرد مايشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر .

وكذلك قاموا بجمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبدالله بن كعب الأنصاري، أحد بني مازن .

وكانت هذه الثلاثة أيام فرصة يستروح فيها الجيش ، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ماكان من أحداث ومفاجآت في الموقعة مما كان له أثر فعّال في استجلاب النصر، وماكان من فلان في شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق

وتفريج الأزمات، وماتكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، ومافي ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

وكان من فوائد جلوس النبي صلى الله عليه وسلم في أرض المعركة بعد النصر ثلاثة أيام ،القيام بعملية مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه إتقاء شره في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإلقاء هؤلاء الأخباث في ركيّ من قُلُب بدر خبيث مخبث ثم وقف على شفة الركيّ وخاطبهم بخطاب المؤنب اللائم ، فقد أخرج البخاري من حديث أبي طلحة الأنصاري، قال : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش، فجروا بأرجلهم فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث بعضهم على بعض.

إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملاها، فذهبوا يحركوه فتزايل فأقروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي

فجعل ينادي بأسمائهم وأسماء آبائهم وقد جيفوا : يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة ، أيسر كم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ قال: فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، وهل يسمعون؟ يقول الله عزوجل: إنك لا تسمع الموتي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، والله إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم لهو الحق ، وفي رواية، إنهم الآن ليسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا، قال قتادة: أحياهم الله له حتى أسمعهم قوله، توبيخا وتصغيرا، ونقمة، وحسرة وندما ".

أقول وهذه من خصوصياتهم وإلا فالصحيح أن الموتى لا يسمعون إلا ماورد به الدليل كقرع النعال ، وهذا ما تفتي به اللجنة الدائمة للإفتاء في االمملكة العربية السعودية برئاسة شيخنا ابن باز عليه رحمات الله .

ومن الأحداث التي لا تنسى في هذه المعركة ما رواه البخاري في صحيحه من قول عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه إذ يقول :بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال:قلت: نعم وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال:أخبرت أنه يسب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، والذي نفسي بيده لئن رأيته لايفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثالها. قال: فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال:فابتدراه

بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: كلاكما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء ، وفي حديث أنس قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر:(من ينظر ماصنع أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه أبناء عفراء حتى برد ، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه ، وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:(أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت:أي عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: وبما أخزاني؟من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولايحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته، فقال:(الله الذي لا إله إلا هو).

قلت:الله الذي لا إله إلا هو.

قال: فانطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : انطلق فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه – صلى الله عليه وسلم – قال:(هذا فرعون هذه الأمة) .

ولنتأمل قصة معاذ ومعوذ في قتل أبي جهل فقد كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ماسمعاه من أنه كان يسب رسول الله – صلى الله عليه وسلم

-، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وماجرى بين عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته ، فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعي الغنم . وقد أخرج البخاري في صحيحه (**2301**) قال قال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبدعمرو. فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزَه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال:أمية بن خلف لانجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا – وكان رجلاً ثقيلاً – فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجللوه ، بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه .

ومن المواقف العظيمة ما قصه الزبير بن العوام رضي الله عنه وهو في البخاري ، المغازي رقم (**3998**). قال : لقيت يوم بدر عبيد بن سعيد بن العاص وهو مدجج لايرى منه

إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه فطعنته في عينه فمات، قال هشام، فأخبرت أن الزبير قال:(لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها). قال عروة: فسأله إياها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأعطاه، فلما قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاها، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبدالله بن الزبير، فكانت عنده حتى قتل .

رحمهم الله ورضي عنهم ، وأسكنهم فسيح جناته وقد فعل .

ومن المواقف المضيئة في غزوة بدر ماقال ابن إسحاق: حيث يقول قبل بدء المعركة خرج الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبدالمطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ ، قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تَشْخُب رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يُبرّ يمينه وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

وقد أخرج الحاكم في مستدركه أن أمية بن خلف سأل عبدالرحمن بن عوف عن الرجل المُعْلَمَ بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبدالرحمن، ذاك حمزة بن عبدالمطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلا وتشريداً . وكان هذا أول من قتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين،

فتصدى له بطل الإسلام حمزة فقضى عليه ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درساً في الصميم .

ومن المواقف أيضا ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقالت: يارسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني ، فإن يكن في الجنة أصبر، وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: (ويحك –أوهبلت– أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس ، وفي رواية: يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

ومن المواقف أيضا ما رواه ابن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: (أن عوف بن مالك وهو ابن عفراء ، قال: يارسول الله مايضحك الرب من عبده؟ قال: غمْسة يده في العدو حاسراً فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة وحرصهم على رضوان الله تعالى ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم .

ومن المواقف أيضا ما ذكره الحافظ ابن حجر قال : قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه: يابني

آثرني اليوم، فقال سعد: ياأبت لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد .

لما سار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بدر وعرض عليه جيش بدر فرد عمير بن أبي وقاص فبكى عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لايراه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر يتوارى فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيستصغرني ويردني وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة وقد استشهد بالفعل.

أخي القارئ هذه غزوة بدر أعظم غزوة في الإسلام بها فرق الله بين الحق والباطل ، وبها رفع الله شأن الدولة الإسلامية الفتية ، وقهر دولة الكفر المتكبرة وكسر شوكتها ، ولقد أكرم الله من حضرها من المسلمين ، كما أكرم من حضرها من الملائكة كما أخرج البخاري في صحيحه من حديث رفاعة بن رافع الزرقي – وكان من أهل بدر – – رضي الله عنه – قال : «جاء جبريل عليه السلام إلى النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– ، فقال : ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ قال :من أفضل المسلمين – أو كلمة نحوها – قال:وكذلك من شهد بدرا من الملائكة».

ومن فضلها أن الله قد غفر لمن شهدها ماتقدم من ذنوبه وما تأخر ، وهذا واضح جلي في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطبًا هذا كان رجلا من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضًا، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفًا لعثمان. فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: "اللهم، عَمِّ عليهم

خبرنا". فعمد حاطب هذا فكتب كتابًا، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يدًا، فأطلع الله رسوله على ذلك استجابة لدعائه. فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها، وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته.

وروى الإمام أحمد من حديث علي رضي الله عنه، يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد، فقال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظَعِينة معها كتاب، فخذوه منها". فانطلقنا تَعَادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجن الكتاب أو لنُلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عِقَاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا حاطب، ما هذا؟". قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأ مُلصَقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه صَدَقكم". فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: "إنه قد شهد بدرًا، ما يدريك لَعَلّ الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". وقال عمر: بلى، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، إني بما تعملون بصير". ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم

******

قصة غزوة أحد

غزوة أحد هي من الغزوات التاريخية التي قدر الله فيها حوادث أصبحت نبراسا للأمة من بعدها ، وقد وقعت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث.

قال محمد بن إسحاق قال: وكان من حديث أحد كما حدثني محمد بن مسلم بن عبيدة الله الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا كل قد حدثني بعض الحديث عن يوم أحد، فاجتمع حديثهم كله فيما سقت من هذا الحديث عن يوم أحد، قال: لما أصيبت قريش؛ فرجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر وكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير تجارة فقالوا: يا معاشر قريش إن محمداً قد قتل رجالكم وخياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرنا بما أصاب منا؛ ففيهم فيما ذكر لي بعض أهل العلم أنزل الله " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون " .

فلما فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب تلك العير أجمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحابيشها ومن أطاعهم من قبائل بني كنانة وأهل تهامة، كل أولئك قد

استغووا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أبو عزيز بن عمرو بن عبد الله الجمحي قد من عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهده أن لا يظاهر عليه، فأجمعت قريش السير إلى أحد، قال صفوان بن أمية: يا أبا عزيز إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك واخرج معنا، فقال: إن محمداً قد من علي، ولا أريد أن أظاهر عليه أحداً، قال: بلى فأعنا بنفسك، فلك إن رجعت أن أغيثك، فإن أصبت أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزيز يسير في تهامة يدعو بني كنانة يقول:

يا بني عبد مناه الزرام ... أنتم بنو الحرب ضرابوا الهام

أنتم حماة وأبوكم حام ... لا تعدوني نصركم بعد العام

لا تسلموني لا يحل إسلام، ثم دعا جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف غلاماً له يقال له وحشي، وكان حبشياً يضرب بحربة له قذف الحبشة قل ما يخطئ بها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت عم محمد – يعني حمزة – بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق – وكان طعيمة قتله الله يوم بدر – فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا بالظعن التماس الحفيظة لئلا يفروا، فخرج أبو سفيان وهو قائد الناس معه بهند ابنة عتبة بن ربيعة، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة ابنة مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية وهي أم عبد الله بن صفوان؛ وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منية بن الحجاج وهي أم عبد الله بن عمرو، وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت: أبا دسمة اشف واشتف، وكان وحشي يكنى بأبي دسمة، فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم للمسلمين:إني قد رأيت نفراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة. فتأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث قد نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

ونزلت قريش منزلها بأحد يوم الأربعاء فأقاموا بها ذلك اليوم، ويوم الخميس ويوم الجمعة، وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلاة الجمعة فأصبح بالشعب من أحد، فالتقوا يوم السبت في النصف من شوال سنة ثلاث، وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى رأيه في ذلك " ألا يخرج إليهم " ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين، ممن أكرمهم الله بالشهادة يوم أحد، وغيرهم ممن كان فاتته بدر وحضروه: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم أو ضعفنا، قال عبد الله بن أبي سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤا، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من فوقهم فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له مالك بن عمرو أحد بني النجار، فصلى عليه رسول الله ثم خرج وقد نام الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله استكرهناك، اقعد، ولم يكن لنا ذلك صلى الله عليك، فقال: رسول الله عليه السلام: لا ينبغي إذا النبي لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول الله في ألف من أصحابه حتى إذا كان بالشرط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، والله ما ندري على ما نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، ثم رجع بمن

 **

معه من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون، فلما استصعبوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغنني الله عنكم، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلك حرة بني حارثة فذب فرس بذنبه فأصاب سيفا فاستله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل لصاحب السيف: شم سيفك فإني أرى أن السيوف ستسل اليوم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: من رجل يخرج بنا على القوم من كثب – أي قريب – من طريق لا يمر بنا عليهم؟ فقال أبو خيثمة، أخو بني حارثة بن الحارث: أنا رسول الله فنفذ به في حرة بني حارثة، وبين أموالهم حتى يسلك به في مال لربعي بن قيطس، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فلما حس برسول الله ومن معه قام يحثو في وجوههم التراب وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر لي أنه أخذ حفنة من تراب بيده ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه فقال لهم: هذا الأعمى، أعمى القلب والبصر، وقد بدر إليه سعد أخو بني عبد الأشهل قبل نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربه بالقوس في رأسه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه حتى نزل بالشعب من أحد من عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتل أحد حتى نأمره بالقتال؛ وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع كانت بالصمغة من قناة، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال: أترعى زروع بني قيلة ولما تضارب؟! وتعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال في سبع مائة رجل، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد

بن الوليد، على ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة وهم خمسون رجلاً عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف، وهو يومئذ معلم بثياب بياض وأكد عليهم بعدم النزول ،حيث قال لأميرهم عبد الله بن جبير انْضَحْ الْخَيْلَ عَنّا بِالنّبْلِ ، لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا ، إنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا ، فَاثْبُتْ مَكَانَك لَا نُؤْتَيَنّ مِنْ قِبَلِكِ وَظَاهَرَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ وَدَفَعَ اللّوَاءَ إلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، أَخِي بَنِي عَبْدِ الدّارِ وَأَجَازَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمئِذٍ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ الْفَزَارِيّ وَرَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ ، أَخَا بَنِي حَارِثَةَ وَهُمَا ابْنَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَكَانَ قَدْ رَدّهُمَا ، فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ إنّ رَافِعًا رَامٍ ، فَأَجَازَهُ فَلَمّا أَجَازَ رَافِعًا ، قِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنّ سَمُرَةَ يَصْرَعُ رَافِعًا ، فَأَجَازَهُ وَرَدّ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ، أَحَدَ بَنِي مَالِكِ بْنِ النّجّارِ وَالْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ، أَحَدَ بَنِي حَارِثَة ، وَعَمْرَو بْنَ حَزْمٍ ، أَحَدَ بَنِي مَالِكِ بْنِ النّجّارِ وَأُسَيْدَ بْنَ ظُهَيْرٍ ، أَحَدَ بَنِي حَارِثَةَ ثُمّ أَجَازَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً . قَالَ ابْنُ إسحاق : وَتَعَبّأَتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ رَجُلٍ وَمَعَهُمْ مِئَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَبُوهَا ، فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنَةِ الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهَا عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ .

ومن المواقف التي لا تنسى موقف أبي دجانة رضي الله عنه فقد روى مسلم عن أنس والطبراني عن عبادة بن النعمان، قالوا: عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا يوم أحد، فأخذه رجال فجعلوا ينظرون إليه – وفي لفظ: فبسطوا أيديهم – كل إنسان يقول: أنا، فقال: " من يأخذه بحقه ؟ " فأحجم القوم، فقام رجال فأمسكه عنهم .

وعند ابن عتبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرضه طلبه منه عمر، فأعرض عنه، ثم طلبه الزبير فأعرض عنه، فوجدا في أنفسهما من ذلك.

وعند إسحاق بن راهويه عن عمرو بن يحيى المازني أن الزبير طلبه ثلاث مرات كل ذلك يعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعند الطبراني عن قتادة بن النعمان: أن عليا قام فطلبه فقال له: اجلس، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من يأخذه بحقه ؟ " فقام إليه أبو دجانة – بضم الدال المهملة وبالجيم والنون – فقال: يا رسول الله، وما حقه ؟ قال: " أن تضرب به في العدو حتى ينحني ".

قال: أنا أخذه يا رسول الله بحقه.

قال: " لعلك إن أعطيتكه تقاتل في الكيول " فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب، وكان له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب، يعتصب

بها، فإذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، فقالت الانصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت.

وهكذا كانت تقول إذا اعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه يتبختر: " إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن ".

قال الزبير: ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف لأبي دجانة وجدت في نفسي حين سألته فمنعني وأعطاه إياه، وقلت: أنا ابن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع به، فاتبعته، فخرج وهو يقول: أنا الذي عاهدني خليلي * ونحن بالسفح لدى النخيل ألا أقوم الدهر في الكيول * أضرب بسيف الله والرسول قال: فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه

وفتكه، وفلق به هام المشركين، وكان إذا كل شحذه بالحجارة، ثم يضرب به العدو كأنه منجل، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا ذفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله تعالى أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

قال ابن عقبة: قال كعب بن مالك: وخرج رجل من المشركين نحو المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم، وإذا رجل من المسلمين قائم ينتظره وعليه لامته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر بنظري، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة، قال: فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف، فبلغت وركيه وانفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة.

قال الزبير: ثم رأيته حمل على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت له: كل سعيك رأيته فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة، قال: إنها نادت: يا لصخر ! فلم يجبها أحد، وفي لفظ: رأيت إنسانا يحمش الناس حمشا شديدا فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول.

فإذا امرأة فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لا ناصر لها، فقلت: الله ورسوله أعلم.

وذكر ابن إسحاق في رواية يونس والزبير بن بكار أن رجلا من المشركين خرج فدعا إلى البراز، فأحجم عنه الناس، حتى دعا ثلاثا وهو على جمل له، فقام إليه الزبير بن العوام فوثب حتى استوى معه على بعيره، فعانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: " الذي يلي حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك ".ووقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: " إن لكل نبي حواريا، وإن حواريّ الزبير " وقال: " لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه لما رأى من إحجام الناس عنه " أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (**2997**) ،.

كانت الحرب قد حميت بين المسلمين والكفار في تلك المعركة العظيمة غزوة أحد فقد أبلى أبو دجانة الأنصاري، وطلحة بن عبيدالله، وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن النضر، وسعد بن الربيع، بلاء شديدا. وأبلى جميع الصحابة كذلك حتى أنزل الله تبارك وتعالى نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوا المشركين بالسيف حتى كشفوهم عن العسكر، ونهكوهم قتلا، وقد حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تنضح بالنبل فترجع مفلولة، وكانت الرماة تحمي ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل، فلا يقع إلا في فرس أو راجل، فتولي هوارب، وقال عمر بن الخطاب يوم أحد لأخيه زيد بن الخطاب: يا أخي، خذ درعي هذه، فقال له: إني أريد من الشهادة مثل ما تريد، فتركاها جميعا، رواه أبو نعيم.

ولما اشتد القتال يومئذ جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار، وأرسل إلى علي بن أبي طالب أن قدم الراية، فتقدم علي وقال: أنا أبو القصم، وصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين : من يبارز ؟ فلم يبرز إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم في الجنة، وقتلانا في النار، كذبتم، واللات لو تعلمون إن ذلك حق لخرج إلي بعضكم، فبرز إليه علي بن أبي طالب فالتقيا بين الصفين فبدره علي فصرعه، ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه ؟ فقال: إنه استقبلني

بعورته فعطفني عليه الرحم، وعرفت أن الله تعالى قد قتله، وكان قتل صاحب لواء المشركين تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كأني مردف كبشا "، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأظهر التكبير وكبر المسلمون، وشدوا على المشركين يضربونهم حتى اختلت صفوفهم.

وصار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتائب متفرقة فحاسوا العدو ضربا حتى أجهضوهم عن أثقالهم، فحمل لواءهم أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب [فضبه بالسيف على كاهله] فقطع يده ورجله حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره فقتله، فحمله أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص، فأصاب حنجرته، فدلع لسانه، فقتله، فحمله مسافع بن طلحة [بن أبي طلحة] فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله، فحمله الحارث بن طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله، كلاهما يشعره سهما فيأتي أمه سلافة فيضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بني: من أصابك ؟ فيقول: سمعت رجلا رماني يقول: خذها وأنا ابن الأقلح، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر،وجعلت لمن جاء به مائة من الإبل، فحمل اللواء كلاب بن طلحة بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام، وقيل: قزمان، فحمله الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة – وهو بضم الجيم وتخفيف اللام وفي آخره سين – فقتله طلحة بن عبيدالله، فحمله أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبي طالب، فحمله شريح بن قارظ ، فقتل وليس يدري من قتله، فحمله أبو زيد بن عمير بن عبد مناف بن هاشم بن عبد الدار فقتله قزمان، فحمله قاسط بن شرحبيل بن هاشم بن عبد الدار فقتله قزمان أيضا فحمله صؤاب – غلام لهم حبشي – فقالوا: لا نؤتين من قبلك فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بشماله فقطعت، فالتزم القناة بصدره وعنقه وقال: اللهم هل

أعززت ؟ فقالوا: نعم، فرماه قزمان فقتله، وهو أثبت الاقاويل، فتفرق المشركون، فأخذت اللواء عمرة بنت علقمة الحارثية فأقامته فثابوا عليه، وفي لفظ: لاثوا به.

ولما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون يقتلونهم حيث شاؤوا، حتى أجهضوهم عن العسكر.

قال الزبير بن العوام، والبراء بن عازب: لقد رأيتنا ننظر إلى خدم هند بنت عتبة، وصواحبها مشمرات هوارب يرفعن عن سوقهن، حتى بدت خلاخلهن، وانهزم القوم ما دون أخذهن قليل ولا كثير، وكانت الهزيمة لا شك فيها، ودخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه.

وأوشكت الغزوة على النهاية بنصر المسلمين نصرا مؤزرا ، ولكن لما سبق في علم الله أنه يبتلي المؤمنين بالهزيمة ليأخذوا الدروس من ذلك ، وذلك أنه لما رأى أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة ما حصل للمشركين قالوا: أي قوم، الغنيمة الغنيمة، لم تقيمون هاهنا في غير شيء، قد هزم الله تعالى العدو، وهؤلاء إخوانكم قد ظهروا، وهم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم، فقال عبد الله بن جبير ومن وافقه: ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم: " احموا ظهورنا ولا تبرحوا من مكانكم، وإذا رأيتمونا نقتل، فلا تنصرونا، وإن غنمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا ؟ ! " فقال الآخرون: لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا.

وانطلقوا فلم يبق مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا دون العشرة، وذهب الباقون إلى عسكر المشركين ينتهبون، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، ونظر خالد بن الوليد إلى الجبل وقلة أهله، فكرّ بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل – وقد من الله عليهما

فأسلما بعد ذلك – فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم، وثبت أميرهم عبد الله، فقاتل حتى قتل، فجردوه ومثلوا به أقبح مثلة، وكانت الرماح قد شرعت في بطنه، حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته، وخرجت حشوته، وأحاطوا بالمسلمين.

فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذ دخلت الخيول تنادى فرسانها بشعارهم: يا للعزى، يا لهبل، ووضعوا السيوف في المسلمين وهم آمنون وكل في يديه أو حضنه شي قد انتهبه.

ولما رأى المشركون خيلهم ظاهرة رجعوا فشدوا على المسلمين فهزموهم، فقتلوا فيهم قتلا ذريعا، وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا، وخلوا من أسروا، وانتقضت صفوف المسلمين، واستدارت رحاهم، وكانت الريح أول النهار صبا فصارت دبورا، وكر الناس منهزمين يحطم بعضهم بعضا، فصاروا ثلاثا: ثلثا جريحا، وثلثا منهزما، وثلثا مقتولا، وصرخ الشيطان – لعنه الله –: أي عباد الله، إخوانكم ، فرجعت أولاهم، فاجتدلت هي وأخراهم، وهم يظنون أنهم من العدو.

وكان غرض إبليس بذلك أن يقتل المسلمون بعضهم بعضا، وكان أول النهار للمسلمين على الكفار، كما قال تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) [آل عمران 152].

فما كانت دولة أسرع من دولة المشركين ، وصرخ الشيطان عند جبل عينين وقد تصور في صورة جعال بن سراقة رضي الله عنه: " إن محمدا قد قتل " ثلاث صرخات، ولم

يشك فيه أنه حق وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك: إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم، حتى تلقوا الله تعالى شهداء ؟ ! وقال جماعة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، يا قوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

فاختلف الصحابة بعد أن صرخ فيهم الشيطان بأن محمدا قد قتل واختلط المسلمون، فصاروا يقاتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم، بعضا، من العجلة والدهش ، وتفرق المسلمون في كل وجه، وانهزمت طائفة منهم حتى دخلت المدينة، فلقيتهم أم أيمن فجعلت تحثو في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: " هاك المغزل فاغزل به، وهلم سيفك ". ولما انكشف

المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا نفر يسير لم يبق للمسلمين لواء قائم ولا فئة، وإن كانت خيل المشركين لتجوسهم مقبلة مدبرة في الوادي، يلتقون ولا يفترقون، ما يرون أحدا من الناس يردهم، حتى رجعوا إلى معسكرهم، وأصعد بعض المسلمين في الجبل، واستشهد منهم من أكرمه الله تعالى بالشهادة، ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صرخ به الشيطان قال: هذا إزب العقبة.

روى البيهقي عن المقداد بن عمرو رضي الله عنه فذكر حديثا في يوم أحد وقال: فأوجعوا والله قتلا ذريعا، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نالوا، ألا والذي بعثه بالحق إن زال رسول الله صلى الله عليه وسلم شبرا واحدا، وإنه لفي وجه العدو ويفيء إليه طائفة من أصحابه مرة، وتفترق مرة عنه، فربما رأيته قائما يرمي عن قوسه، ويرمي بالحجر حتى تحاجزوا، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عصابة ثبتت معه.

وقال محمد بن عمر: ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه ما يزول قدما واحدا، بل وقف في وجه العدو، وما يزال يرمي عن قوسه حتى تقطع وتره، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبرا في سية القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له، فقال: يا رسول الله لا يبلغ الوتر، فقال: " مدة فيبلغ "، قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ، وطويت منه ليتين أو ثلاثا على سية القوس، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوسه، فما زال يرمي به وأبو طلحة يستره متترسا عنه حتى تحطمت القوس، وصارت شظايا، وفنيت نبله، فأخذ القوس قتادة بن النعمان، فلم تزل عنده، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة، وكان أقرب الناس إلى العدو، وثبت معه صلى الله عليه وسلم خمسة عشر رجلا: ثمانية من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح.

وسبعة من الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ – وقيل: سعد بن عبادة – ومحمد بن مسلمة.

ويقال: ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلا كلهم يقول: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودع ! وروى الطبراني عن ابن عباس: أن ابن مسعود ثبت يومئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انكشف الناس عنه إلى الجبل لا يلوون يدعوهم في أخراهم يقول: " إلي يا فلان، أنا رسول الله "، فما يعرج عليه أحد، وهذا النبل يأتيه صلى الله عليه وسلم من كل ناحية، والله تعالى يصرف ذلك عنه.

وروى محمد بن عمر الأسلمي عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلا من المهاجرين يقول: شهدت أحدا فنظرت إلى النبل من كل ناحية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها، كل ذلك يصرف عنه.

ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد، ثم جاوزه فعاتبه صفوان بن أمية في ذلك، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، أما والله خرجنا أربعة فتعاهدنا، وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إليه.

قال ابن سعد: قال أبو النمر الكناني وهو جد شريك بن عبد الله بن أبي نمر: شهدت أحدا مع المشركين، ورميت يومئذ بخمس مرماة، فأصبت منها بأسهم، وإني لأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أصحابه لمحدقون به، وإن النبل لتمر عن يمينه وعن شماله، [وتقصر] بين يديه، وتخرج من ورائه، ثم هداني الله للإسلام. وروى عبد الرزاق بسند مرسل قوي عن الزهري قال: ضرب وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد سبعين ضربة بالسيف، وقاه الله شرها كلها.

قال الحافظ: ويحتمل أنه أراد بالسبعين حقيقتها، أو المبالغة في الكثرة.إهـ.

وبايعه يومئذ على الموت ثمانية: ثلاثة من المهاجرين، وهم: علي، والزبير، وطلحة.

وخمسة من الأنصار: أبو دجانة، والحارث بن الصمة، والحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، فلم يقتل منهم أحد.

وروى أبو يعلى بسند حسن، عن علي رضي الله عنه قال: لما انجلى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نظرت في القتلى، فلم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى، ولكن أرى الله تعالى غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيه صلى الله عليه وسلم، فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي، ثم حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، أي يقاتلهم صلى الله عليه وسلم.

وقد تكاثر المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرادوا قتله ، فرمى عتبة بن أبي وقاص – لعنه الله وقد فعل– رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أحجار فكسر حجر منها رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى.

قال الحافظ: والمراد بكسر الرباعية – وهي السن التي بين الثنية والناب – أنها كسرت فذهب منها فلقة، ولم تقلع من أصلها.

وروى عبد الرزاق في تفسيره عن مقسم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي وقاص حين كسر رباعيته ورمى وجهه، فقال: اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت – كافرا، فما حال عليه الحول حتى مات كافرا إلى النار، ورواه أبو نعيم من وجه آخر عن ابن عباس .

واغتاظ من حول الرسول عليه الصلاة والسلام، فعن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه: أنه لما رأى ما فعل عتبة برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله من فعل بك ؟ قال: " عتبة بن أبي وقاص ".قلت: أين توجه ؟ فأشار إلى حيث توجه، فمضيت حتى ظفرت به فضربته بالسيف فطرحت رأسه، فأخذت رأسه وفرسه، وجئت إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ذلك إلي، ودعا لي فقال: " رضي الله عنك "، مرتين أخرجه البيهقي في السنن **6 / 308** والحاكم في المستدرك **3 / 300**.

وروى الخطيب في تاريخ بغداد عن الحافظ محمد بن يوسف الفريابي قال: بلغني أن الذين كسروا رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يولد لهم صبي، فنبتت له رباعية. قال السهيلي: ولم يولد من نسل عتبة ولد يبلغ الحلم إلا وهو أهتم أبخر، يعرف ذلك في عقبه. وشجه عبد الله بن شهاب الزهري – وأسلم بعد ذلك – في وجهه، وسال الدم من الشجة حتى أخضل الدم لحيته الشريفة. ورماه عبد الله بن قمئة فشج وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وعلاه بالسيف. وكان عليه درعان، فوقع صلى الله عليه وسلم في حفرة أمامه على جنبه، وهي من الحفر التي عملها أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأغمي عليه صلى الله عليه وسلم، كما رواه ابن جرير عن قتادة، فأخذ علي بن أبي طالب بيده، ورفعه طلحة حتى استوى قائما فجحشت ركبتاه، ولم يصنع سيف ابن قمئة شيئا إلا وهن الضربة بثقل السيف، ومكث يجد وهن الضربة على عاتقه شهرا، أو أكثر من شهر،

ورمته جماعة كثيرة بالحجارة حتى وقع لشقه.

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن ابن قمئة لما رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أقمأك الله "، فسلط الله تعالى عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة .

وروى أبو داود الطيالسي وابن حبان عن عائشة قالت:

كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت

ممن فاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دونه – قال: وأراه قال يحميه – قال: قلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلا من قومي أحب إلي، وبيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، وهو يخطف خطفا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كسرت رباعيته، وشج وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكما صاحبكما، يريد طلحة، وقد نزف الدم فتركناه، وذهبت لأنزل ذلك من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، فتركته، وكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأزمّ عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، ففعل كما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتما، فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفر، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه .

وذكر محمد بن عمر أن طلحة أصيب يومئذ في رأسه، فنزف الدم حتى غشي عليه، فنضح أبو بكر الماء في وجهه حتى أفاق فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: خيرا، هو أرسلني إليك، قال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جلل.

وترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دجانة

بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو ينحني عليه، حتى كثر عليه النبل وهو لا يتحرك.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف قتالا شديدا

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصيب فوه فهتم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، وجرح في رجله، وكان يعرج منها.

وروى ذلك الحاكم عن إبراهيم بن سعد ، وقاتل سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالا شديدا.

روى الحاكم عن عائشة بنت سعد عن أبيها قال: لما جال الناس يوم أحد تلك الجولة تنحيت فقلت: أذود عن نفسي، فإما أنجو وإما أن أستشهد، فإذا رجل محمر وجهه قد كاد المشركون أن يركبوه، فملأ يده من الحصا فرماهم به، وإذا بيني وبينه المقداد، فأردت أن أسأله عن الرجل، فقال لي: " يا سعد هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك " فقمت ولكأنه لم يصبني شيء من الأذى، فأتيته فأجلسني أمامه فجعلت أرمي وأقول: " اللهم سهمك فارم به عدوك " ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اللهم استجب لسعد، اللهم سدد لسعد رميته، إيهاً سعد، فداك أبي وأمي "، فما من سهم أرمي به إلا قال رسول الله: " اللهم سدد رميته، وأجب دعوته "، حتى إذا فرغت من كناني نثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في كنانته فنبلني سهما نضيا قال وهو الذي قد ريش وكان أسد من غيره . أخرجه الترمذي (3751) والحاكم في المستدرك 3 / 499 والطبراني في الكبير 1 / 105.

قال الزهري: " السهام التي رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم ".

وروى ابن عائذ عن يحيى بن حمزة مرسلا، عن سعد بن أبي وقاص قال: رميت بسهم فرد علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهمي أعرفه، حتى واليت بين ثمانية أو تسعة، كل ذلك يرده علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت هذا السهم في كنانتي لا يفارقني. وروى البخاري والحسن بن عرفة، عن سعد قال: نثل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته يوم أحد، وقال: " ارم فداك أبي وأمي ".

روى البخاري عن علي رضي الله عنه قال:

ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك، سمعته يقول يوم أحد: " يا سعد ارم فداك أبي وأمي ".

وروى أيضا عن سعد قال: " لقد جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بين أبويه كليهما، يريد حين قال: " فداك أبي وأمي، وهو يقاتل " .

قال محمد بن عمر رحمه الله: كان رجال من المشركين قد أذلقوا المسلمين بالرمي منهم حبان بن العرقة ، وأبو أسامة الجشمي.

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسعد: " ارم فداك أبي وأمي " ورمى حبان بسهم فأصاب ذيل أم أيمن وكانت تسقي الجرحى، فانكشف عنها فاستغرب عدو الله في الضحك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهما لا نصل له، فقال: " ارم به "، فوقع السهم في ثغرة نحر حبان، فوقع مستلقيا وبدت عورته، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال: " استقاد لها سعد أجاب الله دعوتك وسدد رميتك ".

وكان مالك بن زهير أخو أبي أسامة الجشمي وهو وحبان بن العرقة قد أكثرا في المسلمين القتل بالنبل، فرمى سعد مالكا بسهم أصاب عينه، حتى خرج من قفاه وقتله.

ومن تلك الصور التي رسمها التاريخ في جبين الزمن دفاع أم عمارة وهي نسيبة – وهي بمهملة وموحدة مصغر على المشهور، وعن ابن معين والفربري ككريمة – بنت كعب المازنية يومئذ، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وباشرت القتال، وجعلت تذب عنه بالسيف، وترمي عن القوس.

ولما قصد ابن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترضت له ومصعب بن عمير، وضربت ابن قمئة ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان، وضربها هو بالسيف فجرحها جرحا عظيما، صار له فيما بعد غور.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان " وقال: " ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني ".

وقال لابنها عبد الله بن زيد بن عاصم: " بارك الله تعالى عليكم أهل بيت، مقام أمكم خير من مقام فلان وفلان، ومقام زوج أمك غزية بن عمرو خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيت ".

قالت أم عمارة: " ادع الله تعالى أن نرافقك في الجنة "، قال: " اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة قالت: " ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا ". قال البلاذري: شهدت نسيبة يوم أحد وزوجها وابناها، وخرجت معها بشن لها تسقي الجرحى، فقاتلت وجرحت اثني عشر رجلا بسيف ورمي، وكانت أول النهار تسقي المسلمين، والدولة لهم، ثم قاتلت حين كر المشركون، وقاتلت يوم اليمامة فقطعت يدها وهي تريد مسيلمة الكذاب لتقتله.

قالت: " ما كانت لي ناهية حتى رأيت الخبيث مقتولا وإذا ابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه، فقلت: أقتلته ؟ قال: نعم، فسجدت لله شكرا ".

وروى ابن سعد عن موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبيه قال: أتى عمر بن الخطاب بمروط وفيها مرط جيد واسع، فقال بعضهم: لو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد.

فقال: " ابعثوا به إلى من هو أحق به منها، إلى أم عمارة نسيبة بنت كعب، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما التفت يمينا ولا شمالا يوم أحد إلا رأيتها تقاتل دوني "

وانحاز صلى الله عليه وسلم إلى الجبل لينظر أمر الناس، وليعرفه أصحابه، فيقصدوه، فأدركه المشركون يريدون ما الله تعالى حائل بينه وبينهم، فدثه جماعة بالحجارة حتى وقع لشقه.

وروى النسائي والبيهقي بسند جيد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: انهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله، وهو يصعد في الجبل، فلحقهم المشركون، فقال: " ألا أحد لهؤلاء ؟ " فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كما أنت يا طلحة "، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله فقاتل عنه، وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بقي معه من أصحابه، ثم قتل الأنصاري، فلحقوه فقال: " ألا رجل لهؤلاء ؟ " فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل وأصحابه يصعدون في الجبل، ثم قتل الأنصاري، فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله فيحبسه، ويستأذنه رجل من الأنصار للقتال، فيأذن له، فيقاتل مثل من كان قبله حتى لم يبق معه إلا طلحة، فغشوهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لهؤلاء يا طلحة ؟ " فقال: أنا، فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله، وأصيبت أنامله، فقال: حس، فقال: لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء.

وروى الامام أحمد، ومسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن المشركين لما أرهقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سبعة من الأنصار ورجل من قريش قال: من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة ؟ فجاء رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضا، فقال: من يردهم عنا وله الجنة ؟ – أو هو رفيقي في الجنة ؟ – فتقدم رجل من الأنصار فقاتل، حتى قتل السبعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما أنصفنا أصحابنا "

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة بن عبيدالله شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد.

وروى ابن أبي شيبة والإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن النساء يوم أحد كن خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ لرجوت أن أبر أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله تعالى: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الاخرة) [آل عمران 152] فلما خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصوا ما أمروا به أفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقوه قال: رحم الله امرءاً ردهم عنا فذكر نحو الحديث الذي قبله.

وقال ابن إسحاق: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غشيه القوم قال: " من رجل يشري لنا نفسه ؟ " فقام زياد بن السكن في خمسة من الأنصار – وبعض الناس يقول: إنما هو عمارة بن يزيد بن السكن –، فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا يقتلون دونه، حتى كان آخرهم زيادا أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أدنوه مني "، فأدنوه منه فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبه أربع عشرة جراحة.

وقاتل علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية، وأبو دجانة من ناحية، وسعد بن أبي وقاص من ناحية، وانفرد علي بن أبي طالب بفرقة فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخل وسطهم بالسيف يضرب به وقد اشتملوا عليه، حتى أفضى إلى

آخرهم، ثم كرهم ثانيا حتى رجع من حيث جاء.

وكان الحباب بن المنذر يجوس المشركين كما تجاس الغنم، ثم اشتملوا عليه حتى قيل قد قتل، ثم برز والسيف في يده، وافترقوا عنه.

ولا تزال المواقف المشرقة من أصحاب النبي تتوالا فمنها تغشي الصحابة النعاس ، ومنها مدد الملائكة ، ونختم الغزوة بإذن الله ببيان نهاية الغزوة ورجوع الصحابة للمدينة ، فأما بالنسبة للنعاس فقد روى الإمام أحمد والبخاري والحاكم عن أبي طلحة والبخاري عن أنس عن أبي طلحة، قال أبو طلحة: كنت فيمن يغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا من النعاس، الذي ألقاه الله تعالى عليهم أمنة منه، يسقط وآخذه، وجعلت أنظر وما منهم أحد إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس.

وروى الطبراني في الأوسط عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: ألقي علينا النوم يوم أحد.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آمنهم الله تعالى يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يأمن.

وروى ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: النعاس عند القتال أمنة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان.

وروى محمد بن عمر الأسلمي عن أبي اليَسَر واسمه كعب بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يومئذ في أربعة عشر رجلا من قومي إلى جنب رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقد أصابنا النعاس أمنة منه، ما منهم أحد إلا يغط غطيطا، حتى أن الحجف لتتناطح، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور سقط من يده، وما يشعر، حتى أخذه بعد ما تثلم، وإن المشركين لتحتنا.

وروى الإمام إسحاق بن راهويه عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: والله إن النعاس ليغشاني.

وفي رواية: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: " لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا هاهنا " فحفظتها، فأنزل الله تعالى في ذلك: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة) إلى قوله: (ما قتلنا هاهنا) [آل عمران **154**] كقول معتب بن قشير.

قال محمد بن إسحاق: أنزل الله تعالى النعاس أمنة منه لأهل اليقين ، فهم نيام لا يخافون، والذين أهمتهم أنفسهم أهل النفاق في غاية الخوف والذعر.

وأما شهود الملائكة للمعركة فقد اختلف أهل السير هل أمد الله الصحابة بمدد من الملائكة أم لا ؟

وذلك أن الله شرط المدد بالصبر ، حيث قال سبحانه (بلى إن تصبروا وتتقوا وهم في أحد لم يصبروا بل خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وفروا ، ولعلنا نعرض لأقوال أهل العلم من المفسرين والمؤرخين ذكر ما جاء في حضور الملائكة وقتالهم يوم أحد روى أبو داود الطيالسي والشيخان عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت عن يمين

رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، وما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل.

ورواه البيهقي.

ثم روى مجاهد، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر قال البيهقي: مراده لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم حين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يصبروا على ما أمرهم به.

روى محمد بن عمر عن شيوخه في قوله تعالى: (بلى إن تصبروا وتتقوا) الآية لم يصبروا وانكشفوا فلم يمدوا.

ورو ي أيضا عنهم قالوا: قتل مصعب بن عمير فأخذ اللواء ملك في صورة مصعب، وحضرت الملائكة يومئذ ولم تقاتل.

وروى الطبراني وابن منده وابن عساكر من طريق محمود بن لبيد، قال الحارث بن الصمة: سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في الشعب عن عبد الرحمن بن عوف، فقلت: رأيته إلى جنب الجبل، فقال: " إن الملائكة تقاتل معه ".

قال الحارث: فرجعت إلى عبد الرحمن فوجدت بين يديه سبعة صرعى، فقلت: ظفرت يمينك، أكل هؤلاء قتلت ؟ قال: " أما هذا وهذا فأنا قتلتهما، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره ".

فقلت: صدق الله ورسوله.

وروى ابن سعد عن عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد مصعب بن عمير اللواء فقتل

مصعب، فأخذه ملك في صورة مصعب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " تقدم يا مصعب ".

فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ملك أيد به.

وقال ابن أبي شيبة في المصنف: حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة: حدثني محمد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد: أقدم يا مصعب، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم يقتل مصعب ؟ قال: " بلى، ولكن ملك قام مكانه، وتسمى باسمه ".

وروى ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لقد رأيتني أرمي بالسهم يوم أحد فيرده علي رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد فظننت أنه ملك.

وروى ابن إسحاق والبيهقي وابن عساكر عن عبد الله بن عون عن عمير بن إسحاق قال: لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله وسعد يرمي بين يديه، وفتى ينبل له، كلما ذهب نبله أتاه بها، قال: ارم أبا إسحاق، فلما فرغوا نظروا من الشاب فلم يروه، ولم يعرف.

وروى البيهقي عن عروة في قوله تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده) [آل عمران **152**] قال: كان الله تعالى وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركوا مصافهم، وتركت الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا يبرحوا من منازلهم،

وأرادوا الدنيا، رفع عنهم مدد الملائكة، وأنزل الله تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) فصدق الله وعده وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء.

وخلاصة القول أن الله جل في علاه قد أمدهم بالملائكة في بداية المعركة فلم عصوا وولوا ولم يصبروا رفع المدد عنهم وخذلوا ، والله المستعان

والمتأمل أيها القارئ الكريم في هذه الغزوة يرى كيف أن ذنبا واحدا أعقب تلك المصائب كلها ، وما قد سردناه فيما مضى حتى أصيب النبي صلى الله عليه وسلم فيمن أصيب ، وقتل من قتل وهم لم يعصوا ولكن شؤم المعصية قد عم الجميع ، ليعلموا خطر المعصية وليتأصل في قلوبهم أن النصر بيد الله وأن الأيام دول فلا يتكلوا على إسلامهم بل يبذلوا السبب ، ويتكلوا على الله .

ولما تكالب العدو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأرادوا القضاء عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذه المعركة بزعمهم ، وأخذوا يتابعون فلول المسلمين المنهزمة ، حتى إنهم ظفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم في ثلة من أصحابه ، فقد روى ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو في الشعب مع أولئك النفر من أصحابه، إذ علت عالية من المشركين،خالد بن الوليد ونفر معه الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم لا قوة لنا إلا بك، وليس أحد يعبدك بهذه البلدة غيرَ هؤلاء النفر فلا تهلكهم، اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا".

وثاب نفر من المهاجرين رماة، منهم عمر بن الخطاب فرموا خيل المشركين حتى هزموهم،وعلا المسلمون الجبل .

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول يوم أحد: " اللهم إن تشأ لا تعبد في الأرض " (وذكر الأموي في مغازيه: أن المشركين صعدوا على الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: " اردهم "، قال: كيف أردهم وحدي ؟ فقال ذلك ثلاثا، فأخذ سعد سهما من كنانته فرمى به رجلا فقتله قال: ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر، فقتلته، فهبطوا من مكانهم.

وقال ابن جريج: وأنزل الله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران **139**].

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر يومئذ قاعدا من الجراحة التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودا.

وأخرج ابن سعد عن الواقدي عن شيوخه أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن ،وأخرجه البيهقي عن عروة .

ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدُن فظاهر بين درعين فلما ذهب لينهض فلم يستطع، جلس تحته طلحة بن عبيدالله فنهض حتى استوى عليها.

ثم إنّ أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمتِ فِعال، إنّ الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، (اعل هبل) أي: أظهر دينك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: قم فأجبه فقل: الله أعلى وأجل، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فلما أجاب عمر رضي الله عنه أبا سفيان، قال له أبو سفيان: هلم إليّ يا عمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ائته فانظر ما شأنه؟ فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن فقال: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر) وفي رواية البخاري (فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُجيبوه ، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قُحافة؟ ثلاث مرات ، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتِلوا، فما ملك عُمرُ نفسه ، فقال: كذبت والله يا عدو الله! إنّ الذين عدَدْت لأحياءٌ كلهم، وقد بقي لك ما يسؤوك قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحربُ سِجال، إنكم ستجدون في القوم مُثْلةً لم آمر بها ولم تسُؤْني، ثم أخذ يرتجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تجيبوه؟، قالوا: يا رسول الله ، ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، قال: إنّ لنا العزى ولا عُزّى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تجيبوه؟ قال: قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم).

وعند أحمد بسند حسن (فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل (اعل هبل) مرتين – يعني آلهته–، أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيبه؟ قال: بلى، قال: فلما قال (اعل هبل) قال عمر: الله أعلى وأجل،

قال: فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب، إنه قد أنعمت فعال عنها، فقال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وها أنا ذا عمر، قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دول وإنّ الحرب سجال قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار) فانصرف بعد أن قال : ستجدون في قتلاكم مثلة ، لم آمر بها ، ثم قال : ولم تسئني . وانتهت بذلك الغزوة من قبل المشركين .

وأنزل الله من القرآن مايزيل التعب عن الصحابة ويرد لهم العزة ، وليدرسوا الأخطاء التي وقعت منهم في تلك الغزوة فهؤلاء الصحابة الذين فروا من الغزوة قد تجاوز الله عنهم زلتهم في كتابه الكريم بقوله { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيم }(2)فبيّن الله أنه قد عفا عن جميع من تولى يوم أحد.

روى البخاري أنّ رجلاً حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر ، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء، أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت، أتعلم أنّ عثمان بن عفان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم، قال: فتعلمه تغيّب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلّف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فكبّر، قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبيّن لك عما سألتني عنه: أما فراره يوم أحد فأشهد أنّ الله عفا عنه،وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت مريضة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إنّ لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه)،وأما تغيّبه عن بيعة الرضوان فإنّه لو كان أحد أعز ببطن مكّة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعث

عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عُثمان إلى مكّة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيده اليمنى: (هذه يد عثمان، فضَرَبَ بها على يَدِهِ ، فقال: هذه لِعُثْمان، اذْهَبْ بِهذا الآن مَعَك)

وبعد أن غادرت قريش، أمر الرسول بدفن شهداء المسلمين وكانوا سبعين شهيدا، ولم يؤسر أحد من المسلمين، في حين بلغ عدد قتلى قريش اثنين وعشرين رجلا .

جمع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدم عند الدفن أحفظهم لكتاب الله، وأمر أن يدفنوا في دمائهم فلم يغسلوا ولم يصلّ عليهم وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة». ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وأمر أن يدفنوا حيث صرعوا.

وقد جمع النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بعد دفن الشهداء وجعلهم صفّاً وأثنى على ربه ودعاه أن يمنحهم نعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة وأن يقتل الكفرة المكذبين .

ثم انطلقوا إلى المدينة ، وقد وقعت بعض الأحداث التي لا ينبغي لنا تركها في هذا المقام مثل ما أخرج ابن سعد والحاكم والبيهقي عن ابن عباس قال لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صنع فلقيت عليا والزبير فقالت :ما فعل حمزة فأرياها أنهما لا يدريان فجاءت النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال :إني أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت .

وأخرج ابن سعد والحاكم والبيهقي عن عوف بن محمد قال: بلغني أن هندا ابنة عتبة بن ربيعة جاءت يوم أحد وكانت نذرت لئن قدرت على حمزة لتأكلن من كبده فجاءوا بحزة

من كبد حمزة فأخذتها تمضغها لتأكلها فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها فبلغ ذلك رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال إن الله قد حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئا أبدا

ومما يبين فضل هؤلاء الصحابة الذين دفعوا أرواحهم في سبيل الله ما حدث لهم من كرامة بعد موتهم فقد حفظ الله أجسادهم أن تتغير فضلا أن تأكلها الأرض فقد أخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال اخرج أبي من قبره في خلافة معاوية فأتيته فوجدته على النحو الذي تركته لم يتغير منه شيء فواريته .

وأخرج ابن سعد والبيهقي وأبو نعيم من وجه آخر عن جابر قال استصرخنا إلى قتلانا يوم أحد وذلك حين أجرى معاوية العين فأتيناهم فأخرجناهم رطابا تثنى أطرافهم على رأس أربعين سنة وأصابت المسحاة قدم حمزة فانثعبت دما .

ولقد نزلت في موضوع غزوة أحد ومعركتها ثمانٌ وخمسون آية من سورة آل عمران تبدأ بذكر المراحل الأولى للمعركة في قوله تعالى: "وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ "

ونزلت آيات القرآن تمسح جراحات المسلمين وآلامهم وتعطيهم جرعات كبيرة من التربية الإيمانية، وهي تسجل مشاهد متعددة من هذه الغزوة والدروس منها قوله تعالى: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «2»." ومنها: إِ"نْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ

فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «3»".

ومنها قوله تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ «4»".

وقوله: "وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ «5»".

وقوله:" وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ «6»".

وقوله تعالى: "وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «7»".

وقوله: "وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا «8»".

وقوله تعالى:" إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ «9»".

وتقدم في النهاية تعليقا جامعا على نتائج المعركة والحكمة التي أرادها الله من جرّائها، في قوله تعالى: "ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ «10»".

ولما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم يحملون هم الهزيمة ، مع مافيها من النصر المبطن حيث أن الكفار لم يستطيعوا القضاء عليهم مع ماهم فيه من التفرق والضعف والإصابة ، وما من الله به عليهم من الدروس والتربية ، ولكن كان من المتوقع أن يواجه المسلمون عند عودتهم إلى المدينة اليهود الشامتين، والمنافقين المرجفين، وكانوا يواجهون في أطرافها الأعراب المشركين الذين تطلعوا بشراهة إلى ثمار المدينة وخيراتها.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قضى على ذلك بالتحرك السريع والدقيق من أجل استعادة مواقع المسلمين ومكانتهم للردّ على كل الأخطار والاحتمالات السلبية. فأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أصحابه أن يخرجوا- رغم كل ما أصابهم- لمطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد في غزوة اقتصرت على من شهد أحدا دون غيرهم.

استجاب المسلمون الذين شاركوا في غزوة أحد فخرجوا في اليوم التالي، وهو الثامن من شوال سنة 3 هـ، مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم إلى حمراء الأسد على ما بهم من خوف وإرهاق وقروح، وقالوا سمعا وطاعة وأذن النبي لجابر بن عبد الله بالمسير معه مع أنه لم يشهد أحدا، إذ كان أبوه قد خلّفه على بناته ، وتقدم المسلمون حتى بلغوا حمراء الأسد، وكان عددهم حينذاك ستمائة وثلاثين مقاتلا .

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأسلم، فأمره النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يلحق بأبي سفيان ويخذّله، فلحقه بالروحاء- ولم يعلمه بإسلامه- فخذّله إذ أخبره بخروج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمين خلفهم إلى حمراء الأسد،

ونصحه وقريش بالعودة إلى مكة على عجل .

ولقد أثنى الله تعالى على مبادرة أصحاب النبي بالخروج معه في هذه الغزوة فقال تعالى: "الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ".

وأقدم أبو سفيان على محاولة تخذيل المسلمين عن ملاحقتهم فأرسل مع ركب من عبد القيس رسالة إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ورد فيها: «إنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» وحين سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم ذلك قال:حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وأنزل الله تعالى في ذلك قوله: "الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ".

أقام النبي صلّى الله عليه وسلّم في حمراء الأسد ثلاثة أيام ، ثم رجع منتصرا مبينا لجميع من سمع بوقعة أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يتأثروا بما حصل لهم في أحد بل زادهم ذلك يقينا وإصرارا على نشر دين الله تعالى ، وبهذا تنتهي غزوة أحد .

*****

قصة الذين بسطوا أيديهم فكف الله أيديهم

لقد حكى الله لنا كيف كف أيدي الكفار عن المؤمنين كما ذكر الله ذلك في سورة المائدة حيث يقول (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(11) المائدة

ولقد اختلفت أقوال المفسرين والمؤرخين في سبب نزول هذه الآية فمن ذلك ما أخرج البخاري في صحيحه (139) من طريق عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، ذكره عن أبي سلمة، عن جابر؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتَفَرّق الناس في العضَاه يستظلون تحتها، وعلق النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه فسلَّه، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يمنعك مني؟ قال: "الله"! قال الأعرابي مرتين أو ثلاثا: من يمنعك مني؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الله"! قال: فَشَامَ الأعرابي السيف، فدعا النبي

صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خَبَرَ الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه – وقال معمر: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوما من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } الآية.

وهذا الأعرابي –هو غَوْرَث بن الحارث– وقيل بضم أوله .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ } وذلك أن قوما من اليهود صنعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه طعاما ليقتلوهم فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فلم يأتوه . رواه ابن أبي حاتم.

وذكر محمد بن إسحاق ، ومجاهد وعكْرِمَة، وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النَّضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحَى، لما جاءهم يستعينهم في دِيَةِ العامريَيْن، ووكلوا عمرو بن جَحَّاش بن كعب بذلك، وأمروه إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله رسوله على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله تعالى في ذلك: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.

أخرجه الطبري عن قتادة: **6 / 146** (طبعة الحلبي) : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تبارك وتعالى نبيه على ذلك، وأنزل الله صلاة الخوف .

وروى الطبري في تفسيره : **6 / 145** (طبع الحلبي)، والواحدي ص(**224–225**)، والسيوطي في الدر المنثور : **3 / 37–38**، وكذا هي في سيرة ابن هشام: **2 / 563** قال مجاهد وعكرمة والكلبي وابن يسار عن رجاله: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو الساعدي، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، في ثلاثين راكبا من المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة، فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة، وهي من مياه بني عامر، فاقتتلوا، فقُتل المنذر بن عمرو وأصحابه إلّا ثلاثةَ نفر كانوا في طلب ضالة لهم، أحدَهم عمروَ بن أمية الضمري، فلم يرعهم إلا الطير تحوم في السماء، يسقط من بين خراطيمها علق الدم، فقال أحد النفر: قتل أصحابنا، ثم تولى يشتد حتى لقي رجلا فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال: الله أكبر الجنة ورب العالمين، فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بني عامر فقتلاهما وقدم قومهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون الدية، فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عَقْلِهما، وكانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات، قالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلسْ حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمدا أقرب منه

الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحاش: أنا، فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده وجاء جبريل وأخبره، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة ثم دعا عليا فقال: لا تبرح مقامك، فمن خرج عليك من أصحابي فسألك عني فقل: توجه إلى المدينة، ففعل ذلك علي رضي الله عنه حتى تناهوا إليه ثم تبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: { فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }

قال القشيري : وقد تنزل الآية في قصة ثم ينزل ذكرها مرة أخرى لادكار ما سبق .

ويقصد رحمه الله بهذا أن الآية قد تنزل مرتين أو أكثر لمناسبة تشبه المناسبة التي نزلت فيها أولا ، وهذا مذهب لبعض المفسرين ، فتنزل فيستفيدوا منها لهذه الحادثة ويتذكروا تلك الحادثة الأولى التي نزل فيها القرآن أولا ، وعلى هذا القول تكون نزلت في قصة الأعرابي ، وفي قصة بني النضير أيضا والله تعالى أعلم .

وفي هذا القصة من الفوائد ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، كما قال تعالى (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ) الأعراف**188**

وفيه قوة توكل النبي صلى الله عليه وسلم على ربه ومعرفته لمقام الربوبية ، وشجاعته .

وفيه أيضا غدر اليهود ، في نقضهم للعهد ، ومحاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أعلمه جبريل فخرج هاربا ، وفي ذلك حكمة النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يخبرهم بقصدهم وإنما ولى هاربا ثم رجع إليهم وقد نزل عليه القرآن ليخرجهم من ديارهم .

وفوائدها غزيرة لا تخفى على من تأملها .

قصة نقباء بني إسرائيل

يقول سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا } يعني: عُرَفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ، فكل نقيب مسؤول عن قومه .

وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وكذا محمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فأُمر بأن يقيم النقباء، من كل سبط نقيب – وسرد محمد بن إسحاق أسماءهم ، وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبًا، ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحُضَيْر، وسعد بن خَيْثَمَة، ورفاعة بن عبد المنذر –ويقال بدله: أبو الهيثم بن التيهان–رضي الله عنهم، وتسعة من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرَارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العَجْلان ،والبراء بن مَعْرور، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عُبَادة، وعبد الله بن عَمْرو بن حرام، والمنذر بن عَمْرو بن خُنَيس، رضي الله عنهم. وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له، كما أورده ابن إسحاق في سيرته رحمه الله.

والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلة إذ عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك، وهم الذين ولوا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة. وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من طريق مُجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم يملك هذه الأمة من

خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألني عنها أحد منذ قدمتُ العراق قبلك، ثم قال: نعم لقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل".

فهذا الحديث وإن كان لا يصح لأنه من رواية مجالد بن سعيد ، ولكن أصل الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سَمُرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا". ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عَلَيّ، فسألت أبي: ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: "كلهم من قريش".

وهذا لفظ مسلم قال ابن كثير : ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحًا، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نَسَق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره: أنه يُواطئُ اسْمُه اسم النبي صلى الله عليه وسلم، واسم أبيه اسمَ أبيه، فيملأ الأرض عدْلا وقِسْطًا، كما ملئت جَوْرا وظُلْمًا، وليس هذا بالمنتظر الذي يتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب "سَامرّاء". فإن ذلك ليس له حقيقةٌ ولا وجود بالكلية، بل هو من هَوَسِ العقول السخيفة، وَتَوَهُّم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمةَ الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقلهم.

وفي التوراة البشارة بإسماعيل عليه السلام، وأن الله يقيم من صُلْبِه اثني عشر عظيما، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود، وجابر بن سَمُرة، وبعض

الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلا وسَفَها، لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.أهـ

وقال ابن عطية في تفسيره : هذه الآيات المتضمنة الخبر عن نقضهم مواثيق الله تعالى تقوّي أن الآية المتقدمة في كف الأيدي إنما كانت في بني النضير واختلف أهل التأويل في كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الإجماع على أن النقيب كبير القوم القائم بأمورهم الذي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها والنقيب : الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة ومنه قيل في عمر رضي الله عنه : إنه كان لنقّابًا فالنقباء الضمان واحدهم نقيب وهو شاهد القوم وضمينهم يقال : نقب عليهم : وهو حسن النقيبة أي حسن الخليقة والنقب الطريق وفي الجبل وإنما قيل : نقيب لأنه يعلم دخيلة أمر القوم ويعرف مناقبهم وهو الطريق إلى معرفة أمورهم وقال قوم النقباء الأمناء على قومهم وهذا كله قريب بعضه من بعض والنقيب أكبر مكانة من العريف قال عطاء بن يسار : حملة القرآن عرفاء أهل الجنة ذكره الدارمي في مسنده قال قتادة رحمه الله – وغيره : هؤلاء النقباء قوم كبار من كل سبط تكفل كل واحد بسبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله ونحو هذا كان النقباء ليلة العقبة بايع فيها سبعون رجلا وامرأتان فاختار رسول الله صلى الله عليه و سلم من السبعين اثني عشر رجلا وسماهم النقباء اقتداء بموسى عليه السلام وقال الربيع و السدي وغيرهما : إنما بعث النقاء من بني إسرائيل أمناء على الاطلاع على الجبارين والسبر لقوتهم ومنعهم فساروا ليختبروا حال من بها ويعلموه بما اطلعوا عليه فيها حتى ينظر في الغزو إليهم فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لا قبل لهم بها فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل وأن يعلموا به موسى عليه السلام

**

فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراباتهم ومن وثقوه على سرهم ففشا الخبر حتى اعوج أمر بني إسرائيل فقالوا : { فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون } [المائدة : 24]

وبهذا تنتهي قصة النقباء.

*****

قصة نوح وقومه

نوح عليه السلام أول رسل الله إلى أهل الأرض ،وتكررت قصته في القرآن كثيرا و ذلك لفضلها وما فيها من الآيات و العبر حيث قص الله عز وجل لنا قصة نوح في كتابه كما قال تعالى في سورة الأعراف (59) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الآيات وهذه هي أول آيات تذكر قصة نوح عليه السلام ، ونوح هو أبو الأنبياء كما هو معروف لدى الجميع ، وذلك أن الأنبياء كلهم من ذريته كما قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) [الصافات:

77] وقال فيه وفي إبراهيم (وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) [الحديد: **26**] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته.

وهنا مسألة نبدأ بها أولا وهي هل كان بين نوح وآدم نبي أو رسول ؟ فإن النسابين يذكرون أن إدريسَ جدٌ لنوح ، وأنه قد بعث قبله ، والذي يظهر عدم صحة ذلك لأدلة منها ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه في الإسراء حين لقي النبي صلى الله عليه و سلم آدم وإدريس فقال له آدم : مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح وقال له إدريس : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فلو كان إدريسُ أباً لنوح لقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح فلما قال له والأخ الصالح دل ذلك على أنه يجتمع معه في نوح صلوات الله عليهم أجمعين .

وبهذا قال القرطبي في تفسيره ، و قال المازري : قد ذكر المؤرخون أن إدريسَ جدٌ نوحٍ عليهما السلام فإن قام الدليل على أن إدريس بعث أيضا لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح لما أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحا أولُ رسول بعث .أهـ.

وهذه المسألة سهلة ولله الحمد ، ولكن أحببت إثارتها لكثرة ورودها في كتب التفسير والتأريخ ، والله أعلم بالصواب .

أيها القارئ الكريم : إن المتأمل في كتاب الله يجد أن نوحا عليه السلام من أكثر الأنبياء الذي صبروا على قومهم ، ومن أكثرهم تعرضا للأذى .

قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل.

وقال يزيد الرقاشي: إنما سمّي نوحًا لكثرة ما ناح على نفسه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام .

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق نسرا) [نوح: 23] قال: (هذه) أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون (فيها) أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت.

قال ابن عباس وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد * وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق.

وروى ابن جرير في تفسيره بسنده عن محمد بن قيس قال كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم * وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة ، يقال لها مارية فذكرتا من حسنها

وتصاوير فيها قال: " أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل " .

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة قال: " فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله.

ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عزوجل ؟ فيقول ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي " .

فلما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل .كما قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل: 36] وقال تعالى (واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) [الزخرف: 45] وقال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء: 25] ولهذا قال نوح لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب

يوم عظيم) وقال (ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقال (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) ولقد أنزل الله تعالى سورة كاملة وسماها باسمه وفصل فيها دعوته لقومه وصبره على أذاهم حيث يقول سبحانه عن نوح (يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا) الآيات الكريمات.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام ، بل كانوا يسخرون منه عند دعوته لهم ويضعون أصابعهم في آذانهم ، ويستغشون ثيابهم ، ويصدون باستكبار .

وقد تنوعت أساليب نوح عليه السلام في دعوته لقومه رجاء هدايتهم ، ولقد صبر عليهم صبرا عظيما حتى إنه لا يُعرف أحدٌ مكث في قومه مثلَ مكثِ نوح كما قال تعالى(ولقد رسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) ومع هذا فلم يؤمن منهم إلا قليل كما قال تعالى (وما آمن معه إلا قليل) فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسا. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائِنِه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأةُ نوح كانت هلكت في الغابرين لأنها كانت على دين قومها .

**

أيها القارئ : من عادة الأشرار الوقوف في وجه الحق والخير والاعتراض عليه ، وذلك لأنهم ظلمة ، والحق يمنع الظلم ، ولأنهم أهل فساد والحق يمنع الفساد ، ويقطعهم عن شهواتهم وغيهم ، فهم يعترضون على الحق ليحموا شهواتهم ، وهكذا نوح عليه السلام لما جاء لقومه ودعاهم لله ، وقف أهل الشر في وجهه ، وكان من جملة اعتراضهم ، أن الذين تابعوك من أراذل القوم ولم يتبعك الأشراف ، ولقد تكلم ابن كثير كلام عظيم على هذه الجملة حيث يقول في تفسير سورة هود عن قصة نوح عند قوله (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) قال : هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف: 23]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل. أهـ كلام ابن كثير قدس الله روحه .

ولما أكثر نوح عليه السلام من مجادلة قومه وقفوا في وجهه قائلين{ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) }

فهذا استعجال من قوم نوح بنقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: فقولهم { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا } أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فرد عليهم رد المشفق العالم بربه فقَالَ (إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يُعجِزُه شيء، { وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ } أي: أي شيء يُجدِي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، { هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد ، مالك الدنيا والآخرة.

ولما أكثروا عليه توجه لربه { فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ } [القمر: 10]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ } فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم ، فلما أيس نوح من إيمانهم وخاف على إيمان الذين معه ، حيث كانوا يسعون في إفساد من آمن ، ويصدون عن سبيل الله كما قال تعالى في سورة نوح (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) عند ذا دعا على قومه بالهلاك، ودعا عليهم دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال:{رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [نوح: 26] .

ثم أمره الله أن يستعد للنجاة من العذاب وذلك بصنع الفلك يعني: السفينة بمرأى من الله وتأييد وتعليم في كيفية صناعتها ، وحذره من رحمت الظالمين والشفاعة لهم فقد جاء أمر الله الذي لا يرد عن القوم الظالمين { وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } .

ولقد اختلفت عبارات المفسرين والمؤرخين في هيئة السفينة وطولها وعرضها ، وليس هناك مستند من السنة ، بل كلها متلقاة عن بني إسرائيل ، ولا نشك أن الله سبحانه قد بين لنوح كيف يصنع الفلك لأنه سبحانه قال (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا)

وأخذ نوح عليه في صناعة السفينة في أرض صحراء قاحلة لا يوجد بها أنهار ولا بحار { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } أي: يَطْنزون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، { قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } وعيد شديد، وتهديد أكيد، { مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ } أي: يهنه في الدنيا، { وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ } أي: دائم مستمر أبدا.

واستمر نوح في صناعة السفينة ، وهو يرتقب وعد ربه ، الذي لا يخلف الميعاد ، حتى جهزت السفينة ، وقد جعل الله له آية تدله على وقت وقوع العذاب ، وعندها يسرع في ركوب السفينة ، ومن أمر بإركابهم معه كما قال تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ (40) }

فكان الموعد نزول الأمطار المتتابعة، والهتَّان الذي لا يُقْلع ولا يفتُر، بل هو كما قال تعالى: { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } [القمر:11 –12]

وأما قوله: { وَفَارَ التَّنُّورُ } فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف. فحينئذ أمر الله نوحا، عليه السلام، أن يحمل معه في

السفينة من كل زوجين –من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات –اثنين. ذكرا وأنثى { وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } أي: "واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته" إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه "يام" الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وركب الجميع في السفينة ممن أذن له في الركوب ، ولم يبق إلا الكافرين ، ممن حقت عليهم كلمة العذاب ، وانقسم الناس إلى ناجين وهالكين رأي العين .

حتى إن نوحا لما رأى ابنه وهو يولي هاربا وهو الابن الرابع، واسمه "يام" قال له يابني اركب معنا ، أي آمن وكن من الناجين ، فرفض الابن الكافر دعوة أبيه ، وهذا قوله تعالى : { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } فقد اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق فقال له أبوه نوح عليه السلام: { لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ } أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله وفي حال تبادل الخطاب جرفه الطوفان كما قال تعالى{ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } فلم ينج من عذاب الله أحد ممن قضى الله عليهم بالهلاك لما وقع العذاب ، وطهر الله الأرض من الشرك وأهله ، أذن الله بزوال العذاب فأمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر فقال سبحانه { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ }

وتم أمر الله في القوم الكافرين ، وأذن الله بنجاة أهل الإيمان ممن كان يركب مع نوح في السفينة ، فأرست السفينة على جبل يقال له الجودي ، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة،

تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام. كما قال سبحانه { ◌َاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

قال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجُودي من أرض الجزيرة عِبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رمادًا كما قال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) .

ومما يذكر في هذه القصة العظيمة أن العذاب إذا انعقدت أسبابه فلا راد له ولا تقبل فيه الشفاعات كما قال الله لإبراهيم الخليل لما دافع عن قومه قال له (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنه آتيهم عذاب غير مردود) وفيه أن الله مع كمال رحمته بخلقه ، فإنه لا يرد غضبه على القوم الظالمين ، فقد روى الحاكم في المستدرك (**342/2**) من حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم أم الصبي"، لما نَبَع الماء، وصار في السكك خشِيت أمّ الصبي عليه، وكانت تحبه حبا شديدًا، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي" . قال الحاكم: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي بقوله قلت: "إسناده مظلم وموسى بن يعقوب ليس بذاك". وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصةُ هذا الصبي وأمه بنحو من هذا.

ومما يذكر هنا قولُ البعض إن الله تعالى أعقم أرحامهم أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير ،ولعلهم قالوا ذلك هربا من تساؤل البعض كيف يهلك الله الصبيان والدواب والسباع وليس لهم ذنب ، والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان ، كما هلكت الطير والسباع. ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير ، بل ماتوا بآجالهم ، فلو لم يأت الطوفان لماتوا لأنه وقت أجلهم ، كما أن أولاد المشركين لهم حكم آبائهم كما جاء في الصحيحين من حديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِالأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ: هُمْ مِنْهُمْ .

ولنعد لقصتنا ، فلما أرست السفينة بأهلها ، ونزل نوح بمن معه من المؤمنين ، تذكر ابنه يام وتذكر أن الله أذن له في نجاة أهله ، وأن ابنه من أهله فطمع في نجاته من الغرق فقال (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45) هود هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق ، { فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدُك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } أي: الذين وعدت إنجاءهم ؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: { وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } [هود: 40]، فكان هذا الولد قد سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا، عليه السلام. فجاء الجواب بما لم يكن على حسبان نوح عليه السلام حيث قال الله له (يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(46)وقد قال بعض المفسرين بناء على ظاهر الآية أن هذا الابن ليس من أبناء نوح بل كان ابنا لزوجته ، وقال بعضهم إنه ابن زنى ،

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب إلى هذا ، ويحكى القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وأبي جعفر الباقر، وابن جُرَيج، واحتج بعضهم بقوله: { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } وبقوله: { فَخَانَتَاهُمَا } [التحريم: 10] وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط .

قال ابن كثير رحمه الله : وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه . وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة وغيره، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: "إنه عَمِل عملا غير صالح"

وكان خاتمة هذه القصة أن قال الله لنوح { اهبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) }

فطمأن الله نوحا ومن معه بالنجاة التامة ، حين أرست السفينة على الجوديّ، فالسلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة،وبهذا تنتهي قصة نوح عليه السلام.

*****

قصة هود وقومه

ونأت الآن على قصة نبي الله هود مع قومه وهم عاد حيث حكى الله قصتهم في سورة الأعراف بعد قصة نوح وكذلك في سورة هود.

وعاد يطلق على عاد الأولى ، وعاد الأخرى أو الثانية ، فأما قوم هود فهم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله تعالى وهم أولاد عاد بن إرم ، قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني: عادا الأولى، كما قال قتادة بن دعامة، والسُّدِّيُّ: إن إرم بيت مملكة عاد. ووصفهم بذات

العماد ، لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشّعر التي ترفع بالأعمدة الشداد كما قال تعالى: { أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ فَعَـلَ رَبُّـكَ بِعَـادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَـادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَـقْ مِثْلُهَـا فِي الْـبِلادِ } [الفجر:6-8] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } [فصلت:15] . وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهي: جبال الرمل قريبًا من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، [كما قال في "سورة الأعراف": { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ] وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً } [الأعراف:69] وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار . حتى ذكر أن الرجل منهم يأتي على صخرة فيحملها على الحي فيهلكهم ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله ،كما قال تعالى (وإذا بطشتم بطشتم جبارين)

أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما مائة سنة .

وقد روى محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال سمعت علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر تخالطه مَدَرَة حمراء ذا أرَاكٍ وسدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنعته نعتَ رجل قد رآه. قال: لا ولكني قد حدِّثتُ عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبرُ هود، عليه السلام.وهذا أثر سنده حسن .

**

قال ابن كثير : وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.أهـ

ولما جاءهم نبيهم هود ودعاهم لتوحيد الله عارضه كالعادة الملأ الذين كفروا من قومه ، والملأ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم -: وقالوا { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد ، فقالوا { أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص : 5] .

وكان هود كإخوانه الأنبياء حليما ، حيث رد عليهم بقوله{ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } أي: ليست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل عامة وهي البلاغة والنصح والأمانة.

ثم قال لهم { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ } أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم، ثم ذكرهم نعمة عظيمة أن جعلهم خلفاء قوم نوح أي من ذريته وأقرب الناس له زمنا ونسبا { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ }، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته عليهم لما خالفوه وكذبوه، { وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } أي: زاد

طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: في قصة طالوت: { وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } [البقرة:247]{ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ } أي: نعمه ومننه عليكم { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

وكان من نصحه لهم أن قال : { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً } اختلف المفسرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة. تبنون هناك بناء محكما باهرًا هائلا؛ وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم، عليه السلام، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال: { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } . قال مجاهد:المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام.

وقال قتادة: هي مأخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء : وتتخذون مصانع كأنكم خالدون". وفي القراءة المشهورة: { لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

وقد روى ابن أبي حاتم، رحمه الله بسنده أن أبا الدرداء، رضي الله عنه، لما رأى ما أحدث المسلمون في الغُوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه كانت قبلكم

قرون، يجمعون فيرعون، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابًا، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟.

وقد استخدم هود عليه السلام مع قومه كل أساليب الدعوة ، فلما أبوا أن يطيعوه وكان رفيقا بهم ، انتقل بعد ذلك إلى وعظهم بأسلوب فيه تهديد عله أن يأتي بنتيجة معهم ، فقَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناما، فصنم يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صمُود، وآخر يقال له: الهباء فهددهم بقرب العذاب بقوله { فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } وكان من حجتهم الباطلة أن قالوا لنبيهم ، { قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } أي إن الرسل من قبلك كانوا يأتون أقوامهم بالبينات والمعجزات وأنت لم تفعل ذلك فقال لهم { قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [هود:53–56]أي هذه معجزتي لكم أني أتحداكم مع ما معكم من قوة وبسطة في الجسم أتحداكم أن تمسوني بسوء ، أنتم وآلهتكم ، فألجمهم الحجة ، ولم يستطيعوا الجواب فضلا عن أن يمسوه بسوء ، فصارت معجزته من أعظم المعجزات الباهرات .

ثم إن هود عليه السلام شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: { وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }

أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.وإنما أجابوه بأبشع الردود حيث { قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) }أي: لا نرجع عما نحن فيه، { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } [هود:53] ثم برروا عدم استجابتهم له بقولهم : { إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ } وكلمة (خلق فيها عدة قراءات : فقرأ بعضهم: "إن هذا إلا خَلْق" بفتح الخاء وتسكين اللام.

قال ابن مسعود، والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد : يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين. كما قال المشركون من قريش لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم: { وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا } [الفرقان:5].

وقرأ آخرون: { إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ } –بضم الخاء واللام –يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛ ولهذا قالوا: { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } .

وبهذا القول قال ابن عباس و عكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

ولا زال هود يدعوهم وهم يأبون عليه ، وبعد هذه النصيحة والموعظة البليغة ، ما كان منهم إلا أن جابهوه بقولهم{ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} فلا أدري كيف ظنوا أن هذه حجةٌ لرد الحق ، ولكنه العنت والصدود ، ثم تحدوه بقولهم {فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } كما قال الكفار من قريش: { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }[الأنفال:32] وحكى الله ماهم عليه من الكبر والبطر بقوله : { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } [فصلت:15] .

وقال جلت قدرته : { فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ } أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، أي: ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) فجعل الله إهلاكهم آية لمن بعدهم لما في طريقة إهلاكهم من العبرة وظهور قدرة الله التي لا يقدرها أحد ولا يستطيع من الخلق أحد ردها ، بل ولا الشفاعة لمن حقت عليهم كلمة العذاب مهما كان قرب وصلاحه ، كما قال سبحانه (ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين)

فلما استنفذ هود كل السبل في دعوتهم ، ولم يرى منهم إلا الصدود والتحدي وطلب العذاب وهم بطلبهم هذا قد حقت عليهم كلمة العذاب ، وأنجى نبيه ومن آمن معه كما قال سبحانه {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) }

وبعد هذا العرض السريع المختصر عن حال عاد مع نبيهم ، ووضوح إصرارهم على الكفر حقت عليهم كلمة العذاب ، فنصر الله نبيه ومن آمن معه ونجاهم من العذاب ،

كما قال سبحانه {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) } وكان في أسلوب عذابهم عبرة .

قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحُرْمة ومكان بيته، وكان معروفا عند المِلَل وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوَذَ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له: "معاوية بن بكر" ، وكانت له أم من قوم عاد، واسمها كلهدة ابنة الخيبري، قال: فبعثت عادٌ وفدًا قريبا من سبعين رجلا إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان – قينتان لمعاوية –وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنياهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قُم فَهَيْنم ... لعلّ الله يُصْبحُنا غَمَاما ...

فَيَسْقي أرضَ عادٍ إنّ عادًا ... قد امْسَوا لا يُبِينُونَ الكَلاما ...

من العطش الشديد فليس نَرجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلاما ...

وَقَد كانَت نساؤهُم بخيرٍ ... فقد أمست نِسَاؤهم عَيَامى

وإنّ الوحشَ تأتيهمْ جِهارا ... ولا تَخْشَى لعاديَ سِهَاما ...

وأنتم هاهُنَا فيما اشتَهَيْتُمْ ... نهارَكُمْ وَلَيْلَكُمُ التماما ...

فقُبّحَ وَفْدكم من وَفْدِ قَوْمٍ ... ولا لُقُّوا التحيَّةَ والسَّلاما ...

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو: "قيل بن عنز" فأنشأ الله سحابات ثلاثا: بيضاء، وسوداء، وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: "اختر لنفسك –أو: –لقومك من هذا السحاب"، فقال: "اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء" فناداه مناد: اخترت رَمادا رِمْدَدًا، لا تبقي من عاد أحدا، لا والدًا تترك ولا ولدا، إلا جعلته هَمدا، إلا بني اللّوذيّة المهندًا قال: وبنو اللوذية: بطن من عاد مقيمون بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم –قال: وهم من بقي من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة –قال: وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون، التي اختارها "قيل بن عنز" بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: "المغيث"، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: { هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا } يقول: { بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا } [الأحقاف:**24 ، 25**] أي: تهلك كل شيء مَرّت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مَهْدد ، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صُعِقت. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مَهْدد ؟ قالت ريحا فيها شُهُب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، كما قال الله. و "الحسوم": الدائمة – فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك واعتزل هُود، عليه السلام، فيما ذكر لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلْتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وذكر تمام القصة بطولها، قال ابن كثير رحمه الله بعد رواية ابن إسحاق وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود:**58**]

 **

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله.أهـ

والحديث الذي عناه ابن كثير قد أخرجه مع أحمد و الترمذي، النسائي و ابن ماجه وسنده لابأس به .ونصه أن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد بسيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله –أو قال: رحله فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدّبَرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مُضطَرُك ؟ قال: قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: "مِعْزَى حَمَلت حتفها"، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد! قال: هيه، وما وافد عاد؟ –وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه –قلت: إن عادا قُحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: "قيل"، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان، يقال لهما: "الجرادتان"، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سُودُ، فنودي: منها

"اختر". فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: "خذها رمادا رِمْدِدا، لا تبقي من عاد أحدا". قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى، هلكوا –قال أبو وائل: وصدق –قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: "لا تكن كوافد عاد".

وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: { وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ } [الحاقة:6-8] فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أمّ رأسه فتثلغُ رأسه حتى تُبينه من بين جثته؛ ولهذا قال: { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } وقد روي أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور، عتت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا، { إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ } [نوح:4]؛ ولهذا قال: { فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }و بهذا نأتي على نهاية قصة عاد التي ذكرها الله عز وجل في كتابه.

*****

قصة ثمود ونبيهم صالح

نبدأ بإذن الله تعالى في قصة قوم صالح وهم ثمود ، وما جرى بينهم من أحداث ، حيث حكى الله قصتهم في أكثر من سورة من القرآن حيث جاء ذكرهم أولا في سورة الأعراف ثم في سورة هود وهكذا عند سرد قصص الأنبياء يأتي ذكر قصة ثمود بعد قوم هود ، وقد اشتملت قصتهم على فوائد وعبر ، ولهذا تكرر ذكرها مرارا وبأساليب مختلفة متنوعة .

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جَديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

كما أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور. فأمرهم

النبي صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور، وعلفوا العجينَ الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: "إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم"

وروى الإمام أحمد أيضا عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم" وأصل هذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين

وروى الإمام أحمد أيضًا عن محمد بن أبي كَبْشَة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فنادى في الناس: "الصلاة جامعة". قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعيره وهو يقول: "ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم". فناداه رجل منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: "أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسَدِّدوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا" .

ولقد شدد الله في خلق ثمود وخلقهم ، وأطال أعمارهم ، وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتا في الجبال.

ولقد دعاهم نبي الله صالح بكل أسلوب ونهاهم عن الشرك وماهم عليه من الضلال ، فما كان منهم إلا أن قالوا { يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا } أي: كنا نرجو أن تكون سيدا فينا. وقيل: كنا نرجو أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى

دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عز وجل وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا { أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } .

ومساكن قوم صالح ظاهرة بارزة فهم يمرون عليها في رحلتهم للشام وقد مر بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب لغزوة تبوك .

وروى الإمام أحمد من حديث جابر قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: "لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فكانت –يعني الناقة –ترد من هذا الفَجّ، وتَصْدُر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلا واحدًا كان في حرم الله". فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: "أبو رِغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه"

وهذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وقد جعل الله لهم آية وهي المعجزة التي أيد الله بها صالح على قومه كما في قوله: { قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صمَاء عَيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر، يقال لها: الكَاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طُلْبتهم ليؤمنن به وليتبعنه؟ فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح، عليه السلام، إلى صلاته ودعا الله، عز وجل،

فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفاء وَبْرَاء يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: "جُندَع بن عمرو" ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم "ذُؤاب بن عمرو بن لبيد" "والحباب" صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس، وكان ل"جندع بن عمرو" ابن عم يقال له: "شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس"، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له مهوس بن عنمة بن الدميل، رحمه الله:

وكانت عُصْبَةٌ من آل عَمْرو ... إلى دين النبيّ دَعَوا شِهَابا ...

عَزيزَ ثَمُودَ كُلَّهمُ جميعا ... فَهَمّ بأن يُجِيبَ فلو أجابا ...

لأصبحَ صالحٌ فينا عَزيزًا ... وما عَدَلوا بصاحبهم ذُؤابا ...

ولكنّ الغُوَاة من آل حُجْرٍ ... تَوَلَّوْا بعد رُشْدهم ذئابا ...

فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بئرها يوما، وتدعه لهم يوما، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملئون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: { وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ } [القمر:28] وقال تعالى: { هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الشعراء:155] وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فَجّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلّع عن الماء، وكانت -على ما ذكر -خَلْقًا هائلا ومنظرًا رائعًا، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها

قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان .

ويؤيد قول قتادة ما ذكره الله في كتابه حيث نسب القتل لهم جميعا فقال : { فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا } [الشمس:14] وقال: { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا } [الإسراء:59] وقال: { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ } فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم.

ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: "عنيزة ابنة غنم بن مِجْلِز" وتكنى أم غَنَمْ كانت عجوزا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذُؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: "صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا" ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت "صدوف" رجلا يقال له: "الحباب" وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: "مصدع بن مهرج بن المحيا"، فأجابها إلى ذلك -ودعت "عنيزة بنت غنم" قدار بن سالف بن جُنْدَع وكان رجلا أحمر أزرق قصيرًا، يزعمون أنه كان ولد زَنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: "صهياد" ولكن ولد على فراش "سالف"، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئتَ على أن تعقر الناقة! فعند ذلك، انطلق "قدار بن سالف" "ومصدع بن مهرج"، فاستفزا غُواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ } [النمل:48] وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا

القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها "قدار" في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها "مصدع" في أصل أخرى، فمرت على "مصدع" فرماها بسهم، فانتظم به عضَلَة ساقها وخرجت "أم غَنَمْ عنيزة"، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها، فسفرت عن وجهها لقدار وذمّرته فشدّ على الناقة بالسيف، فكسفَ عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رَغاة واحدة تحذر سَقْبَها، ثم طعن في لَبَّتها فنحرها، وانطلق سَقْبَها –وهو فصيلها –حتى أتى جبلا منيعًا، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا –فروى عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات. وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، فالله أعلم

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبر صالحا، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: { تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ] } [هود:65] وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح عليه السلام وقالوا: إن كان صادقًا عَجّلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته! { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا } الآية.[النمل:49–52]

فلما عزموا على ذلك، وتواطؤوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح، أرسل الله، سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله، عليهم حجارة فرضَختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النَّظرة، ووجوههم مصفرة

كما وعدهم صالح، عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تَحَنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وقد أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورَجْفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة { فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى –قالوا: إلا جارية كانت مقعدة –واسمها "كلبة بنة السّلْق"، ويقال لها: "الزريقة" وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطلِقَت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن اتبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلا يقال له: "أبو رِغال"، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف" الذين كانوا يسكنون الطائف .

قال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبي رغال فقال: "أتدرون من هذا؟" فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن".

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو ثقيف .

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلا من وجه آخر، فقد أخرجه أبوداود من طريق محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: "هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن".

قال ابن كثير قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز

وقال ابن كثير :تفرد بوصله "بُجَيْر بن أبي بجير" هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحي ابن معين: ولم أسمع أحدًا روى عنه غير إسماعيل بن أمية.

قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين.

قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

ثم لما مر بهم صالح النبي عليه السلام وهم صرعى قال لهم بعد أن تولى عنهم كما حكى الله في كتابه

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }

وقوله هذا من قبيل التقريع لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله،وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العَمى –قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا ، والظاهر أن الله سبحانه أسمعهم ذلك ، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثًا، ثم أمر براحلته فشُدّت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب بدر، فجعل يقول: "يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا" . فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكَلّم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: "والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون".

وفي السيرة أنه، عليه السلام قال لهم: "بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم".

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: { لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ } أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا؛ ولهذا قال: { وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }

وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي عُسْفان حين حَجّ قال: "يا أبا بكر، أيّ وادي هذا؟ " قال: هذا

وادي عُسْفَان. قال: "لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بَكَرات حُمْر خُطُمها الليف، أزُرُهم العبَاء، وأرديتهم النّمار، يلبون يحجون البيت العتيق".

و بهذا نأتي على ختام قصة صالح عليه السلام مع قومه.

****

قصة قوم لوط

قصة قوم لوط عليه السلام، وما حل بهم من النقمة ، وذلك أن لوطا بن هاران بن تارِح وهو آزر فلوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا ، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكانت أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل

من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك من خلق الله من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين.أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون.وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون.فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) [الاعراف: **80 – 84**

وذلك أن لوطا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما نهوا عنه بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم واستضعفوه ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا (أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) [النمل: **56**] فجعلوا غاية المدح ذما يقتضي الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج.

فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين لكن بعدما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج.

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مُجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا وقالوا له فيما قالوا (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) [العنكبوت: 29] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم (قال فما خطبكم أيها المرسلون.قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين.لنرسل عليهم حجارة من طين.مسومة عند ربك للمسرفين) [الذاريات: 31 – 34] وقال (ولما جائت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين.قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) [

العنكبوت: 31 – 34] وقال الله تعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) [هود: 74].وذلك أنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا.ولهذا قال تعالى (إن إبراهيم لحليم أواه منيب.يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) [هود: 75] أي أعرض عن هذا وتكلم في غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، إنه قد جاء أمر ربك أي قد أمر به، من لا يرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: * (أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا لا قال فمائتا مؤمن قالوا لا قال فأربعون مؤمنا قالوا لا قال فأربعة عشر مؤمنا قالوا لا) قال ابن اسحق إلى أن قال (أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا لا قالوا إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها) الآية قال الله تعالى (وقال ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس وسيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب.

لأي شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه * وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق أمامهم

وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا في غيرها فقال لهم: فيما قال والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك،ومضوا خلفه حتى أدخلهم في بيته خفية .

استضافهم لوط يحسب أنهم أضياف ، فإن الملائكة خرجت من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا فقالوا لها يا جارية هل من منزل فقالت لهم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه.

ولقد كان قومه جمعوا الموبقات من العمال الشنيعة كما قال سبحانه (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) [هود: 77] أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة فلما وصلوا للدار وأرادوا الدخول قف في وجوههم (قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) [هود: 78] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث وكما قال تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) [الاخزاب: 6] وفي قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم.

وهذا كقوله (أتأتون الذكران من العالمين.وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) [الشعراء: 165 – 166]

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وهو الصواب.

والقول الآخر ، وهو أنه عرض عليهم بناته ليتزوجوا بهن ، خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد تصحف عليهم كما أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا اثنين وإنهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطا عظيما ، وحاول فيهم لوط واعظا لهم بقوله (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد) [هود: 78] ولكن وللأسف ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفرة أغبياء.

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه.

فقال قومه عليهم لعنة الله ، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد (لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد) [هود: 79] يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا من غير النساء.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم،ذي العذاب الأليم.

ولهذا قال عليه السلام (لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) [هود: 80] ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة مرفوعا: " نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي "وفي رواية " رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد (يعني الله عزوجل – فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه " .

لقد عاجلوا لوطا في مرادهم الخبيث ولم يعلموا ما سطر في اللوح المحفوظ مما هم إليه صائرون.

وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) [الحجر: 72] وقال تعالى (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر.

ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) [القمر – 36 – 38] ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في إلحاح يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في إلحاح وإلحاح فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد " لأحللت بكم النكال ،قالت الملائكة (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) [هود: 81] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتجسسون مع الحيطان.

ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن قال الله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منكم أحد يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه

وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم،إلا امرأته فهي مستثناة من الإسراء فقوله فأسر بأهلك كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها.

ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك.أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

ورجح ابن كثير الأول وقال هو أظهر في المعنى والله أعلم.

قال السهيلي واسم امرأة لوط والهة .

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) **[** هود: **81]** فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ويقال إن امرأته خرجت معه فالله أعلم.

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد.

ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد ،فنزل بهم العذاب قال الله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) **[** هود: **82 – 83]** قالوا اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة. وهذا كما جاء في وصف جبريل عليه السلام في قوله (علمه شديد القوى) قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعا بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الاراضي والمعتملات والعمارات

وغير ذلك ، رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى.

قيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ثم اتبعوا الحجارة كما قال سبحانه (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) [الحجر: 74] والسجيل فارسي معرب وهو الشديد الصلب القوي (منضود) أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء (مسومة) أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه كما قال (مسومة عند ربك للمسرفين) [الذاريات: 34] وكما قال تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) [الشعراء: 173] مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

وأما عن مصير امرأة لوط عليه السلام، فإن لوطا لما سار بأهله ، على خلاف في زوجته هل سارت معه أو لا فإنه يقال إنها مكثت مع قومها ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما

فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) [التحريم: **10**] أي خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه،وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا .

فإن الله لا يقدر على نبي أن تبغي امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبي قط ، ومن قال خلاف هذا فقد اخطأ خطأ كبيرا.

وفي قصة الإفك: لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) [النور: **15 – 16**] أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة ، وقوله ههنا (وما هي من الظالمين ببعيد) أي وماهذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم.

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا نص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى: (وما هي من الظالمين ببعيد).

ولقد قرّب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد: (وما هي من الظالمين ببعيد) .

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه.

ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين في انجائه إياهم من المهلكات.

وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين.

وان ربك لهو العزيز الرحيم) [الشعراء: * – 9] وقال تعالى (فأخذتهم الصيحة مشرقين.

فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل.إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم.إن في ذلك لآية للمؤمنين) [الحجر: 73 – 77] أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعدما كانت آهلة عامرة ، هالكة غامرة ؟ كما روى الترمذي وغيره مرفوعا: " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين).وهو حديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم غير أن الواقع شاهد بذلك .

وقوله (وإنها لبسبيل مقيم) [الحجر: 76] أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن كما قال (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) [الصافات: 137] وقال تعالى (ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون) [العنكبوت: 35] وقال تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون

العذاب الأليم) [الذاريات: 35 – 37] أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط (ومن تشبه بقوم فهو منهم) وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم: فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عزوجل ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال.وإياه أن يتبع كل شيطان مريد.

فيحق عليه الوعيد.ويدخل في قوله تعالى (وما هي من الظالمين ببعيد).

وبهذا القدر تنتهي قصة نبي الله لوط ولنا معها وقفات .

أولا : محلتهم التي وقعت العقوبة عليهم وهم فيها تدعى بحيرة زُغَر " وهي سَدُوم، دار قوم لوط، وتعرف الآن بالمُنْتنة " ويبدو أنها والله أعلم عين زغر التي جعل نضب مائها من علامات خروج الدجال .

ثانيا : أن لقوم لوط عاداتٍ سيئة حذرنا منها ، وللأسف سقط فيها بعض شباب الأمة هذا الزمن ، ومن أمثالها اتخاذ المعازف لاستمالة الغلمان ، ومصاحبتهم ، كما جاء عن السلف أنهم قالوا عن قوم لوط إنهم اتخذوا الطنابير، يستميلون بها الغلمان .

وأعظم منها استمالة الغلمان ومصاحبتهم في الطرقات ، بل أعظم من ذلك وقع الزواج بينهم عياذا بالله من أحوال المغضوب عليهم .

ولعل من أشر الأمور التي جعلت الكثير يسقط في فعلة قوم لوط هي صحبة المردان التي حذر منها السلف ولعلنا نعرض لبعض أقوالهم باختصار فمن ذلك قول بعض العلماء: (لا يشتغل بالأحداث إلاَّ من باعده الله عن قربه) .

وقال بعض الحكماء: (صحبت ثلاثين شيخاً كلهم أوصاني: اتق معاشرة الأحداث).

وقال الحسن بن ذكوان: (لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإنَّ لهم صوراً كصور العذارى وهم أشد فتنة من النساء) .

وقال بعض التابعين: (ما أنا بأخوف على الشاب الناسك من سَبُع ضارٍ من الغلام الأمرد يقصد إليه، وكان يقول: لا يبيتن رجل مع أمرد في مكان واحد) .

وقال يحيى بن معين: (ما طمع أمرد بصحبتي) .

وقال أحمد المؤدب: (رأينا من إذا رأى الحدث أقبل ؛ فرّ فراره من العدو) .

وقال بعض العلماء: (من صحب الأحداث على شرط السلامة والنصيحة أداه ذلك إلى البلاء، فكيف بمن يصحبهم على غير وجه السلامة) .

ولقد حرّم العلماء الخلوة في بيتٍ أو حانوتٍ أو حمام مع الأمرد، قياساً على المرأة، وفي المُرِدِ من يفوق النساء لحسنه، والفتنة به أعظم .

فيا أيها الأولياء: اتقوا الله في أولادكم، وانظروا مع من يسيرون، قبل حصول البلاء والنقمة، فإنَّ الصبي الصغير، قد يُعجب ويفتن بأصدقاء السوء لأي غرض دنيوي، ولا يزالون به حتى يكون فريسة لهم .

فينبغي للولي أن يربي ابنه على الحياء وقلّة الخلطة للأجانب وأن يَعرِف أصحابه، وأن يختار له أهل الخير والعفاف ويحذره من أهل الشر والفساد منذ نعومة أظفاره، وأن يُعلّمه أخلاق الرجال والآداب الحسنة، وأن يجنبه التجمل المتكلّف، والاغترار بجماله إن كان له، وأن يحذره من القصات المحرمة المشابهة للنساء، فإنَّها هي مفتاح اللواط ،وأن يجنبه اللبسات الفاتنة، المشابهة للنساء .

أيها الآباء والأبناء:

إنَّ اللواط مرضٌ معدٍ، وعلاجه بعد وقوعه، من أصعب الأمور، فعليكم بالوقاية قبل العلاج .

قال ابن القيم رحمه الله:

وهذا داءٌ أعيا الأطباءَ دواؤه، وعزَّ عليهم شفاؤه، وهو لعمر الله الداء العضال، والسم القتّال الذي ما علِق بقلبٍ إلاَّ عز على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلاَّ وصعُبَ على الخلق تخليصها من ناره، أهـ .

تمت قصة لوط عليه السلام مع قومه ولله الحمد.

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

نأتي على قصة نبي الله شعيب مع قومه أهل مدين ، حيث أن زمن شعيب كان قريبا من زمن الخليل إن لم يعاصره ، والمجزوم به أنه بعد قوم لوط حيث قال سبحانه مبينا ذلك في خطاب شعيب لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) فهم بعدهم في الزمن ، وقريبين من

مكان سكنهم أيضا ، وقد قيل إن شعيبا كان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق وعن وهب ابن منبه أنه قال شعيب ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام.

ذكره ابن قتيبة ، وقد حكى ذلك ابن كثير في البداية والنهاية وقال وفي هذا كله نظر والله أعلم.

وقد كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط .

ولقد قص الله لنا جدال شعيب لقومه ، والمتأمل فيه يرى فصاحة نبي الله شعيب وما أوتى من الحجج

وكان بعض السلف يسمي شعيبا خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته .

وقد روى مرفوعا تسميته بخطيب الأنبياء رواه الحاكم طريق ابن إسحاق عن الماجشون مرسلا وسكت عنه الذهبي ، ولكن صح عند ابن أبي حاتم عن سفيان ومالك تسميته بخطيب الأنبياء .

قال حدثنا أبي ثنا الفضل بن دكين، ثنا سفيان: " وإنا لنراك فينا ضعيفا "

قال :كان ضعيفا وكان يقال خطيب الأنبياء

وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى، قراءة، أنبأ ابن وهب، قال: سمعت مالكا، يقول:"كان شعيبٌ خطيب الأنبياء."

وكان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ، قال أهل اللغة : الأيكة الشجر الكثير الملتف وقيل هي الغيضة تُنْبِتُ السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر وخص بعضهم به منبتَ الأثل ومجتمَعَه وقيل الأيكة جماعة الأراك وقال أبو حنيفة قد تكون الأيكة الجماعة من كل الشجر حتى من النخل قال والأول أعرف . أهـ كلامهم

و كان أهل من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيها يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشيائهم وإخافتِهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد.

ومما أنزل الله في قوم مدين ما ذكره الله في سورة الأعراف حيث يقول تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) [الشعراء: 85] أي دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني ، وما أرسل الله من نبي إلا أجرى على يديه من المعجزات مايؤمن على مثله البشر كما أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال : قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– :«مَا مِن نبيّ من الأنبياء إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مثلُهُ آمَنَ عليه البشر، وَإِنَّما كانَ الذي أُوتيتُهُ وَحْيا أَوْحَاهُ الله إِليَّ ، فأرجو أن أَكونَ أَكثرَهُم تابعا يومَ القيامةِ» ونبي الله شعيب لم يذكر لنا في القرآن عن ماهية معجزته ، ولم يفصل فيها ، إلا أن لفظ القرآن قد دل عليها إجمالا كما في قوله (قد جاءتكم بينة من ربكم) ، وكان من جملة نصحه لهم بعد أن طالبهم بتوحيد الله تعالى أن خص معصيتهم الظاهرة المنتشرة والتي

تقوم على الظلم للغير ألا وهي نقص الميزان فقال لهم (أوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) [الأعراف: 85] فأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط) [الأعراف: 86] أي طريق (توعدون) أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل ،قال السدي في تفسيره عن الصحابة (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة .

ويقال إنهم أول من أخذ العشور على المارة ، كما روى ذلك عن ابن عباس .

إضافة إلى ذلك كانوا يصدون عن سبيل الله من آمن أو أراد الإيمان كما قال سبحانه (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) [الأعراف: 86] فهم يقطعون الطريق على المسافر ويقطعون الطريق على من أراد الهداية والعياذ بالله كما قال ابن كثير رحمه الله : نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية .

وكان من نصح نبي الله شعيب لهم أنه ذكرهم بآيات الله ونعمه عليهم حيث قال (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم في القصة الأخرى (ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) [هود: 84] أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم.

وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة.

فنهاهم أولا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمرا بعد ما كان عن ضده زاجرا (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) [هود: 86] قال ابن عباس والحسن البصري (بقيت الله خير لكم) أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس ، وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال ابن كثير رحمه الله تعليقا على كلام ابن جرير، وهذا الذي قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) [المائدة: 100] يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) [البقرة: 276] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قُل " رواه أحمد مسند أحمد ج 1 / 395 و 424. أي إلى قُلة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما " والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وإن كثر ولهذا قال نبي الله شعيب (بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) وقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري ، وبعد هذه النصائح المتوالية بالأسلوب الطيب لم يكن منهم إلا أن ردوا عليه باستهتار واستهزاء قائلين له (يا شعيب

أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد) [هود: 78]

فعاجلهم بالرد المفحم علهم أن يرجعوا ، وحتى لا يخرج منهم مايغضب الله عليهم فتحل بهم العقوبة كما حلت بمن قبلهم لما كذبوا رسل ربهم فقال لهم (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) [هود: 88] هذا كلام عظيم وعبارة موجزة مع ما فيها من تلطف ، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة ، فيقول لهم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وهي الحجة ، والأمر من الله بالبلاغ ، ورزقني منه النبوة والرسالة إليكم ، ومع ذلك عميت عليكم أن تعرفوها فأي حيلة لي بكم ، ومع ذلك إني آمركم بالأمر وأنا أول من يطبقه ، وأنهاكم عن الشيء وأكون أول تارك له ، وهذه هي خصال المؤمنين وأولى من يطبقها المرسلون ، وهي من علامات الصدق ، لا كما فعل علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون ،قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) [البقرة: 44] وقد ذم الله الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتمرون به وينهون عن المنكر ويأتونه كما ورد في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه – أي تخرج أمعاؤه من بطنه – فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى،كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " فهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء، والذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب (وما

أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي (وما توفيقي) أي في جميع أحوالي (إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) أي عليه أتوكل في سائر الأمور واليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال (ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد)

[هود: 89] أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) قيل معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم ،وقيل معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان.

وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات.

ولما حكى ابن كثير هذه الأقوال في كتابه البداية والنهاية قال "والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفاتٍ" أهـ

ثم مزج نبي الله شعيب الترهيب بالترغيب فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) [هود: 90] أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب

ولو بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام ، وبعد هذا النصح الجميل المتفنن فيه بكل أسلوب ماكان جوابهم إلا أن (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما نقول وإنا لنراك فينا ضعيفا) [هود: 91] روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا كان ضريرَ البصر ،وقالوا (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) [هود: 91] وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا (ما نفقه كثيرا مما تقول) أي ما نفهمه ولا نتعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا

عاملون) [فصلت: 5] وقولهم (وإنا لنراك فينا ضعيفا) أي مضطهدا مهجورا (ولولا رهطك) أي قبيلتك وعشيرتك فينا (لرجمناك وما أنت علينا بعزيز).

ولكن نبي الله شعيبا لم ييأس بل قال لهم (يا قوم ارهطي أعز عليكم من الله) [هود: 92] أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم، ولا تخافون غضب الله عليكم بتكذيبكم لي ولا تراعوني لأني رسول الله فصار رهطي أعز عليكم من الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أي جانب الله وراء ظهوركم (إن ربي بما تعملون محيط) [هود: 92] أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

(ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب) [هود: 93] وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار.

ومن يحل عليه الهلاك والبوار (من يأتيه عذاب يخزيه) أي في هذه الحياة الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أي في الأخرى (ومن هو كاذب) أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر (وارتقبوا إني معكم رقيب) ، ولقد كان تابع شعيبا رهط من قومه ، فانحاز بهم عن القوم الكافرين ، وأخبر قومه الكافرين أنه قد سلك معهم كل سبيل ، وأنه أدى ماعليه من البلاغ ، والآن سينتظر فصل الله بينه وبينهم فقال لهم كما حكى الله في كتابه (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) [الأعراف: 87] ولكن قومه الكافرين ازدادوا عنادا وعتوا فإنهم لما جابهم بهذا الكلام قالوا له لن ندعك على دينك أنت ومن آمن بك فإما أن تتابعونا أو تفارقونا كما قال الله في كتابه (قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) فرد عليهم نبي الله بقوله قال أو لو كنا كارهين. أي هل نعود للكفر بعد إذ أنقذنا الله منه ونحن نكره العودة في الضلال بعد الهدى ، ولو عاد من آمن في ملتكم فإنهم لا يعودون إليكم اختيارا وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارا مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه ولا محيد لأحد منه ولهذا قال (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا) أي فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا . ثم بعد هذه المحاجة العظيمة ، استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم ، كما قال الله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) أي احكم بيننا وبينهم وأنت خير الحاكمين، فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه.

ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون ، فذهبوا يصدون عن سبيل الله من آمن بالله ، فذهبوا إليهم فقالوا لهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) [الأعراف: 90] قال الله تعالى: (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) [الأعراف: 91] ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركاتِ بها ولا حواس لها ، وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفةً شديدة أسكنت الحركات وصيحةً عظيمة أخمدت الأصوات وظلةً أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولقد ذكر ابن كثير رحمه الله مناسبة تعدد العقوبات عليهم حيث يقول :إن الله تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ففي سياق قصة الأعراف ارجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق ، وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص (أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) [هود: 87] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان إجابة لما طلبوا ، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا.

فإنهم قالوا (إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال رب أعلم بما تعملون) [الشعراء: **185 – 188**] قال الله تعالى (وهو السميع العليم فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) [الشعراء: **189**] أهـ كلام ابن كثير

أيهاالقارئ الكريم، لعل البعض يتساءل هل أهل مدين هم أصحاب الأيكة أم غيرهم ؟

فإن بعض المفسرين قال بأنهما أمتين مختلفتين ، كقتادة وغيره ، واستدلوا بأمرين ، الأول : بأن الله جل وعلى لما ذكر أهل مدين قال أخاهم قال: (وإلى مدين أخاهم شعيبا) ولما ذكر أصحاب الأيكة لم يقل أخاهم كما في قوله (كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب)

والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

ولقد ضعف ابن كثير رحمه الله هذا القول وأجاب عن استدلالهم بقوله :الجواب عن الأول أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله: (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة ، وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن ،فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق

محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: " إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام ".

فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه ،والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني اسرائيل والله أعلم ،ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب ،وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب.أهـ رحمه الله

ويوم الظلة كان كما وصفه الله عذاب يوم عظيم (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح .

(فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) [الأعراف: 91 – 92].

(ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين)، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) [هود: 94 – 95].

وقال تعالى (وقال الملأ من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون.فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) [الأعراف: 90 – 92] .

وهذا في مقابلة قولهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) [الأعراف: 93] ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخا ومؤنبا ومقرعا فقال تعالى (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) [الأعراف: 93] أي أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أي قد أديت ما كان واجبا علي من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة.

ولهذا قال فكيف آسى –أي أحزن –على قوم كافرين أي لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا تلتفون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه.

وفي هلاك المكذبين أمام أعين المرسلين عبرة ألا وهي نصرة الله لأوليائه ، وقرة عيون الرسل بنصرهم على المكذبين .وقد ذكر الحافظ بن عساكر في تاريخه عن ابن عباس أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام.وعن وهب بن منبه أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم.

تمت قصة شعيب عليه السلام مع قومه ولله الحمد.

*****

قصة بلعام بن باعورا

بلعام بن باعورا هو عالم من بني إسرائيل آتاه الله علما فأخلد إلى الدنيا فكان علمه وبالا عليه وقد قص الله قصته في سورة الأعراف حيث يقول سبحانه (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)...الآيات من سورة الأعراف

أخرج عبد الرزاق في تفسيره عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، في قوله تعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا [فَأَتْبَعَهُ] } الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بَلْعم بن أبَرَ.

وقال العَوْفِي، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بَلْعَم، آتاه الله آياته فتركها.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مَدْين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام.

وقد روي عن عبد الله بن عمرو [رضي الله عنهما] بسند صحيح في قوله: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ [آيَاتِنَا] } (8) قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت.

لكن قال ابن كثير رحمه الله : وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله ، وقد جاء في بعض الأحاديث: "أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه"؛ فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.أهـ

والحديث الذي أورده ابن كثير ، قد أورده بلفظه في البداية والنهاية "**12/1**" وقال حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات. وأخرجه أحمد في مسنده "**256/1**" وأورده البيهقي في الأسماء والصفات صفحة "**360**" ص.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: "بلعام" وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السلف: كان [رجلا] مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه.

وقد زعم بعض المفسرين أن المقصود بقوله آتيناه آيتنا ، أنها النبوة ، كما حكاه ابن جرير في تفسيره عن بعض المفسرين ، وقد أنكره ابن كثير رحمه الله .

وقصة بلعام وردت في كتب التفسير حيث جاءت بعدة روايات وكلها مما تلقفه الصحابة والتابعون عن بني إسرائيل ولعلنا نورد مالا نكارة فيه مما يشهد له ظاهر القرآن ، ومما يستأنس به في هذه القصة ، فقد قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم -يعني بالجبارين -ومن معه، أتاه يعني بلعام ، أتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: { فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ }

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل: ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سُئل عن هذه الآية: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا [فَانْسَلَخَ مِنْهَا] } فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام، وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام –أو قال: الشام –قال فرُعب الناس منه رعبًا شديدًا، قال: فأتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوَامر ربي –أو: حتى أؤامر –قال: فوامر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نبيهم. قال: فقال لقومه: إني قد آمرت ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فوامر، فلم يَحُر إليه شيء. فقال: قد وامرت فلم يَحُر إلي شيء! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم، جرى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه –أو نحوًا من ذا إن شاء الله. قالوا ما نراك تدعو إلا علينا. قال: ما يجري على لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لي، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء يَسْتقبلنهم ؛ فإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزنوا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها –أو بلعام–: لا تمكني نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا في الزنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل، قال: فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا. قال: فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكنيه قال: ويأتيهما رجل من بني هارون

ومعه الرمح فيطعنهما. قال: وأيده الله بقوة. فانتظمهما جميعا، ورفعهما على رمحه فرآهما الناس –أو كما حدَّث –قال: وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفا.

قال أبو المعتمر: فحدثني سَيَّار: أن بلعامًا ركب حمارة له حتى أتى العلولي أو قال: طريقا من العلولي جعل يضربها ولا تُقْدم، وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا } إلى قوله: { لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }

قال: فحدثني بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره. .أهـ ابن جرير

قلت : سيار الشامي، كان من أهل الكتاب ثم أسلم. وهو الذي جاء بتلك الحكاية ، وفي القصة بعض الألفاظ المنكرة ، مثل كون بلعام نبيا ، ومثل سجوده للشيطان ، ومثل هلاك سبعون ألفا من قوم موسى بالطاعون ، وأصل القصة مروية بطرق أخرى ، وإن كان مصدرها كتب بني إسرائيل ، وقد جاء فيها منكرات كثيرة أعرضت عنها عمدا ، فهذا مجمل كلام السلف ، وهو كما سمعنا مما تلقف عن بني إسرائيل وليس فيه شيء مرفوع ، أما كون القصة في رجل آتاه الله علما ، ففتن بالدنيا ، ولم ينفعه علمه ، فهذا ظاهر من الآيات ، أما اسمه ، وتفاصيل قصته فهذه مما لا يصدق ولا يكذب حتى ولو جاء عن الصحابة فهم إنما أخذوه عن بني إسرائيل ، فالله تعالى أعلم .

وفي القصة من الفوائد أن العالم قد يزل ويفتن ، وأنه ليس بمعصوم بل بشر يعرض له ما يعرض للبشر ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : وعن ابن مسعود قال : من كان مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد صلى

الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . وهذا كلام عليه النور وإن كان قد رواه رزين بسند ضعيف .

ويدل عليه ما أخرجه الدارمي في مسنده بسنده صحيح عن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قال : قلت : لا . قال : يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين "

وأخرج مسلم عن ابن سيرين قال : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

عصمنا الله وإياكم من الفتن ماظهر منها وما بطن .

و هكذا تمت ولله الحمد قصة بلعام بن باعورا.

*****

قصة استخراج ذرية آدم وأخذ الميثاق

قصة أخذ الميثاق على بني آدم وهم في ظهور آبائهم كما قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ...) الآية من سورة الأعراف

هذه الآية تكلمت على أن الله أخذ على الناس ميثاقا وهم في ظهور آبائهم وأشهدهم على وحدانيته وربوبيته ، فأقروا ، وفيها أنه سبحانه سيسألهم عن ذلك يوم القيامة ، وقد اختلف أهل العلم متى كانت هذه الواقعة ، فقال بعضهم إن الله لما خلق آدم استخرج من صلبه ذريته كلهم كما جاء هذا في أكثر من حديث ، و كما هو الظاهر من الآية ، ولكن يعترض لقارئ الآية سؤال ، كيف يسألني الله عن هذا الميثاق يوم القيامة وأنا لا أذكره بتاتا ؟

ولهذا أحببت أن أذكر هذه الآية وإن لم تكن من القصص التي يشملها منهجنا فأقول الميثاق: مأخوذ من الوثاق فهو اسم مصدر، وأصله الشد والربط، من وثق الشيء وأوثق إذا شد وربط، فالميثاق: هو ما عقد الله جل وعلا الناس عليه، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى من آدم وذريته، يدل على ذلك قول الله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ] الأعراف:172-173] فهاتان الآيتان فيهما الإشارة إلى الميثاق الذي أخذه الله جل وعلا على الناس .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في حقيقة الميثاق، هل هو ما جاء في بعض الأحاديث كما في حديث ابن عباس : (أن الله سبحانه وتعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم، ونثرهم بين يديه كالذر، ثم قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى) أي: أقروا له بالربوبية سبحانه وتعالى؟ على هذا حمل جماعة من العلماء الميثاق في هذه الآية وفسروه به، فقالوا: قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ] الأعراف:172] هو ما أخذه الله تعالى في عالم الذر مما كان قبل خلقهم.

وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أخذ الله الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا – إلى قوله – الْمُبْطِلُونَ} وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين

بن محمد به، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً ، وجاء من طرق كثيرة أكثرها موقوفة على ابن عباس وهو الذي يرجحه متقدمي أهل الحديث ، ولهذا خالف بعض العلماء فقالوا لا يمكن أن يكون هذا هو الميثاق والناس لا يذكرونه ثم هو لا يطابق الآية كما سيأتي وقالوا إن الميثاق المذكور في الآية الذي أخذه الله تعالى على بني آدم هو ميثاق الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو المشار إليه في قوله تعالى: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ [الروم:30] ، وهو المشار إليه فيما أخرج صاحبا الصحيح عن أبي هريرة قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة) فالفطرة: هي الإقرار بالرب جل وعلا، وهو المشار إليه فيما رواه الإمام مسلم في حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (قال الله تعالى :خلقت عبادي حنفاء –أي: على التوحيد– فاجتالتهم الشياطين) أي: صرفتهم ، وهذا أمر لا ينكره أحد، بل هو مما ركز في الفطر، ولذلك كان المشركون إذا سئلوا: من الخالق؟ من الرازق؟ من المالك؟ من المدبر؟ كانوا يجيبون: الله، وهذا إقرار منهم بمقتضى الميثاق الذي واثقهم الله وفطرهم عليه، وهذا الذي ذهب إليه جماعة من العلماء: منهم شيخ الإسلام رحمه الله، ومنهم ابن القيم ، وأن الميثاق ليس ما جاء في بعض الأحاديث: من أنه أخرجهم من ظهر أبيهم في عالم الذر وأخذ عليهم الميثاق، قالوا: ومما يدل على ذلك: أولاً: أن الأحاديث التي وردت فيها ضعيفة، وأن هذا الميثاق لا يذكره أحد ، والله سبحانه وتعالى قال في الآية ما يدل على أن هذا الميثاق حاضر في أذهانهم لا يغيب عنهم، فقال سبحانه وتعالى: أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الأعراف:172] يعني: لئلا تقولوا إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الأعراف:172] ، ومعنى الآية: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا [الأعراف:172] يعني: هذا الأخذ من ظهور بني آدم

علته وسببه: أن لا يقول الناس يوم القيامة: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الأعراف:172] ، وهل يذكر الناس هذا الميثاق؟ الجواب: لا. فإذا كانوا لا يذكرونه في الدنيا فالغفلة عنه وعدم ذكره في الآخرة من باب أولى، وهذا مما يؤيد أن الميثاق الذي أخذه الله عز وجل هو ميثاق الفطرة، ولأن الآية ليس فيها ما يدل على ذلك، فإن الله عز وجل قال: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ] الأعراف:172] ولم يقل: (من آدم) فالأخذ من بني آدم وليس من آدم، ولم يقل: من ظهره، بل قال: (من ظهورهم) ولم يقل: ذريته، بل قال: (ذريتهم) كل هذا يدل على أن الأخذ ليس ما جاء في حديث ابن عباس ، وأن الأخذ هنا هو أخذ الميثاق عليهم حيث فطرهم جل وعلا منذ أوائل خلقهم، وهو خروجهم من آبائهم نطفاً إلى أرحام أمهاتهم فمن تلك اللحظة أخذ الله جل وعلا الميثاق عليهم بالفطرة التي قارنت خلقهم. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) والفطرة التي ولد عليها هي الإقرار بالتوحيد للرب جل وعلا لو خلي من الموانع والشواغل والصوارف. فإذا كان كذلك فما الجواب على قوله: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ [الأعراف:172]؟ يقول: (أشهدهم على أنفسهم) الشهادة على أنفسهم في القرآن يراد بها الإقرار، ولا يلزم في هذا النطق، بل الشهادة تكون حالاً ومقالاً. فالشهادة على النفس معناها الإقرار أي :جعلهم مقرين بهذا الميثاق: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ [الأعراف:172] أي :قررهم عليه، والشهادة لا يلزم منها التكلم، بل قد تكون الشهادة بالحال لا بالمقال، ومن ذلك قوله تعالى: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ [التوبة:17] وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر حالاً لا مقالاً، فإنهم لم يقروا بأنهم كفار، إنما شهادتهم شهادة حالية لا شهادة مقالية. وكذلك قوله: قَالُوا بَلَى [الأعراف:172] القول قد يكون باللفظ، وقد يكون بالحال، وقد أطال شيخ الإسلام رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل لتقرير هذا المعنى،

وكذلك نقله ابن القيم في أحكام أهل الذمة، والمراد أن الآية ليس فيها دليل على ما ذكر في الميثاق السابق الذي جاء في حديث ابن عباس . أما إخراج الذرية فقد جاءت فيه أحاديث كثيرة، لكن ليس منها صحيح يثبت أن الله كلمهم وخاطبهم، إنما فيها أن الله أخرجهم وميزهم إلى فريقين: إلى أهل السعادة وإلى أهل الشقاء، وهذا ليس فيه ذكر للميثاق، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وهي ثابتة صحيحة، لكن الذي لم يصح هو تكليم الله لهم في ذلك الوقت وإخراجهم وأخذه الميثاق عليهم. ومن الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به قال: فيقول: نعم فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي" .

و بهذا ينتهي الحديث عن أخذ الميثاق على بني آدم.

*****

قصة خذلان الشيطان للكفار في غزوة بدر

قال الله تعالى (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) حيث إن الشيطان جاء لكفار قريش ليثبتهم ، ويقوي عزائمهم ، عسى أن يهزموا محمدا ، وإن لم يهزموه فيكفيه أنه أخرجهم يصدون عن سبيل الله ، ويحادون الله ورسوله ، فقد حسَّن لهم –لعنه الله –ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا } [النساء:**120**].

قال ابن جريج قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين: أن أحدا لن يغلبكم، وإني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، { نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ } قال: رجع مدبرا، وقال: { إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ } الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك

بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: { لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ } فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه –وكانت يده في يد رجل من المشركين –انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: { إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وذلك حين رأى الملائكة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ } فتشبث الحارث بن هشام به فنخر في وجهه، فخر صعقا، فقيل له: ويلك يا سراقة، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا. فقال: { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عقبة، عن شعبة –مولى ابن عباس –عن ابن عباس قال: لما تواقف الناس أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف. وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدوُّ الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ } فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر، ورفع ثوبه وقال: يا رب، موعدك الذي وعدتني .

وفي الطبراني المعجم الكبير (42/5) من طريق عبد العزيز بن عمران عن رفاعة بن يحيى بن معاذ بن رفاعة عن رفاعة بن رافع، رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (82/6): "وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف".

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي –وكان من أشراف بني كنانة –فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا.

قال محمد بن إسحاق: فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام –أو: عمير بن وهب –فقال: أين، أي سراق؟ ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبيه، وقال: { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ } وصدق عدو الله، وقال: { إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وهكذا روي عن السدي، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: { إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ } وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالى: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ } [الحشر:16]،وقوله تعالى: { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [إبراهيم:22].

وقال يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحى الله إليهم: أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ } وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذًا. وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: { إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا } [الأعراف:123] ، وكقوله { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } [طه:71]،وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

ما رُئِيَ إبليس في يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر". حيث رأى الملائكة ، ولربما ظن أن القيامة قد قامت فولّى هاربا .

*****

قصة سبب نزول سورة التوبة

لقد اشتملت سورة التوبة على قصص كثيرة نبدأ بذكر حكم انفردت به هذه السورة العظيمة من بين سور القرآن ألا وهو أن جميع سور القرآن ينزل قبلها بسم الله الرحمن الرحيم عدا سورة التوبة فما هو السبب ؟

والجواب أن من المعلوم أن سورة التوبة هي آخر سورة نزلت من القرآن كما أخرج البخاري في صحيحه عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ } [النساء: 176] وآخر سورة نزلت براءة .

وإنما لا يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، كما أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ووضعتموها في السبع الطّوّل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيءُ دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذْكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: "ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحَسِبْتُ أنها منها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فوضعتها في السبع الطول .أهـ

وقيل لم تكتب البسملة لما بينهما من الاتفاق في المعنى كما يروى عن أُبي بن كعب أنه قال : إنما توهموا ذلك ، لأن في الأنفال ذكر العهود ، وفي براءة نبذ العهود . فوضعت إحداهما بجنب الأخرى. وقيل أيضا : أن الصحابة اختلفوا في أن سورة الأنفال وسورة التوبة سورة واحدة أم سورتان ؟ فقال بعضهم : هما سورة واحدة لأن كلتيهما نزلت في

القتال ومجموعهما هذه السورة السابعة من الطوال وهي سبع ، وما بعدها المئون . وهذا قول ظاهر لأنهما معا مائتان وست آيات ، فهما بمنزلة سورة واحدة . ومنهم من قال هما سورتان ، فلما ظهر الاختلاف بين الصحابة في هذا الباب تركوا بينهما فرجة تنبيهاً على قول من يقول هما سورتان ، وما كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم بينهما تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة .

وقيل كما قال ابن عباس : سألت علياً رضي الله عنه : لم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم بينهما ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود ، وليس فيها أمان . ويروى أن سفيان بن عيينة ذكر هذا المعنى . والله أعلم بالصواب .

ومن أوائل قصص هذه السورة العظيمة ما جاء في سبب نزولها ، يقول تعالى (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) الآيات من سورة التوبة ، فقد نزلت سورة التوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من غزوة تبوك فهَمَّ بالحج، ثم ذُكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، أميرًا على الحج هذه السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة ، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكونه عَصَبَة له، كما سيأتي بيانه.

فقوله: { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله { إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } وذلك أن دولة الإسلام قد

قامت واكتمل أمرها ، وقوي شأنها ، وذلت لها جميع الطوائف والملل ، أراد الله أن يطهر أطهر بقاعة من الشرك وأرجاسه ، فنزلت البراءة من المشركين ، و اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيرا، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته ، مهما كان ؛ لقوله تعالى: { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:4] ولما أخرج أحمد في مسنده من حديث علي رضي الله عنه : "ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته". قال ابن كثير رحمه الله وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله، ورُوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغير واحد. وهو ترجيح الشنقيطي رحمه الله .

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } قال: حَدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيثما شاؤوا، وأجل أجل من ليس له عهد، انسلاخَ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس.

وقال الضحاك بعد قوله: فذلك خمسون ليلة: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر ممن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف حتى يدخلوا في الإسلام.

وأخرِج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر، رضي الله عنه، في تلك الحَجَّة في المُؤَذِّنين، بعثهم يوم النحر، يُؤَذِّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤَذِّن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذَّنَ معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان .

******

القصص الواردة في سورة التوبة

أهمية سورة التوبة في كشف المنافقين:

لقد كان لسورة التوبة أهمية في فضح المنافقين حيث إن هذه السورة سميت بالفاضحة أو الكاشفة وذلك لأنها تتبعت عورات المنافقين وفضحتهم واحدا واحدا بصفاتهم حتى خشوا أن تذكر أسماؤهم ، ولقد كان لهذه السورة عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منزلة عظيمة ، ومن ذلك إطلاقهم عليها عدة أسماء مثل الفاضحة لأنها فضحت المنافقين. قيل : كانوا سبعين رجلاً أنزل الله أسماءهم وأسماء آبائهم في القرآن ، ثم رفع ذلك ونسخ رحمة ورأفة منه على خلقه ، لأن أبناءهم كانوا مسلمين.

ولهذه السورة أسماء أخر ، وقعت في كلام السلف ، من الصحابة والتابعين ، فروي عن ابن عمر ، عن ابن عبّاس : كنّا ندعوها (أي سورة براءة) المقشقِشة (بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشَهُ إذا أبْرَاه من المرض) ، كان هذا لقباً لها ولسورة

الكافرون لأنهما تخلصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك ، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص ، ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين .

وكان ابن عبّاس يدعوها الفاضحة : قال ما زال ينزل فيها ومنهم ومنهم حتى ظننّا أنّه لا يبقى أحد إلاّ ذكر فيها .

ولقد كانت تفضح المنافقين بحيث أنّ ما تحكيه من أحوال المنافقين يَعرف به المتّصفون بها أنّهم المراد فعرف المؤمنون كثيراً من أولئك مثل قوله تعالى : ومنهم من يقول ائذَن لي ولا تفتنِّي ((التوبة : 49) فقد قالها بعضهم وسمعت منهم ، وقوله : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ((التوبة : 61) فهؤلاء نقلت مقالتهم بين المسلمين . وقوله : (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ((التوبة : 42) .

وعن حذيفة : أنّه سمّاها (سورة العذاب) لأنّها نزلت بعذاب الكفّار ، أي عذاب القتل ، والأخذ حين يثقفون .

وعن عبيد بن عمير أنّه سمّاها (المنقِّرة) (بكسر القاف مشدّدة) لأنّها نقرت عمّا في قلوب المشركين (لعلّه يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتمالي على نقض العهد ، وهو من نَقَر الطائر إذا أنفى بمنقاره موضعاً من الحصى ونحوه ليبيض فيه) .

وعن المقداد بن الأسود ، وأبي أيّوب الأنصاري : تسميتها (البَحوث) بباء موحّدة مفتوحة في أوّله وبمثلّثة في آخره بوزن فعول بمعنى الباحثة ، وهو مثل تسميتها (المنقّرة) .

وعن الحسن البصري أنّه دعاها (الحافرة) كأنّها حفرت عمّا في قلوب المنافقين من النفاق ، فأظهرته للمسلمين .

وعن قتادة : أنّها تسمّى (المثيرة) لأنّها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها . وعن ابن عباس أنّه سمّاها (المبعثرة) لأنّها بعثرت عن أسرار المنافقين ، أي أخرجتها من مكانها .

وفي (الإتقان) : أنّها تسمّى (المخزية) بالخاء والزاي المعجمة وتحتية بعد الزاي ولعلها سميت بذلك لقوله تعالى : (وأن الله مخزي الكافرين) (التوبة : **2**) .

وفي (الإتقان) أنّها تسمّى (المنكّلة) ، أي بتشديد الكاف . وفيه أنّها تسمّى (المشدّدة) .

وعن سفيان أنّها تسمّى (المدمدمة) بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك ، لأنّها كانت سبب هلاك المشركين . فهذه أربعة عشر اسماً .

******

قصة الجد بن قيس :

ومن أوائل هذه القصص في هذه السورة العظيمة قوله تعالى (وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (**49**) قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رُومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، وهو في جهازه، للجد بن قيس أخي بني سلمة: "هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟" فقال: يا رسول الله،

أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "قد أذنت لك". ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي } الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم الفتنة .

وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجد بن قيس. وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلِمة، وقد أخرج الحاكم في مستدركه وقال على شرط مسلم من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: "من سيدكم يا بني سلمة؟" قالوا: الجد بن قيس، على أنا نُبَخِّله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأي داء أدوأ من البخل، ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيضَ الجَعْدَ بِشْرُ بن البراء بن مَعْرُور".ورواه البخاري في الأدب المفرد من حديث جابر وفيه (بل سيدكم عمرو بن الجموح وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية وكان يولم عن رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تزوج)

وفي هذه القصة من الفوائد ما استنبطه أهل العلم حيث قالوا : وفيه تنبيه على أن من عصى الله لغرض ما ، فإنه تعالى يبطل عليه ذلك الغرض ، ألا ترى أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في الفتنة ، فالله تعالى بين أنهم في عين الفتنة واقعون ساقطون .

ومنها كذلك أن أهل النفاق يتعللون بالمحافظة على دينهم ويظهرون بصور المشفق على دينه وهم ، لا يريدون إلا إبطال الحق ، والهروب من تكاليف الشرع المطهر ،ومنها أن البخل صفة ذميمة ، لا تصدر من مؤمن كامل الإيمان وهي من صفات أهل النفاق

،ومنها أن أهل الكرم هم أولى من تولى سيادة القوم ، فمن لم يجد بماله لن يجود بنفسه،عافانا الله وإياكم من درك الشقاء .

******

قصة الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات :

حيث يقول سبحانه (وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) التوبة فمما جاء في سبب نزول هذه الآية ما حدث به ابن جُرَيْج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أُتي النبيُ صلى الله عليه وسلم بصدقة، فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت. قال: ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل؟ فنزلت هذه الآية. وقيل نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير، أصل الخوارج.

وذلك كما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسمًا فينا، أتاه ذو الخُوَيْصرة، وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول اعدل، فقال: "ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل"، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذنْ لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيَهم، يمرقون من الدين كما يَمْرُقُ السهم من الرَّمِيَّة ينظر إلى نَصْلِه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه، وهو قدْحُه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِهِ فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَقَ الفَرْث والدم ، آيتهم: رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فُرْقَةٍ من الناس". قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فَالْتُمِسَ، فَوُجِدَ، فَأُتِيَ به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعته .

وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين يقال له أبو الْجَوَّاظِ : لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تقسم بالسوية، فأنزل الله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } أي: يعيبك في أمرها وتفريقها .

وفي هذه القصة فوائد : أولها أن الاعتراض على الشرع من صفات المنافقين ، وثانيها أن كثرة العبادة ليست دليلا على صلاح المعتقد ، فهؤلاء الخوارج بين عليه الصلاة و السلام أن أحدنا يحقر صلاته إلى صلاتهم ولهم جزء من الليل ، ويقرأون القرآن ومع هذا قال يخرجون من الدين ، قال أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله : إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك ، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة) وثالثا أن سلامة المعتقد ، والتسليم للشرع من أفضل القرب ، كما هو فرض على كل مسلم ، وأن على المسلم أن يعود باللائمة على نفسه وفهمه ، لا على الدين .

******

قصة الذين قالوا إن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أُذُن:

ومن القصص الواردة في فضح المنافقين في سورة التوبة قوله تعالى (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ..) الآيات ومما جاء في سبب نزولها ما قال ابن عباس رضي الله عنه : أن جماعة من المنافقين ، ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغي من القول فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما نقول ، فقال الجلاس بن سويد : بل نقول ما شئنا ، ثم نذهب إليه ونحلف أنا ما قلنا ، فيقبل قولنا ، وإنما محمد أذن سامعة ، فنزلت هذه الآية . وقال الحسن : كان المنافقون يقولون ما هذا الرجل إلا أذن ، من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له . وروى الأصم أن رجلاً منهم قال لقومه إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن شر من الحمير فسمعها ابن امرأته ، فقال : والله إنه لحق وإنك أشر من حمارك ، ثم بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال بعضهم : إنما محمد أذن ولو لقيتَه وحلفت له ليصدقنك ، فنزلت هذه الآية على وفق قوله . فقال القائل : يا رسول الله لم أسلم قط قبل اليوم ، وإن هذا الغلام لعظيم الثمن علي والله لأشكرنه ثم قال الأصم : أظهر الله تعالى عن المنافقين وجوه كفرهم التي كانوا يسرونها لتكون حجة للرسول ولينزجروا . فقال : { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } . ثم قال : { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ } ثم قال : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ } إلى غير ذلك من

الأخبار عن الغيوب ، وفي كل ذلك دلائل على كونه نبياً حقاً من عند الله .

وقيل إن من المنافقين من يؤذي النبي ، بأن يقولون للنبي أنه أذن ، وغرضهم منه أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور ، بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع ، فلهذا السبب سموه بأنه أذن ، كما أن الجاسوس يسمى بالعين يقال : جعل فلان علينا عيناً ، أي جاسوساً متفحصاً عن الأمور ، فكذا ههنا .

ثم إنه تعالى أجاب عنه بقوله { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } والتقدير : هب أنه أذن لكنه خير لكم وقوله : { أُذُنُ خَيْرٍ } مثل ما يقال فلان رجل صدق وشاهد عدل ، ثم بين كونه { أُذُنُ خَيْرٍ } بقوله : { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ } جعل تعالى هذه الثلاثة كالموجبة لكونه عليه الصلاة والسلام { أُذُنُ خَيْرٍ } وفي بيان كيفية اقتضاء هذه المعاني لتلك الخيرية ، نقول :

أما الأول : وهو قوله : { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ } فلأن كل من آمن بالله خائفاً من الله ، والخائف من الله لا يقدم على الإيذاء بالباطل .

/ وأما الثاني : وهو قوله : { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } فالمعنى أنه يسلم للمؤمنين قولهم والمعنى أنهم إذا توافقوا على قول واحد ، سلم لهم ذلك القول ، وهذا ينافي كونه سليم القلب سريع الاغترار .

وأما الثالث : وهو قوله : { وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ } فهذا أيضاً يوجب الخيرية لأنه يجري أمركم على الظاهر ، ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنكم ، ولا يسعى في هتك أستاركم ، فثبت أن كل واحد من هذه الأوصاف الثلاثة يوجب كونه { أُذُنُ خَيْرٍ } ولما

بين كونه سبباً للخير والرحمة بين أن كل من آذاه استوجب العذاب الأليم ، لأنه إذا كان يسعى في إيصال الخير والرحمة إليهم مع كونهم في غاية الخبث والخزي ، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور ، فلا شك أنهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى .

******

قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري:

حيث يقول سبحانه (وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين, فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى, فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكنَ في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك, وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية

الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري, وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير في تفسيره عند هذه الآية , وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري, أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يرزقني مالاً, قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه" قال: ثم قال مرة أخرى فقال: "أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ـ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسارت" قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم ارزق ثعلبة مالاً" قال فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما, ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة, وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة, وذكر الحديث بطوله وفيه أنه لما رجع تائبا لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم صدقته ثم أبو بكر في خلافته لم يقبلها ثم عمر ثم عثمان وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنهم ، وهذا الحديث منكر على شهرته ، وآفته علي بن يزيد هذا ، وهو الألهاني متروك ، ومعان لين الحديث ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني والبيهقي في " الدلائل " و" الشعب " ، وابن مردويه كما في " تفسير ابن كثير " وغيره ، وقال العراقي في " تخريج الإحياء " (**3** / **135**) : " سنده ضعيف " . وقال الحافظ في " تخريج الكشاف " (**4** / **77** / **133**) : " إسناده ضعيف جدا " .

**

وممن أنكر هذه الرواية ابن حزم، في كتابه المحلى (11/207 ، 208): حيث يقول "على أنه قد روينا أثرا لا يصح وأنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف، ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة وقال: "وهذا باطل لا شك؛ لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عليه السلام عند موته ألا يبقى في جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلما ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافرا ففرض ألا يبقى في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك، وفي رواته معان بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن وعلي بن يزيد – هو ابن عبد الملك – وكلهم ضعفاء. أهـ

وللأخ عداب الحمش رسالة في نقد هذه القصة جمع فيها أقوال أهل العلم فيها سماها "ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه".وحاصل القصة إنما نزلت في المنافقين الذين كانوا يتمنون أن يغنيهم الله من فضله ، وكانوا يعاهدون الله أن يتصدقوا ، ويوسعوا على أهل الفاقة ، فلما أغناهم الله من فضله ، نسوا تلك العهود ، وعاقبهم بنقيض قصدهم بإخلافهم الوعد وكذبهم كما في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان" وله شواهد كثيرة, والله أعلم. ومن فوائد هذه الآية العظيمة أن يعلم العبد أن الخيرة فيما اختار رب العالمين ، وأن الله يعطي ويمنع بحكمة ، وأن بعض الخلق لا يصلح له إلا الفقر فإن أغناه الله طغى ، كما قال الله تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27) وكما قال سبحانه (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز)

ومن فوائد الآية ، أن من طلب الغنى فإنه يسأل الله غنى لا يطغيه ، وأن يسأله أن يكون عونا على الطاعة ، وأن لا يعاهد الله على أمور لا يعلم هل ينفذها أو لا .

ومن فوائد الآية ، أن هذا شبيه بالنذر ، والنذر منهي عنه ، فالناذر يعد بالفعل ، فمن وفى سلم من النفاق ومن تخاذل ولم يف سقط في خصال المنافقين ، ويخشى عليه أن يعقبه الله نفاقا في قلبه جزاء إخلافه الوعد .

كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر النهي عن النذر ، وأنه إنما يستخرج به من مال البخيل ، وهنا كلام نفيس للعلامة الألباني رحمه الله على حديث ابن عمر الآنف أسوقه بلفظه حيث يقول " دل الحديث بمجموع ألفاظه أن النذر لا يشرع عقده ، بل هو مكروه ، و ظاهر النهي في بعض طرقه أنه حرام ، و قد قال به قوم . إلا أن قوله تعالى : " يستخرج به من البخيل " يشعر أن الكراهة أو الحرمة خاص بنذر المجازاة أو المعاوضة ، دون نذر الابتداء و التبرر ، فهو قربة محضة ، لأن للناذر فيه غرضا صحيحا و هو أن يثاب عليه ثواب الواجب ، و هو فوق ثواب التطوع . و هذا النذر هو المراد – و الله أعلم – بقوله تعالى (يوفون بالنذر) دون الأول . ثم ساق كلام الحافظ في الفتح .

قال الحافظ في " الفتح " (11 / 500) :

" و قد أخرج الطبري بسند صحيح عن قتادة في قوله تعالى (يوفون بالنذر) قال :كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة و الصيام و الزكاة و الحج و العمرة و مما افترض عليهم فسماهم الله أبرارا ، و هذا صريح في أن الثناء وقع في غير نذر المجازاة " .

و قال قبل ذلك : " و جزم القرطبي في " المفهم " بحمل ما ورد في الأحاديث من النهي ، على نذر المجازاة ، فقال :

هذا النهي محله أن يقول مثلا : إن شفى الله مريضي فعلي صدقة كذا .

و وجه الكراهة أنه لما وقف فعل القربة المذكورة على حصول الغرض المذكور ظهر أنه لم يتمحض له نية التقرب إلى الله تعالى لما صدر منه ، بل سلك فيه مسلك المعاوضة ، و يوضحه أنه لو لم يشف مريضه لم يتصدق بما علقه على شفائه ، و هذه حالة البخيل ، فإنه لا يخرج من ماله شيئا إلا بعوض عاجل يزيد على ما أخرج غالبا و هذا المعنى هو المشار إليه في الحديث بقوله : " و إنما يستخرج به من البخيل ما لم يكن البخيل يخرجه " . و قد ينضم إلى هذا اعتقاد جاهل يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض ، أو أن الله يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر ، و إليهما الإشارة بقوله في الحديث أيضا " فإن النذر لا يرد من قدر الله شيئا " . و الحالة الأولى تقارب الكفر ، و الثانية خطأ صريح " .

قال الحافظ : قلت : بل تقرب من الكفر أيضا .

ثم نقل القرطبي عن العلماء حمل النهي الوارد في الخبر على الكراهة و قال :" الذي يظهر لي أنه على التحريم في حق من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد ،فيكون إقدامه على ذلك محرما ، و الكراهة في حق من لم يعتقد ذلك " .و هو تفصيل حسن ، و يؤيده قصة ابن عمر راوي الحديث في النهي عن النذر فإنها في نذر المجازاة .

قلت : يريد بالقصة ما أخرجه الحاكم (4 / 304) من طريق فليح بن سليمان عن سعيد بن الحارث أنه سمع عبد الله بن عمر و سأله رجل من بني كعب يقال له مسعود بن

عمرو : يا أبا عبد الرحمن إن ابني كان بأرض فارس فيمن كان عند عمر بن عبيد الله و إنه وقع بالبصرة طاعون شديد فلما بلغ ذلك نذرت : إن الله جاء بابني أن أمشي إلى الكعبة ، فجاء مريضا ، فمات ، فما ترى ؟ فقال ابن عمر : (أو لم تنهوا عن النذر ؟ ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " النذر لا يقدم شيئا ، و لايؤخره ، فإنما يستخرج به من البخيل " ، أوف بنذرك) .

و قال الحاكم : " صحيح على شرط الشيخين " . و وافقه الذهبي .

قلت : و هو عند البخاري دون القصة من هذا الوجه ، و فليح يقول الحافظ في" التقريب " عنه : " صدوق كثير الخطأ " .قلت : فلا ضير على أصل حديثه ما دام أنه لم يتفرد به . و الله أعلم .

و بالجملة ففي الحديث تحذير للمسلم أن يقدم على نذر المجازاة ، فعلى الناس أن يعرفوا ذلك حتى لا يقعوا في النهي و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا !.

******

قصة النهي عن الصلاة عن عبدالله بن أُبي بن سلول:

حيث يقول سبحانه (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)(84)التوبة

أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث ابن عمر قال: لما توفي عبد الله –هو ابن أبي –جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يعطيه قميصه يُكَفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما خيرني الله فقال: { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } وسأزيده على السبعين". قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه [رسولُ الله صلى الله عليه وسلم] فأنزل الله، عز وجل، آية: { وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ }

ورواه الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال: سمعت عمرَ بن الخطاب، رضي الله عنه. يقول لما تُوفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلى عَدُوِّ الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا: كذا وكذا -يُعَدِّد أيامه -قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: "أخِّر عني يا عمر، إني خُيِّرت فاخترتُ، قد قيل لي: { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [التوبة:80] لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفر له لزدت". قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرِغ منه -قال: فَعَجَبٌ لي وجراءتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان: { وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } ورواه البخاري عن يحيى بن بُكَير، عن الليث، عن عُقَيل، عن الزهري به، فذكر مثله وقال: "أخّر عني يا عمر". فلما أكثرت عليه قال: "إنِّي خُيِّرت فاخترتُ، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغْفَر له لزدت عليها". قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: { وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } الآية، فعجبتُ بعد من جُرْأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم.

ورواه أحمد وفيه لما مات عبد الله بن أبيّ، أتى ابنه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأته لم نزل نُعَيَّر بهذا.وعند البخاري فأتاه النبي صلى الله عليه

وسلم، فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فَأخرجَ من حُفرته، وتَفَل عليه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه.

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أُبيّ لما قدم العباس طُلب له قميص، فلم يُوجَد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبيّ؛ لأنه كان ضخمًا طويلا ففعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلم، مكافأة له، فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره .

ومن بعد نزول هذه الآية توقف النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من لا يعرف حتى يسأل عن حالها كما أخرج الإمام أحمد: من حديث عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعي لجنازة سأل عنها، فإن أثني عليها خيرًا قام فصلى عليها، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: "شأنكم بها"، ولم يصل عليها .

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جُهِل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان بعض المنافقين قد أخبره بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا كان يقال له: "صاحب السر" الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة. أعلم حُذَيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وقال أبو عُبَيد في كتاب "الغريب"، في حديث عُمَر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل، فَمرَزَه حُذيفة، كأنه أراد أن يَصُده عن الصلاة عليها، ثم حكي عن بعضهم أن "المرز" بلغة أهل اليمامة هو: القَرْص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله، عز وجل، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجر الجزيل، لما ثبت في الصحيح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من شهد الجنازة حتى يصلّي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان" . قيل: وما القيراطان؟ قال: "أصغرهما مثل أحد"

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فكما روى أبو داود: من حديث عثمان رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: "استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل".

*****

قصة أبي عامر الراهب و مسجد الضرار:

حيث يقول سبحانه (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ...)

ذكر أهل التفسير في سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له: "أبو عامر الراهبُ"، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، و ترهَّب وتنصَّر ولبس المُسوح ، وله شرف في الخزرج كبير.

وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئت به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: فأنا عليها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنك لست عليها"، قال: بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما فعلت ولكنّي جئت بها بيضاء نقية"، فقال أبو عامر: أمات اللهُ الكاذبَ منا طريدا وحيدا غريبا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "آمين". وسماه أبا عامر الفاسق. فلما نصر الله نبيه يوم بدر شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرت ربَاعِيتُه

اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه ، كما مر معنا في حلقات غزوة أحد ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَر.

فلم يزل يقاتل النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربا إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أنِ استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابنوا لي مسجدا فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتٍ بجند من الروم، فأُخْرِج محمدا وأصحابه، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة. فمات بالشام وحيدا فريدا غريبا.

وشرع المنافقون في بناء مسجد الضرار مجاورا لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: "إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله" .

فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة، كما قال

علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ } هم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، عز وجل: { لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ } إلى { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .

وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهري في رواية قال: فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي -أو: أخاه عامر بن عدي – فقال: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه". فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يَشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا } إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا .

وكانوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم أنهم مابنوه إلا للحسنى كما قال سبحانه : { وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى } فكذبهم الله فقال { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } وبين سوء قصدهم وما انطوت عليه أنفسهم بقوله (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا

وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ) وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: "الراهب" لعنه الله.

وقوله: { لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا } نهي من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تَبَع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدا.

و قد حث الله نبيه صلى الله عليه وسلم على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعا لكلمة المؤمنين ومَعقلا وموئلا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: { لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ } والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الترمذي في السنن برقم (**324**) من حديث أسيد بن الحضير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "صلاة في مسجد قُباء كعُمرة". وفي صحيح مسلم برقم (**1399**) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزورُ مسجد قُباء راكبًا وماشيًا ، وأخرج ابن ماجه في سننه من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف يقول قال سهل بن حنيف : – قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة) .

ولقد امتدح الله أهل قباء في كتابه على إثر هذه القصة فقال { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا }

، وقد وقع خلاف بين أهل العلم أي المسجدين أسس على التقوى من أول يوم هل هو مسجد قباء أم مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقد أخرج أحمد في مسنده من

حديث سهل بن سعد، عن أبيّ بن كعب: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا".

وجاء في المسند أيضا من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الذي أسِّسَ على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه، فقال: "هو مسجدي هذا" .

وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

ولا منافاة بين القولين فإذا كان مسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى فمسجد النبي صلى الله عليه وسلم أولى بذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أسسه ، كما أسس قباء ، وهو إمامه وخيرة أصحابه معه في المسجد .

ولقد اشتملت الآيات على فوائد عديدة قيمة ، أعرض منها ماذكره الشيخ السعدي في تفسيره حيث يقول رحمه الله :

من الفوائد : أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلا تغيره النية، فينقلب منهيا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد " قباء" حتى قال الله فيه:{ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ } .ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان صلى الله عليه وسلم يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

******

قصة غزوة تبوك:

حيث يقول سبحانه { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) } التوبة .

وقال ابن جرير في قوله: { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ } أي: من النفقة والظهر والزاد والماء، { مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ } (3) أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ } يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، { إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } .

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

ولنمر على قصة هذه الغزوة وما فيها من حوادث كما يرويها البخاري في صحيحه عن كعب بن مالك حيث قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في بدر ولم يُعَاتِب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه و سلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه و سلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان . قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله صلى الله عليه و سلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضى شيئا فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول صلى الله عليه و سلم والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه و سلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن

عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك (ما فعل كعب) . فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه . فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه و سلم . قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه و سلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال (تعال) . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي (ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك) . فقلت بلى إني والله – يا رسول الله – لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم (أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك) . فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه و سلم لك

. فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه و سلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فإذا فيه، أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول

الله صلى الله عليه و سلم يأتيني فقال إن رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال (لا ولكن لا يقربك) . قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه و سلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه ؟ فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على هذا الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله صلى الله عليه و سلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبيّ مبشرون وركض إليّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنوني بالتوبة يقولون لتهنك توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى

صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه و سلم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو يبرق وجهه من السرور (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) . قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال (لا بل من عند الله) . وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك) . قلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا مالقيت . فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت . وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه و سلم { لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار - إلى قوله - وكونوا مع الصادقين } . فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه و سلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا - حين أنزل الوحي - شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى { سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم - إلى قوله - فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين }

قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه و سلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه و سلم

أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله { وعلى الثلاثة الذين خلفوا } . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

بعض الحوادث و القصص التي حصلت في غزوة تبوك:

فمن تلك الحوادث و القصص التي حصلت في هذه الغزوة العظيمة ، مقولة بعض المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفِرُوا فى الحَرِّ، فأنزل الله فيهم: {وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِى الْحَرِّ.....} الآية [التوبة: 81].

ومنها لما حث المصطفى صلى الله عليه وسلم على النفقة في هذه الغزوة بادر عثمان بن عفان رضي الله عنه فأنفق نفقة كبيرة لم ينفق أحد مثلها ، وكانت ثلاثمَائة بعير بأحْلاسها وأقتابِها وعُدَّتها، وألفَ دينار عَيْناً.

ومنها حرص الصحابة على الجهاد مع قلة ذات اليد ومن ذلك البكاؤون وهم سبعة يستحمِلُون رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: "لا أجدُ مَا أَحْمِلُكم عَلَيْه "، فتولَّوْا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما يُنفقون، وهم سالمُ بن عُمير، وعُلْبَةُ بنُ زيد ، وأبو ليلى المازني ، وعمرو بن عَنَمَة، وسلمة بن صخر، والعِرباض بن سارية.

وفى بعض الروايات: وعبد الله بن مُغَفَّل، ومعقِلُ بن يسار.

وبعضهم يقول: البكَّاؤون بنو مُقَرِّن السبعة، وهم من مُزينة. وابن إسحاق: يعدُّ فيهم عَمْرو بن الحُمام بن الجَموح.

وأرسل أبا موسى أصحابُه إلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيحمِلهم، فوافاه غضبان، فقال: "واللهِ لا أحملكم، ولا أجدُ ما أحمِلُكم عليه"، ثم أتاه إبل، فأرسل إليهم، ثم قال: "مَا أَنَا حَمَلْتُكُم، ولَكِنَّ الله حَمَلَكُم، وإنِي وَاللهِ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يميني وَأَتَيْتُ الَّذي هُوَ خَيْرٌ".

وقام عُلبة بن زيد فصلَّى من الليل وبكى، وقال: اللهُمَّ إنَّك قد أمرتَ بالجهاد، ورغَّبتَ فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدَّق على كل مسلم بكل مَظْلِمَةٍ أصابني فيها مِن مال، أو جسد، أو عِرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أيْنَ المُتَصَدِّقُ هذِهِ اللَّيْلَة"؟. فلم يقم إليه أحد، ثم قال: "أَيْنَ المُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ"، فَقَام إليه، فأخبره، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "أَبْشِرْ فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبَتْ فِي الزَّكَاةِ المتَقَبَّلَة".

وجاءَ المعذِّرُونَ من الأعرابِ ليؤذن لهم، فلم يَعْذِرْهم. قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلاً، وكان عبدُ الله بنُ أُبَيّ بن سَلول قد عسكر على ثنية الوَداع في حُلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلِّ العسكرين، واستخلف رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري.

ولما أراد رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخروجَ، خلَّف عليَّ بنَ أبي طالب على أهله، فأرْجَفَ به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً وتخففاً منه، فأخذ علي رضي الله عنه سِلاحه، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجُرْفِ، فقال: يا نبي الله؛ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففتَ مني، فقال: "كَذَبُوا، ولكِنِّي خَلَّفْتُكَ لما تركْتُ ورائي، فارْجعْ فَاخْلُفْني فِي أهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفَلاَ تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِنْ مُوسى؟ إلا أنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي" فرجع عليٌّ إلى المدينة.

ومن حوادث هذه الغزوة أنَّ أبا خيثمة بعد أن سار رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أياماً رجعِ إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشينِ لهما في حائطه، قد رشَّت كُلُّ واحدة منهما عريشَها، وبرَّدَتْ له ماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الضِّحِّ، والرِّيح، والحر، وأبو خيثمة في ظِلٍّ بارد، وطعام مُهَيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟ ما هذا بالنَّصَفِ، ثم قال: واللهِ لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحقَ برسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدَّم ناضِحه، فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أدركه حين نزل تَبُوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجمحي في الطريق يطلُب رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فترافقا حتى إذا دنوا من تَبُوك، قال أبو خيثمة لِعُمير بن وهب: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلَّف عني حتى آتيَ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعل حتى إذا دنا مِن رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بتَبُوك، قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مُقبل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُنْ أبَا خَيْثَمَةَ" قالوا: يا رسول الله؛ هو واللهِ أبو خيثمة، فلما أناخَ أقبل، فسلَّم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أوْلى لَكَ يَا أبَا خَيْثَمَة"، فأخبرَ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَاً ودعا له بخير.

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مرَّ بالحِجْر بديار ثمود، قال: "لا تَشْرَبُوا مِنَ مَائِهَا شَيْئاً، وَلا تَتَوَضَّؤوا مِنْهُ لِلصَّلاةِ، وما كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوه فَاعْلِفُوهُ الإبِلَ، ولا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئاً، ولا يَخْرُجَنَّ أحَدٌ منكم إلا ومعه صَاحِبٌ له"، ففعل النَّاسُ، إلا أنَّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدُهما لحاجته، وخرج الآخرُ في طلب بعيره، فأما الذى

خرج لحاجته، فإنه خُنِق على مذهبه، وأما الذى خرج في طلب بعيره، فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلي طيء، فأُخبرَ بذلك رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: "أَلَمْ أَنْهَكُم أَنْ لا يَخْرُجَ أحَدٌ مِنْكُم إلاَّ ومَعَهُ صَاحِبُه"، ثم دعا للذي خُنِقَ على مذهبه فشُفي، وأما الآخر، فأهدته طيء لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قدم المدينة.

قلت: والذى في "صحيح مسلم"، من حديث أبي حُمَيد: انطلقنا حتى قَدِمْنَا تَبُوكَ، فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" سَتَهُبُّ عَلَيْكُم اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلا يَقُمْ مِنْكُم أحَدٌ، فَمنْ كانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ" فهبَّت رِيحٌ شَدِيدَة، فقام رجل فحملته الريحُ حتى ألقته بِجَبَلَيْ طَيِّء.

قال ابن هشام: بلغني عن الزُّهْريّ أنه قال: لما مرَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحِجْر، سجَّى ثوبه على وجهه، واستحثَّ راحلته، ثم قال: "لا تَدْخُلُوا بُيوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم إلاَّ وَأَنْتُم بَاكُونَ خَوْفاً أنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُمْ".

و في "الصحيحين" من حديث ابن عمر، أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لا تَدْخُلوا عَلى هؤلاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فإنْ لم تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلا تَدْخُلوا عَلَيْهِم لا يُصِيبُكم مِثْلُ مَا أَصَابَهُم".

وفي "صحيح البخاري" أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه.

وفى "صحيح مسلم": أنه أمرهم أن يَعْلِفوا الإبلَ العَجِينَ، وأن يُهرِيقُوا الماءَ، ويستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة.

وذكر البيهقيُّ أنه نادى فيهم: الصلاةَ جامعة، فلما اجتمعوا، قال: "علامَ تدخُلون على قوم غَضِبَ اللهُ عليهم"، فناداه رجل فقال: نَعْجَبُ مِنْهُم يَا رَسول الله، فقال: " ألاَ

أُنبِئُكم بما هُوَ أعْجبُ مِنْ ذلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أنْفُسِكُم يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُم وَمَا هُو كَائِنٌ بَعْدَكُم، اسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَعْبأُ بِعَذابِكُم شَيْئاً، وَسَيأتِي اللهُ بِقَوْمٍ لا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِم شيئاً".

ومن الحوادث التي حصلت أثناء غزوة تبوك، ما ذكره ابن إسحاق قال : وأصبح الناسُ ولا ماء معهم، فَشكَوْا ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلَ الله سُبحانه سحابةً، فأمطرت حتى ارتوى الناسُ، واحتملُوا حاجَتهم من الماء.

ومن ذلك فقدان النبي صلى الله عليه وسلم لراحلته ، فإنه أضلها في الطريق ، فقال زيد بن اللُّصَيْتِ وكان منافقاً: أليس يزعُمُ أنه نبي، ويُخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقتُه؟ فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ رَجُلاً يَقُولُ، وذَكَرَ مَقَالَتَهُ، وإنِّي والله لا أعْلَمُ إلاَّ ما عَلَّمني اللهُ، وقَدْ دَلَّني الله عَلَيْهَا، وهي في الوَادي في شِعْبِ كَذا وكَذَا، وقَدْ حَبَسَتْها شَجَرَةٌ بِزِمَامِها، فانْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتوني بها" فذهبوا فأتَوْهُ بها.

ثم مضى رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل يتخلَّف عنه الرجلُ فيقولون: تخلَّف فلان، فيقول: "دَعُوه فإنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ، فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُم، وإنْ يَكُ غَيْرَ ذلِكَ، فَقَد أرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ". وتلوَّم على أبي ذَرٍ بعيرُه، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبعُ أثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماشياً، ونزل رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض منازله، فنظر ناظر مِن المسلمين فقال: يا رسولَ الله؛ إنَّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحدَه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُنْ أبَا ذَرٍ"، فلما تأمله القومُ، قالوا: يا رسول الله؛ واللهِ هو أبو ذر. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رَحِمَ

اللهُ أبا ذَرٍ؛ يَمْشِي وَحْدَهُ، ويَمُوتُ وَحْدَهُ، ويُبْعَثُ وحْدَهُ". وقد مات رضي الله عنه وحده بالربذة .

ومما حصل في هذه الغزوة ما كان من رهط من المنافقين، منهم: وديعة بن ثابت أخو بني عَمْرو بن عَوْف، ومنهم رجل مِن أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مَخْشي بن حُمَيِّر، قال بعضهم لبعضٍ: أتحسبون جلاد بني الأصفر، كقتال العرب بَعضِهم لبعض؟ واللهِ لكأنَّا بكم غداً مقرَّنين في الحِبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مَخْشِي بن حُمَيِّر: واللهِ لودِدت أني أُقَاضَى على أن يُضرب كُل منا مائةَ جَلدة، وإنَّا ننفلِتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمَّار بن ياسر: "أدْرِك القَوْمَ، فإنهم قد احْتَرَقُوا فَسَلْهُم عَمَّا قالوا؟ فإن أنكروا، فَقُلْ: بل قُلتُم: كذا وكذا". فانطلق إليهم عمَّار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتذِرُون إليه، فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوضُ ونلعبُ، فأنزل الله فيهم : {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ} [التوبة: 65] فقال مخشى بن حُمْيِّر: يا رسول الله؛ قعد بي اسمي واسمُ أبي، فكان الذى عُفيَ عنه في هذه الآية، وتسمَّى عبد الرحمن، وسألَ الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه، فقُتِل يومَ اليمامة، فلم يوجد له أثر.

وجاء في "صحيح مسلم" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل وصوله لعين بالطريق بعد أن أصابهم الظمأ: "إنَّكُم سَتَأتُونَ غداً إنْ شاءَ اللَّهُ تَعالَى عَيْنَ تَبُوك، وإنَّكُم لَنْ تَأْتُوها حَتَّى يُضْحِيَ النَّهارُ، فمَن جاءَهَا فلا يَمَسَّنَّ مِنْ مائِها شيئاً حتى آتى ". قال: فجئناها وقَدْ سَبَقَ إليها رَجُلانِ، والعَيْن مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بشيء من ماءٍ، فسألهما رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هل مَسَسْتُما مِن مائها شيئاً"؟ قالا: نعم، فسبَّهُمَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لهما ما شاء اللهُ أن يقول، ثُمَّ غرفُوا مِن العَيْن قليلاً قليلاً حتى اجتمع

في شيء، وغسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه وجهه ويَدَيْه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء مُنْهمِرٍ، حتى استقى النَّاسُ، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُوشِكُ يا مُعاذُ إن طالتْ بكَ حَياةٌ أن ترى ما هاهنا قدْ مُلِئ جِناناً".

ولما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تَبُوك، أتاه صاحبُ أَيْلَة، فصالحَه وأعطاه الجزيةَ، وأتاه أهل جَرْبا، وأذْرُح، فأعطَوْه الجزيَة، وكتب لهم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاباً، فهو عِندهم، وكتب لِصاحب أَيْلة كذلك .

ثم إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر دُومة، وهو أُكَيْدر بن عبد الملِك، رجل مِن كِندة، وكان نصرانياً، وكان ملكاً عليها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالد: "إنَّكَ سَتجِدُه يَصِيدُ البَقَرَ"، فخرجَ خالد حتى إذا كان مِن حصنه بمنظر العَيْن، وفى ليلة مُقمرة صَافية، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتَتِ البقرُ تَحُكُّ بِقُرونها بابَ القصر، فقالتْ له امرأتُه: هل رأيتَ مثل هذا قطُّ؟ قال: لا واللهِ. قالت: فمَن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل، فأمر بفرسه، فأُسرجَ له، وركب معه نَفَر مِن أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسَّان، فركب وخرجُوا معه بمطاردهم، فلما خرجُوا، تلقَّتهم خيلُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخذته، وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قَباء مِن دِيباج مخوَّصٌ بالذهب، فاستلبه خالد، فبعثَ به إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ قدومه عليه، ثم إن خالداً قدم بأُكَيْدر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحقن له دَمَه، وصالحه على الجزية، ثم خلَّى سبيله، فرجع إلى قريته.

فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتَبُوك بِضعَ عشرة ليلةً لم يُجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة،

ومنها ما حدث به عبد الله بن مسعود كان يُحَدِّثُ، قال: قُمت مِن جوفِ الليل، وأنا معَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوةِ تَبُوك، فرأيت شُعلةً من نار في ناحية العسكر، فاتَّبَعْتُها أنظُرُ إليها، فإذا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر، وعمر، وإذا عبدُ الله ذو البِجادَيْنِ المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حُفرته، وأبو بكر وعمر يُدليانه إليه، وهو يقول: "أدنيا إليَّ أخاكما"، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه، قال: "اللهُمَّ إِنِّي قَدْ أَمْسَيْتُ رَاضِياً عَنْهُ، فَارْضَ عَنْهُ "، قال: يقولُ عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنتُ صاحِبَ الحُفرة. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْجعَه مِن غزوة تَبُوك: "إنَّ بالمَدِينَةِ لأَقْواماً ما سِرْتُم مَسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادياً إلاَّ كَانُوا مَعَكُم" قالوا: يا رسول الله؛ وهُمْ بالمدينة؟ قال: "نَعَمْ حَبَسَهُم العُذْرُ". فلما دنا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة، خرج الناس لتلقيه، وخرج النساءُ والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاعِي

وبعضُ الرواة يَهِمُ في هذا ويقولُ: إنما كان ذلك عند مقدَمِه إلى المدينة من مكةَ، وهو وَهْمٌ ظاهر، لأن ثنياتِ الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادِمُ من مكة إلى المدينة، ولا يمرُّ بها إلا إذا توجَّه إلى الشام، فلما أشرف على المدينة، قال: "هذِهِ طَابَةُ، وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه".

******

ذكر الفوائد من غزوة تبوك:

إن هذه الغزوة قد احتوت على فوائد وأحكام عظيمة ، ولقد أجاد وأفاد في استنباط فوائدها ابن القيم رحمه الله وسأذكرها مختصرة ومنقحة فقد قال رحمه الله :

فصل: في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد :

فمنها: تصريحُ الإمام للرعية، وإعلامُهم بالأمر الذي يضرُّهم ستره وإخفاؤُه، ليتأهبوا له، ويُعِدُّوا له عُدته، وجوازُ ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أنَّ الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفيرُ، ولم يجز لأحد التخلفُ إلا بإذنه، ولا يُشترطُ في وجوب النفير تعيينُ كلِّ واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كُلَّ واحد منهم الخروجُ معه، وهذا أحدُ المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرضَ عَيْن. والثاني: إذا حضر العدوُّ البلد. والثالث: إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوبُ الجهاد بالمال، كما يجبُ بالنفس، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصوابُ الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيقُ الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينُه، بل جاء مقدَّماً على الجهاد بالنفس في كُلِّ موضع، إلا موضعاً واحداً، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم و آكدُ من الجهاد بالنفس ،ولا يَتِمُّ الجهاد بالبدن إلا

ببذله ، ولا ينتصر إلا بالعدد والعُدد، فإن لم يقدر أن يكثر العَدد، وجب عليه أن يمد بالمال والعُدة، وإذا وجب الحجُّ بالمال على العاجز بالبدن، فوجوبُ الجهاد بالمال أَوْلى وأَحرى.

ومنها: ما برّز به عُثمانُ بن عفان من النفقةِ العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يا عُثْمَانُ ما أَسْرَرْتَ، ومَا أَعْلَنْتَ، ومَا أَخْفَيْتَ، وما أبْدَيْتَ". ثم قال: "ما ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ"، وكان قد أنفق ألفَ دينار، وثلاثمائة بعير بعُدتها وأحلاسها وأقتابِها.

ومنها: أن العاجزَ بماله لا يُعذرُ حتى يَبْذُلَ جهده، ويتحقَّقَ عجزُهُ، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَجَ عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتَوْا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحملهم، فقال:{ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ}، فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حَرَج عليه.

ومنها: استخلافُ الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء، والمعذورين، والنساء، والذُرِّية، ويكون نائبه مِن المجاهدين، لأنه من أكبر العون لهم. وكان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستخلِف ابنَ أُمّ مكتوم، فاستخلفه بضعَ عشرة مرة، وأما في غزوة تَبُوك ، فالمعروفُ عند أهل الأثر أنه استخلف عليَّ بن أبي طالب، كما في "الصحيحين" عن سعد بن أبي وقاص، قال: خلَّف رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً رضى الله عنه في غزوة تَبُوك، فقال: يا رسول الله؛ تُخَلِّفُني مَعَ النساءِ والصبيان، فقال: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي". ولكن هذه كانت خلافةً خاصة على أهله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما الاستخلافُ العام، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري، ويدل على هذا أن المنافقين لما أرجفُوا به، وقالوا: خلَّفه استثقالاً، أخذ

سلاحه ثم لحق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره، فقال: "كَذَبُوا، ولكِنْ خَلَّفْتُكَ لِما تَرَكْتُ وَرائي، فارْجِعْ فاخْلُفْني في أَهْلي وَأَهْلِكَ".

ومنها: جواز الخَرْصِ للرُّطَبِ على رؤوس النخل، وأنه من الشرع، والعمل بقول الخارص، والخرص هو تقدير وزن التمر في رؤوس النخل ، وإنما أبيح من أجل الحاجة .

ومنها أنَّ الماء الذي بآبار ثمود، لا يجوز شُربه، ولا الطبخُ منه، ولا العجينُ به، ولا الطهارةُ به، ويجوز أن يُسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة. وكانت معلومةً باقية إلى زمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم استمر عِلْمُ الناسِ بها قرناً بعد قرن ، وهي مطويَّةٌ محكمة البناء، واسعة الأرجاء، آثار العِتق عليها بادية، لا تشتبِه بغيرها.

ومنها: أنَّ مَن مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذَّبين، لم ينبغ له أن يدخُلَها، ولا يُقيمَ بها، بل يُسرع السير، ويتقنَّع بثوبه حتى يُجاوِزَها، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً.

ومنها: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجمعُ بين الصلاتين في السفر، ولم يأتِ جمع التقديم عنه في سفر إلا هذا ، وصح عنه جمعُ التقديمِ بعَرَفة قبل دخوله إلى عَرَفة ، فإنه جَمَعَ بين الظهر والعصر في وقت الظهر، فقيل: ذلك لأجل النُّسُك، كما قال أبو حنيفة. وقيل: لأجل السفر الطويل، كما قاله الشافعي وأحمد. وقيل: لأجل الشغل، وهو اشتغالُه بالوقوف، واتصالُه إلى غروب الشمس. قال أحمد: يجمع للشغل، وهو قول جماعة من السَّلَف والخَلَف، وقد تقدَّم.

ومنها: جوازُ التَّيَمُم بالرمل، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَصحابَه، قطعوا الرمال التي بين المدينة وتَبُوك، ولم يحملوا معهم تراباً بلا شك، وتلك مفاوز مُعْطِشة شكوا فيها العطشَ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقطعاً كانوا يتيممون بالأرض التي هم فيها

نازلون، هذا كُلُّه مما لا شك فيه مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَحَيْثُمَا أَدْرَكَتْ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي الصَّلاةُ، فَعِنْدَهُ مَسْجِدُه وَطَهُورُه".

ومنها: أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بتَبُوك عشرين يوماً يَقْصُر الصلاة، ولم يَقل للأُمَّة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثرَ من ذلك، ولكن اتفقت إقامتُه هذه المدة، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواءٌ طالت أو قصرت إذا كان غيرَ مستوطن، ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

ومنها: جوازُ بلِ استحبابُ حِنْث الحالف في يمينه إذا رأى غيرَها خيراً منها، فيكفِّرُ عن يمينه، ويفعلُ الذي هو خير، وإن شاء قدَّم الكَفَّارة على الحِنث، وإن شاء أخَّرها، وقد رُوي حديث أبي موسى هذا: "إلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ أَخْيَرُ، وتحلَّلتُها"، وفى لفظ: "إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِيني وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ أَخْيَرُ"، وفي لفظ: "إلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِيني"، وكلُّ هذه الألفاظ في "الصحيحين"، وهي تقتضي عدم الترتيب.

وفى السنن من حديث عبد الرحمن بن سمرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا. فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، ثُمَّ ائْتِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ ". وأصله في "الصحيحين"، فذهب أحمد، ومالك، والشافعي إلى جواز تقديم الكَفَّارة على الحِنث، واستثنى الشافعي التكفيرَ بالصوم، فقال: لا يجوزُ التقديمُ، ومنع أبو حنيفة تقديمَ الكفَّارة مطلقاً.

ومنها: انعقادُ اليمين في حال الغضب إذا لم يَخْرُج بصخابه إلى حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفُذ حكمه، وتَصِحُّ عقودُه، فلو بلغ به الغضبُ إلى حد الإغلاق، لم تنعقِدْ يمينه

ولا طلاقه. قال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لا طَلَاقَ وَلا عَتَاقَ في إغْلَاقٍ"، يريد الغضب.

ومنها: تركُه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفرُ الصريحُ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أصْحَابَه" ، وهذا في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما في ذلك من تأليفٍ للقلوب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمع كلمة الناس عليه ، وهذا أمر كان يختصُّ بحال حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،وليس للأُمة بعده تركُ استيفاء حقِّه، بل يتعينُ عليهم استيفاؤه، ولا بُدَّ.

ومنها: جواز الدفن بالليل، كما دفن رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذا البِجادين ليلاً، وقد سُئل أحمد عنه، فقال: وما بأس بذلك. وقال: أبُو بكر دُفِنَ ليلاً، وعليّ دفن فاطمة ليلاً. وقالت عائشة: سمعنا صوتَ المساحِى من آخِر الليل في دفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. انتهى، ودفن عُثمان، وعائشةُ، وابنُ مسعود ليلاً.

ومنها: قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ بالمَدِينَةِ أقْواماً مَا سِرْتُمْ مَسيراً، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِياً إلاَّ كَانُوا مَعَكُم"، فهذه المعية هي بقلوبهم وهممهم، لا كما يظنه طائفة من الجُهَّال أنهم معهم بأبدانهم، فهذا محال، لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة؟ قال: "وهم بالمدينة حَبَسَهُمُ العُذْرُ"، وكانوا معه بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا مِن الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهي القلب، واللِّسان، والمال، والبدن. وفي الحديث: "جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُلُوبِكُم وأَمْوالِكُم".

ومنها: تحريقُ أمكنة المعصية التي يُعصى اللّهُ ورسولُه فيها وهدمُها، كما حرقَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجد الضِّرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يُصلَّى فيه، ويُذكر اسمُ

الله فيه، لما كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنينَ، ومأوى للمنافقين، وكُلُّ مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيلُه، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له. وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرارِ، فمشاهِدُ الشِّرْكِ التي تدعو سدنتُها إِلى اتخاذ مَنْ فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب، وكذلك محالُّ المعاصي والفسوق، كالحانات، وبُيوت الخمَّارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمرُ بن الخطاب قريةً بكاملها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُويشد الثقفي وسماه فويسقاً، وحرق قصرَ سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهمَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحريق بيوت تَاركي حضور الجماعة والجُمُعة، وإنما منعه مَن فيها من النساء والذُرِّية الذين لا تجبُ عليهم كما أخبر هو عن ذلك.

ومنها: استماعُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدحَ المادحين له، وتركُ الإنكار عليهم، ولا يَصِحُّ قياسُ غيره عليه في هذا، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق، وقد قال: "احْثُوا في وُجُوه المَدَّاحِينَ التُّرَابَ".

ومنها: ما اشتملت عليه قصةُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا مِن الحِكَم والفوائد الجمَّة، فنشيرُ إلى بعضُها:

فمنها: جوازُ إخبار الرجل عن تفريطه وتقصِيرِه في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمرُه، وفى ذلك مِن التحذير والنصيحة، وبيانِ طُرُقِ الخير والشر، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأُمور.

ومنها: جوازُ مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع ، وذلك لما أخبر كعب عن حضوره بيعة العقبة ، وقد قصد من ذلك ، تسلية الإنسان نفسَه عما لم يُقدَّر له من الخير بِما قُدِّر له مِن نظيره أو خير منه.

ومنها: أن بَيْعةَ العَقَبَةِ كانت مِن أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعباً كان لا يراها دونَ مشهد بدر.

ومنها: أن الجيشَ في حياة النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن لهم دِيوان، وأول مَن دوَّن الدِّيوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا مِن سُنَّته التي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعها، وظهرت مصلحتُها، وحاجةُ المسلمين إليها.

ومنها: أن الرجلَ إذا حضرت له فُرصةُ القُربة والطاعة، فالحزمُ كُلُّ الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجزُ فى تأخيرها، والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعةُ الانتقاض قلَّما ثبتت، والله سُبحانه يُعاقب مَنْ فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمكنه بعد من إرادته عقوبةً له، فمن لم يَستَجِبْ للهِ ورسوله إذا دعاه، حالَ بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابةُ بعد ذلك. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}[الأنفال: **24**] ، وقد صرَّح الله سبحانه بهذا في قوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[الأنعام: **110**] ، وقال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ}[الصف: **5**]. وقال: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}[التوبة: **115**] وهو كثير في القرآن.

ومنها: أن السُّنَّة للقادم من السفر أن يدخل البلَد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته، فيُصَلِّي فيه ركعتين، ثم يجلس للمسلِّمين عليه، ثم ينصرفُ إلى أهله.

ومنها: تركُ الإمام والحاكم ردَّ السلام على مَن أحدث حَدَثاً تأديباً له، وزجراً لغيره، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُنقل أنه رَدَّ على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المُغْضَبِ.

ومنها: معاتبةُ الإمام والمطاع أصحابه، ومَن يعز عليه، ويَكْرُم عليه، فإنه عاتَب الثلاثة دونَ سائِر مَنْ تخلَّف عنه، وقد أكثر الناسُ من مدح عتاب الأحبة، واستلذاذه، والسرور به، فكيف بعتاب أحبِّ الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب، وما أعظم ثمرتَه، وأجلَّ فائدتَه، ولله ما نال به الثلاثةُ مِن أنواع المسرَّات، وحلاوةِ الرضى، وخِلَعِ القبول.

ومنها: توفيقُ اللهِ لكعب وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلُحت عاجلتهم، وفسدت عاقبتهُم كلَّ الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة بعضَ التعب، فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كُلَّ الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمراراتُ المبادئ حلاوات في العواقب، وحلاوات المبادئ مرارات في العواقب. وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكعب: "أما هذا، فقد صدق"، دليلٌ ظاهر في التمسك بمفهوم اللَّقب عند قيام قرينة تقتضي تخصيص المذكور بالحكم .

وقول كعب: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، مرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية، فيه أن الرجل ينبغي له أن يردَّ حرَّ المصيبة بروح التأسي بمن لقى مثل ما لقى، وقد أرشد سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ، إنْ تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ} [النساء: 104]، وهذا هو الروح الذي

منعه الله سبحانه أهلَ النارِ فيها بقوله: {وَلَن يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ إذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: 39]

وقوله: "فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أُسوة" هذا الموضع مما عُدَّ من أوهام الزُّهْري، فإنه لا يُحفظ عن أحد من أهل المغازي والسير البتة ذِكرُ هذين الرجلين في أهل بدر، لا ابن إسحاق ولا موسى ابن عقبة، ولا الأموي، ولا الواقدي، ولا أحد ممن عدَّ أهل بدر، وكذلك ينبغي ألاَّ يكونا من أهل بدر، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَهْجُرْ حاطباً، ولا عاقبه وقد جسَّ عليه، وقال لعمر لما هَمَّ بقتله: "وما يُدريكَ أن الله اطلع على أَهْلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شِئتُم فقد غفرتُ لكم"، وأين ذنبُ التخلف من ذنب الجسِّ.

وفى نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر مَن تخلَّف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجرَ الصادقين وتأديبَهم على هذا الذنب، وأما المنافِقون، فجُرمهم أعظمُ من أن يُقابَل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدةَ فيه، وهكذا يفعلُ الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدِّبُ عبده المؤمن الذي يحبُه وهو كريم عنده بأدنى زَلَّة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حَذِراً، وأما مَن سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخلَى بينَه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نِعمة، والمغرورُ يظن أن ذلك مِن كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عينُ الإهانة، وأنه يُريد به العذابَ الشديد، والعقوبةَ التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: "إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فِى الدُّنْيَا، وإِذَا أَرادَ بِعَبْدٍ شَراً، أَمْسَكَ عَنْهُ عُقُوبَتَهُ في الدُّنْيَا، فَيَرِدُ يَوْمَ القِيَامَة بِذُنُوبِه". .

و من الفوائد التي نجنيها من غزوة تبوك:

بيان أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها و يرضاها.

ومنها: لطف الله بعباده المؤمنين وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة ، فإن كعبا وصاحباه صدقا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من إمكانهم أن يفعلوا كما فعل أهل النفاق ويكتفوا باستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله ثبتهم على الحق حتى نالوا التوبة النصوح .

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة ، وصبر العبد ، كلما عظم الأجر ، فإن غزوة تبوك كانت في وقت حر شديد ، وقد طابت الثمار ، فصار الخروج للغزو من أشد التمحيص لإيمان الصحابة .

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد ، فانظر إلى مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، كيف جلسا يبكيان ، وظهر منهم الندم الصادق والأسف الشديد .

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، هي أن ترى العبد قد تعلق قلبه بالله تعالى تعلقا تاما، وانقطع عن المخلوقين ، وهذا ما حصل لكعب وصاحبيه ، حيث يقول الله في ذلك (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه) وقال كعب : حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف .

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال : (وكونوا مع الصادقين) ، وبهذا يتبين فضيلة الصدق وحسن عاقبته .

وفيها خطر الركون إلى الدنيا وشهواتها ، وخطر تعلق القلب بها ، فإنها تصد عن أمور الآخرة ، فانظر إلى كعب رضي الله عنه وهو يقول : وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر، أي أميل وأحب البقاء من أجلها .

ومنها خطر التسويف ، فإن (سوف) مطية الشيطان وإنه لا يزال بالعبد حتى يصده عن الخير ويحرمه اللحاق بالسباقين للخيرات ولهذا حذر الله من التهاون في فعل الخيرات ، وأمر بالمسابقة على الخيرات ، ونستفيد ذلك من قول كعب رضي الله عنه ، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمَّر بالناس الجد ، وقال : وليتني فعلت .

ومنها تسليم المأموم على الإمام بعد الصلاة ، كما قال كعب وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وقد أفاد هذه الفائدة شيخنا ابن باز قدس الله روحه .

ومنها تطبيق الصحابة رضوان الله عليهم لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم فانظر لكعب وهو يقول :حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مَشَيت حتى تسورت حائط أبي قتادة –وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي –فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدُك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدتُ فنشدته [فسكت، فعدت فنشدته] فقال: الله ورسوله أعلم وفي إشارة الناس إلى النَّبطي الذي كان يقول: مَن يدل على كعب بن مالك دون نطقهم له تحقيقٌ لمقصود الهجر، وإلا فلو قالوا له صريحاً: ذاك كعب بن مالك، لم يكن ذلك كلاماً له، فلا

يكونون به مخالفين للنهي، ولكن لِفرط تحرّيهم وتمسكهم بالأمر، لم يذكروه له بصريح اسمه.

وقوله: "حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرِفُ" هذا التنكرُ يجده الخائفُ والحزينُ والمهمومُ في الأرض، وفي الشجر، والنبات حتى يجدَه فيمن لا يُعلم حاله من الناس، ويجده أيضاً المذنبُ العاصي بحسب جُرمه حتى في خُلُقِ زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويَجِدُه في نفسه أيضاً، فتتنكر له نفسُه حتى ما كأنّه هو، ولا كأنَّ أهلَه وأصحابَه، ومَن يُشْفِقُ عليه بالَّذِينَ يعرِفُهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على مَن هو ميتُ القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراكُ هذا التنكر والوحشة. وما لجرح بميت إيلام.

ومن المعلوم، أن هذا التنكرَ والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلبُ إذا استحكم مرضُه، واشتد ألمُه بالذنوب والإجرام، لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامةُ الشقاوة، وأنه قد أيسَ من عافية هذا المرض، وأعيا الأطباء شِفاؤه، والخوفُ والهمُّ مع الريبة، والأمنُ والسرورُ مع البراءةِ مِن الذنب.

فَمَا فِي الأرْضِ أَشْجَعُ مِنْ بريء ... وَلا فِي الأرْضِ أخْوَفُ مِنْ مُرِيبِ

منها: أن هلال بنَ أُمية ومرارة قعدا في بيوتهما، وكانا يُصلّيان في بيوتهما، ولا يحضُران الجماعة، وهذا يدل على أن هِجران المسلمين للرجل عذر يُبيح له التخلف عن الجماعة، أو يقال: من تمام هجرانه أن لا يحضر جماعة المسلمين، لكن يقال: فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا عتب عليهما على التخلف، وعلى هذا فيُقال: لما أُمِرَ المسلمون بهجرهم تُركوا: لم يُؤمروا، ولم يُنهوا، ولم يُكلّموا،

فكان مَن حضر منهم الجماعة لم يُمنع، ومَن تركها لم يُكلَّم، أو يقال: لعلهما ضَعُفَا وعَجَزا عن الخروج، ولهذا قال كعب: وكنتُ أنا أجلدَ القوم وأشبَّهم، فكنتُ أخرج فأشهدُ الصلاة مع المسلمين.

وقوله: "وآتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأُسلِّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول: هل حرَّك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا"؟ فيه دليل على أن الرد على مَن يستحق الهجرَ غيرُ واجب، إذ لو وجب الرد لم يكن بُد من إسماعه.

وفى مكاتبة ملك غسَّان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته للهِ ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانُه بهجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمِلُه الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا فيه من تبرئة الله له مِن النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره، وهذا البلاءُ يُظهر لُبَّ الرجل وسره، وما ينطوي عليه، فهو كالكِير الذى يُخرج الخبيث من الطيب.

وقوله: "فتيممتُ بالصحيفة التنورَ"، فيه المبادرة إلى إتلاف ما يُخشى منه الفساد والمضرَّة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يُؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمَّر، وكالكتاب الذى يُخشى منه الضررُ والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه.

وقول كعب: "يا رسول الله؛ إن من توبتي أن أنخلع من مالي"، دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال.

وقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ" ، دليل على أن مَن نذر الصدقة بكُلِّ ماله، لم يلزمه إخراجُ جميعه، بل يجوز له أن يُبقي له منه بقية.

ومنها: عِظَم مقدارِ الصِّدق، وتعليقُ سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة مِن شرهما به، فما أنجى الله مَن أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مَن أهلَكه إلا بالكذب، وقد أمر اللهُ سبحانه عِباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119].

******

قصة غزوة حنين

لقد حكى الله عز وجل قصة غزوة حنين حيث قال الله في سورة التوبة { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)}

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من سورة "براءة".

وقد كانت وقعة: "حُنين" بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان

والشاء والنَّعم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، وقد استعد لهم النبي صلى الله عليه وسلم أشد الاستعداد ، ولم يتكل على عددهم ولا عددهم ، فها هو يستعير سلاح الحرب من بعض المشركين والطلقاء ، روى ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – وعن عمرو بن شعيب وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم والزهري: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما أجمع السير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعا وسلاحا، فارسل إليه – وهو يومئذ مشرك – فقال: يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا فقال صفوان: أغصبا يا محمد ؟ قال: " لا بل عارية أعرنا مضمونة حتى نردها إليك " قال: ليس بهذا باس، فأعطى له مائة درع بما يكفيها من السلاح، فسأله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يكفيهم حملها، فحملها إلى أوطاس.

ورواه الامام أحمد وأبو داود والنسائي عن أمية بن صفوان.

قال السهيلي: واستعار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة حنين من نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح، فقال – صلى الله عليه وسلم – كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال حين أراد حنينا " منزلنا غدا – إن شاء الله تعالى بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر.

وفي رواية قال: منزلنا إن شاء الله تعالى إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر " و ذلك أن قريشا و بني كنانة تحالفت على بني هاشم و بني المطلب أن لا يناكحوهم و لا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال جماعة من أئمة المغازي: خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في اثني عشر ألفا من المسلمين، عشرة آلاف من المدينة وألفين من أهل مكة.

وروى أبو الشيخ عن محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي – رحمه الله تعالى – قال: كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أربعة آلاف من الأنصار، وألف من جهينة وألف من مزينة،وألف من أسلم.

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة".

ورواه الترمذي و قال: هذا حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا.

فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين"، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، عز وجل (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا

رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25)، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول:" أين يا عباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله"، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب ...

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس –وكان جهير الصوت –أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة –يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه –فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخرًا بالخزرج وكانوا صُبُرًا عند الحرب، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركائبه فنظر إلى مُجتَلَد القوم، فقال: "الآن حمي الوَطيس".

وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوما رُمَاة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآيات في معرض سياق قصة الغزوة : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍ ولا لفرٍ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: (ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ) أي: طمأنينته وثباته على رسوله، (وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أي: الذين معه، (وَأَنزلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) وهم الملائكة ، حيث نصر الله نبيه بنزول الملائكة لنصرة نبيه وأصحابه حيث يقول قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن

يَسَار، عمن حدثه، عن جُبَير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: إنا لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البِجَاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة.

ولقد نصر الله رسوله مع نزول الملائكة بالرعب حيث قذف في قلوب الكفار كما قال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السُّوَائي –وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد –فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطَّسْت فيطنّ ، فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا، وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد فالله أعلم، ولقد خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم بعض صناديد قريش وهم كفار ، وقد اختلفت قلوبهم فيما أضمروا من هذا الخروج ، أخرج البيهقي في سننه عن شيبة بن عثمان قال : لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قد عَري، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأري منه –قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائمًا، عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عَمُّه ولن يخذله –قال: فجئته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابن عمه ولن يخذله. فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسَوّره سورة بالسيف، إذ رفع لي شُوَاظ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تَمْحَشَني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "يا شيبَ، يا شيب ادن مني اللهم أذهب عنه الشيطان". قال: فرفعت إليه بصري، ولهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: "يا شيب قاتل الكفار".

وفي صحيح مسلم، عن هَمَّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم"

{ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27) } ولقد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النَّصْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إنْ رَأيتُ ولا سَمعتُ بمثْلِه ... في النَّاس كُلّهم بمثل مُحَمَّد ...

أوْفَى وأعْطَى للجزيل إذا اجتُدى ... ومَتى تَشَأ يُخْبرْكَ عَمّا في غَد ...

وإذَا الكتيبة عَرّدَتْ أنيابُها ... بالسَّمْهَريّ وَضَرْب كُلّ مُهَنَّد ...

فَكَأنَّه ليث على أشْبَاله ... وسط الهَبَاءَة خَادر في مَرْصَد

و منهم كذلك صفوان بن أمية ، ومنهم شيبة بن عثمان ، وغيرهم من صناديد قريش ممن تألفهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد دخل الناس في دين الله بعد هذه الغزوة التي جاءت بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجا ، كما قال تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح .....) السورة .

******

قصة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى { إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) }

فهذه قصة الهجرة ودخولهم الغار التي قال فيها عمر بن الخطاب عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لايخطيء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة، وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه ، أتانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها: قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ماجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذه الساعة إلا لأمر حدث،قالت:

فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أخرج عني من عندك: فقال: يارسول الله، إنما هما ابنتاي ، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يارسول الله؟ قال: الصحبة. قالت: فوالله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أحداً يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يانبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا فاستأجرا عبدالله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً– يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما وروى البخاري عن عائشة في حديث طويل وفيه:(... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي هذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ماجاء به في هذه الساعة إلا أمر ، قالت: فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك ، قال: فإني قد أُذِنَ لي في الخروج فقال أبوبكر: الصحبة بأبي أنت يارسول الله قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: نعم، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يارسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز ، وصنعنا لهم سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق ، ثم لحق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنّا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام، شاب، ثقف ، لقن ، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام،

ويرعى عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رسل –وهو لبن منحتهما ورضيفهما– ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد ابن عدي –هادياً خريتاً– والخريت الماهر قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل،ولم يعلم بخروج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

أما علي فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته وكان الميعاد بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة ، لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لاتتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبدالله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال.

ثم انطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين طمأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – الصديق بمعية الله لهما: فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي – صلى الله عليه وسلم – وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

فقال:(ماظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟) وفي رواية :(اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما).

وأثبت الحق عزوجل ذلك في قوله تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (سورة التوبة، الآية:**40**). وبعد ثلاث ليال من دخول النبي – صلى الله عليه وسلم – في الغار خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول الى رسول الله، وقد قلنا إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبدالله بن أريقط وكان مشركاً وقد أمِناهُ فدَفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش ، وفي الطريق الى المدينة مرّ النبي – صلى الله عليه وسلم – بأم معبد ، في قديد ، حيث مساكن خزاعة، وهي أخت حبيش بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: (وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً) ، فعن خالد بن حبيش الخزاعي – رضي الله عنه –، صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجراً الى المدينة، هو وأبوبكر – رضي الله عنه –، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة – رضي الله عنه –، ودليلهما الليثي عبدالله بن الأريقط، مرُّوا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت برزة جلدة، تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم، فسألوهما لحماً وتمراً؛ ليشتروه منها، فلم

يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْملين، مُسنْتين، فنظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: (ماهذه الشاة يأم معبد؟). قالت: خلفها الجْهد عن الغنم، قال: (فهل بها من لبن؟) قالت: هي أجهد من ذلك. قال: (أتاذنين أن أحلبها؟). قالت: بلى بأبي أنت وأمي، نعم إن رأيت بها حَلْباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت عليه، ودرت ، واجترت ودعا بإناء يُرْبض الرهط، فحلب فيها ثجًّا، حتى علاه البهاء ، ثم سقاها حتى رَويت، وسقى أصحابه حتى رَووا، وشرب آخرهم – صلى الله عليه وسلم –، ثم أراضوا، ثم حلب فيها ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها. فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت، ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

جزى الله ربُّ الناس خير جزائه

... ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالهُدى واهتدت به

... ... فقد فاز من أمس رفيق محمد

فيا لَقُصَيِّ مازوى الله عنكم

... ... به من فعال لا تجاري وسُؤدد

لَيهنِ بني كعب مكانُ فتاتهم

... ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها

... ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلّبت

... ... عليه صريحاً ضرة الشاة مُزبد

و لما يأس المشركون من إدراك النبي صلى الله عليه وسلم ، وأضلوا أثره عند الغار ، بعدها أعلنت قريش في نوادي مكة بأنه من يأتي بالنبي – صلى الله عليه وسلم – حياً أو ميتاً، فله مائة ناقة وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة وطمع سراقة بن مالك بن جعشم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعدما كان جاهداً عليه. قال ابن شهاب: وأخبرني عبدالرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبي بكر دية كل منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجالس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: ياسراقة إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمد وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهو من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض خضضت عالية حتى أتيت فرسي فركبتها فعرفتها تقرب بي حتى

**

دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي عصيت الأزلام فقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو لايلتفت وأبوبكر يكثر الإلتفات ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثات ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار مايريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

وكان مما أشتهر عند الناس من أمر سراقة ماذكره ابن عبدالبر وابن حجر وغيرهما، قال ابن عبدالبر: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لسراقة بن مالك: (كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟) قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلاً أزب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقال: الله أكبر، الحمدلله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمدلله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج. و لم يبق بمكة من

المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر و علي رضي الله تعالى عنهما أقاما بأمره لهما ، و خلا من اعتقله المشركون كرهاً ، و قد أعد أبو بكر رضي الله عنه جهازه و جهاز رسول الله صلى الله عليه و سلم ، منتظراً حتى يأذن الله عز و جل لرسوله صلى الله عليه و سلم في الخروج . فلما كانت ليلة هم المشركون بالفتك برسول الله صلى الله عليه و سلم ، و أرصدوا على الباب أقواماً ، إذا خرج عليهم قتلوه ، فلما خرج عليهم لم يره منهم أحد ، وقد جاء في حديث أنه ذر على رأس كل واحد منهم تراباً ثم خلص إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه ، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً ، و قد استأجرا عبد الله بن أريقط ، و كان هادياً خريتاً ، ماهراً بالدلالة إلى أرض المدينة ، و أمناه على ذلك مع أنه كان على دين قومه ، و سلما إليه راحلتيهما ، و واعداه غار ثور بعد ثلاث ، فلما حصلا في الغار عمى الله على قريش خبرهما ، فلم يدروا أين ذهبا . و كان عامر بن فهيرة ، يريح عليهما غنماً لأبي بكر ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تحمل لهما الزاد إلى الغار ، و كان عبد الله بن أبي بكر يتسمع ما يقال بمكة ثم يذهب إليهما بذلك فيحترزان منه . و جاء المشركون في طلبهما إلى ثور ، وما هناك من الأماكن ، حتى إنهم مروا على باب الغار ، و حازت أقدامهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و صاحبه ، و عمى الله عليهم باب الغار ، و يقال . و الله أعلم . إن العنكبوت سدت على باب الغار ، و إن حمامتين عششتا على بابه ، و ذلك تأويل قوله تعالى " إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم " و ذلك أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لشدة حرصه بكى حين مر المشركون ، و قال : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر موضع قدميه لرآنا ، فقال له النبي صلى الله عليه و سلم : " يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

" . وخبر العنكبوت وبيض الحمام لا يصح فيه حديث إلا أن بعض أهل العلم أثبت ذلك تفسيرا لقوله تعالى (وأيده بجنود لم تروها) ولا يلزم من ذلك صحة الخبر كما لا يلزم من عدم صحة الخبر تكذيب القصة والله أعلم .

و لما كان بعد الثلاث أتى ابن أريقط بالراحلتين فركباهما ، و أردف أبو بكر عامر بن فهيرة و سار الديلي أمامهما على راحلته .

و مر رسول الله صلى الله عليه و سلم في مسيره ذلك بخيمة أم معبد فقال عندها ، و رأت من آيات نبوته في الشاة و حلبها لبناً كثيراً في سنة مجدبة ما بهر العقول ، صلى الله عليه و سلم . و قد قال الله تعالى : { إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنود لم تروها و جعل كلمة الذين كفروا السفلي و كلمة الله هي العليا و الله عزيز حكيم } يقول تعالى مؤنبا لمن تخلف عن الجهاد مع الرسول : { إلا تنصروه } أنتم فإن الله ناصره و مؤيده و مظفره كما نصره { إذ أخرجه الذين كفروا } من أهل مكة هاربا ليس معه غير صاحبه و صديقه أبي بكر ليس غيره و لهذا قال { ثاني اثنين إذ هما في الغار }

كما أخرج البخاري و مسلم في صحيحهما من حديث أنس بن مالك أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبي صلى الله عليه و سلم و نحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه فقال : [يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما]

و قد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم : لو جاؤونا من هاهنا لذهبنا من هنا فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر

و إذا البحر قد اتصل به و سفينة مشدودة إلى جانبه و هذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة و لكن لم يرد ذلك بإسناد قوي و لا ضعيف و لسنا نثبت شيئا من تلقاء أنفسنا و لكن ما صح أو حسن سنده قلنا به و الله أعلم.

فبعد أن نجى صلى الله عليه وصاحبه من كفار قريش وهما في الغار ، ومن سراقة لما عثر عليهما ، وتوجها نحو المدينة ، وكان الصحابة في المدينة يترقبون وصوله عليه السلام كل يوم فقد روى البخاري عن عائشة، رضي الله عنها أن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكفوا قدومه كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر الحرة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلا دخلوا، وذلك في أيام حارة حتى كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلوا البيوت فأوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين، يلوح بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فصرخ بأعلى صوته: (يا بني قيلة)، وفي لفظ: يا معشر العرب، (هذا جدكم)، وفي لفظ: (هذا صاحبكم الذي تنتظرون قد جاء).

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الاول، فخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه.

وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله عند ذلك.

وفي رواية: (فلما رأوا أبا بكر ينحاز له عن الظل عرفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعدل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين حتى نزل بهم علو المدينة بقباء في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهِدم –بكسر الهاء وسكون الدال المهملة–.

روى الشيخان عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النجار، وكانوا أخواله لأن أم عبد المطلب منهم فجاؤوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه: (اركبوا آمنين مطاعين).

وكان اليوم يوم الجمعة فلما ارتفع النهار دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم براحلته وحشد المسلمون ولبسوا السلاح، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقته القصواء والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه منهم الماشي والراكب فاجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول الله أخرجت ملالا لنا أم تريد دارا خيرا من دارنا ؟ قال: (إني أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها – أي ناقته – فإنها مأمورة)، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قباء يريد المدينة فتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأباعر وصار الخدم والصبيان يقولون: (الله أكبر، جاءنا رسول الله جاء محمد) قال أنس فيما رواه البيهقي: (إني لأسعى مع الغلمان إذ قالوا: محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئا، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر فكمنا في بعض جدر المدينة وبعثا رجلا من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين.

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ فما رأينا منظرا شبيها به يومئذ.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحا بقدومه).

وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال: (ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم).

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء).

فلم يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار إلا قالوا: (هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة).

فيقول لهم خيرا ويدعو أو يقول: (إنها مأمورة خلوا سبيلها)، فسار حتى إذا أتت دار بني عدي بن النجار قامت إليه وجوههم، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد، فبركت راحلته على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ،ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ثم تلحلحت وأرزمت، ووضعت جرانها،وجعل جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتنزل في دار بني سلمة فلم تفعل.

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال: (هنا المنزل إن شاء الله) (وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) (المؤمنون 29) وجاء أبو أيوب فكلموه في النزول عليهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي بيوت أهلنا أقرب) ؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي وقد حططنا رحلك فيها،قال: (فانطلق فهيئ لنا مقيلا) ، فذهب فهيأ لهما مقيلا،فأتاه آخر فقال: يا رسول الله انزل علي، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: (المرء مع رحله حيث كان)، فمضت مثلا فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزل أبي أيوب وقر قراره واطمأنت داره ونزل معه زيد بن حارثة

.

وروى الترمذي وصححه، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه فجئت لأنظر إليه، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال: (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام).

وروى مسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: (لما نزل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو: فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: (إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت)،قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفله وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حسب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء (تخوفا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذيه.

وقال زيد بن ثابت : (فلقد كنا في بني مالك بن النجار ما من ليلة إلا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم حتى تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت أبي أيوب وكان مقامه فيه سبعة أشهر وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة).

قال ابن إسحاق: (وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجته وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأختها أسماء زوج الزبير وأم رومان (أم عائشة) فلما قدموا المدينة أنزلوا في بيت حارثة بن النعمان).

وذكر رزين أن أبا بكر أرسل عبد الله بن أريقط مع زيد ليأتيه بأهله.

قال ابن إسحاق: (وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس.

ولما اطمأنت برسول الله صلى الله عليه وسلم داره، وأظهر الله بها دينه، وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قيس صرمة أخو بني عدي بن النجار، يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خصهم به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم:

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً * يذكر لو يلقى صديقا مواتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه * فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا

فلما أتانا أظهر الله دينه * فأصبح مسرورا بطيبة راضيا

وألفى صديقا واطمأنت به النوى * وكان لنا عونا من الله باديا

يقص لنا ما قال نوح لقومه * وما قال موسى إذ أجاب المناديا

فأصبح لا يخشى من الناس واحدا * قريبا ولا يخشى من الناس نائيا

بذلنا له الأموال من جل مالنا * وأنفسَنا عند الوغى والتآسيا

ونعلم أن الله لا شئ غيره * ونعلم أن الله أفضلُ هاديا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم * جميعا وإن كان الحبيب المصافيا

******

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى :{ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) } هذه القصة مذكورة في عدة سور من القرآن فذكرت في يونس وفي سورة "الصافات" وفي سورة "ن" وذلك أن يونس بن مَتَّى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية "نينوى" ، وهي قرية من أرض الموصل، من أرض العراق ، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورغت الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: { فَلَوْلا

كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس:98] .وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فَلَجَّجت بهم، وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، قال الله تعالى: { فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } [الصافات:141]، أي: وقعت عليه القرعة ، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر -فيما قاله ابن مسعود-حوتًا يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحمًا، ولا تهشم له عظما؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجنًا. ولقب يونس بذي النون نسبة للحوت الذي التقمه .

وكان سبب خروجه منهم ، أنهم لما استعصوا عليه وأبوا أن يتابعوه على الدين دعا عليهم ، كما قال سبحانه { وذا النون إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا } أي لقومه { فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } [أي: نضيق عليه في بطن الحوت. يُروَى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } [الطلاق:7] .

وقد سجنه الله في الظلمات كما قال سبحانه { فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

قال ابن مسعود، وابنُ عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوتُ في البحار يَشُقُّها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونسُ تسبيح الحصى في قراره ، فعند ذلك وهنالكَ قال: { لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ }وقال عوف: لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب اتخذت لك مسجدًا في موضع ما اتخذه أحد.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن يزيد الرقاشي قال: سمعت أنس بن مالك –ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم–أن يونس النبي، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: "اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين". فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش ، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك ؟ قالوا: لا يا رب ، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفَع له عَمَلٌ متقبل ، ودعوة مجابة؟ قال: نعم . قالوا: يا رب، أَوَلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء .

وقد جاء الترغيب في الدعاء بهذه الدعوة عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد ابن سعد، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد، –وهو ابن أبي وقاص –قال: مررت (12) بعثمان بن عفان، رضي الله عنه، في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يَردُدْ عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا إلا أني مررتُ بعثمان آنفا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يَرْدُد علي السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان

فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَدَدت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلى حتى حلفَ وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفا وأنا أحدّث نفسي بكلمة سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَى بصري وقلبي غشَاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قَام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: "من هذا؟ أبو إسحاق؟" قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: "فمه؟" قلت: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: "نعم، دعوةُ ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: { لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له".ورواه الترمذي، والنسائي في "اليوم والليلة"، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد به .

ثم إن يونس بقي على الساحل حتى نبت جلده كما كان بعد أن أنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو القرع ، وسخر له ماشية تدر عليه ، فلما صح أرسله الله إلى قوم يصل عددهم فوق المائة ألف ، فآمنوا كلهم ، فقيل هم قومه وقيل غيرهم .

*****

قصة يوسف عليه السلام

قال الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص)فهذه السورة العظيمة –وهي سورة يوسف– من أولها إلى آخرها تتحدث عن نبي الله يوسف عليه السلام و قصته مع إخوته كما قال تعالى (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) فيوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ،نبي ابن نبي ابن نبي ابن خليل الله كما أخرج البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم؟ قال: "أكرمهم عند الله أتقاهم". قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فأكرم الناس (وفي رواية : إنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم) : يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله". قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فعن معادن العرب تسألوني؟". قالوا: نعم. قال: " فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا". والحديث أصله في الصحيح

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير: عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قصصت علينا ؟ فنزلت {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}, ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلاً.ورواه الحاكم وصححه ، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فتلا عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله { الر تلك آيات الكتاب المبين } هذه السورة ثم تلا عليهم زمانا فأنزل الله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم

لذكر الله) (الحديد الآية 16) رواه الحاكم في المستدرك (345/2) وقال: "حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية برقم (3652).

وقبل البدأة بقصة يوسف نقدم كلاما عظيما للشيخ ابن سعدي حول قصة يوسف حيث يقول في تفسيره "واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي صلى الله عليه وسلم ينقل. فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمرا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلا لأمره، واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق، لطفا بعبده، وإحسانا إليه، فأوَّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراما وإعظاما، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها، ولهذا قال: { قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسحاق إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } .

والآن نبدأ بالقصة فإن يعقوب نبي الله كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره وباقي إخوته لم يوح إليهم.

قال المفسرون وغيرهم رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن (أحد عشر كوكبا) وهم إشارة إلى بقية إخوته (والشمس والقمر) وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر .

ثم بين له أبوه ما يراد به في المستقبل على ضوء ما رأى في رؤياه ، فقال له (وكذلك يجتبيك ربك) أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها (يجتبيك ربك) أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك (ويتم نعمته عليك) أي بالوحي إليك (وعلى آل يعقوب) أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحق ووالد جدك إبراهيم الخليل (إن ربك عليم حكيم) كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته).

ثم إن الله جل ذكره بين لنا أن إخوة يوسف حسدوه على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة يقولون فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين (إن أبانا لفي ضلال مبين) أي بتقديمه حبهما علينا ،ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك.

فلما تمالؤا على ذلك وتوافقوا عليه (قال قائل منهم) قال مجاهد هو شمعون ، وقال السدي هو يهودا ،وقال قتادة ومحمد بن اسحق هو أكبرهم روبيل (لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة) أي المارة من المسافرين (إن كنتم فاعلين) ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم:يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه.

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذا لخاسرون أي عاجزون هالكون.

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلا أن غابوا عن عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب أي في قعره على راعوفته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح وهو الذي ينزل ليملي الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لابد لك من

فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك خائفون منك (وهم لا يشعرون).

فلما ذهبوا به و صنعوا ما تعاقدوا عليه ،وجاءوا أباهم وقت العشاء يبكون أن أكل الذئب يوسف عليه السلام ، ولم تنطلي حيلتهم على أبيهم فإنه كان يعلم أنه لا يوجد في الوجود ذئب يأكل فريسته ولا يمزق ثيابها ، فإنهم قد نسوا أن يمزقوا ثيابه واكتفوا بتلطيخه بالدم وهذا مما يدل على أنهم كانوا صغارا في السن ، وكذلك لما يعلم من حقدهم عليه من قبل ، ولأنه علم أن الله سيرفع شأن يوسف ويورثه النبوة وذلك لما قص عليه الرؤيا وهو صغير ، فلما قالوا له زعمهم قال لهم مباشرة (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)

ثم انتقل المشهد القرآني إلى البئر ليبين لنا ماذا حدث ليوسف عليه السلام ، فإنهم لما ألقوه في البئر

جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة أي مسافرون قاصدين ديار مصر من الشام، وكان معهم بضائع للبيع ، فأرسلوا بعضهم ليستقي لهم من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما رآه ذلك الرجل (قال يا بشرى) أي يا بشارتي (هذا غلام وأسروه بضاعة) أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم (والله عليم بما يعملون) أي هو عالم بما تمالا عليه أخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر مما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس أي قليل نزر وقيل هو الزيف (دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين).قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي باعوه بعشرين درهما اقتسموها درهمين درهمين.

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه) أي أحسني إليه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

قالوا وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي تكون الخزائن مسلمة إليه قال ابن اسحق واسمه اطفير بن روجيب قال وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل،وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها.

وقال ابن اسحق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته أكرمي مثواه والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) [القصص: 26] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين).فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد،وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين. ويشهد له قوله تعالى (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) [الأحقاف: 15].

وعاش يوسف عليه السلام في بيت العزيز مكرما ، وكان أمينا على أهل البيت يراعي حق سيده ، ومع طول المخالطة بينه وبين سيدته زوجة العزيز راودته عن نفسه كما قال جل وعلا (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون).

فطلبت منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له، وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير قال ابن اسحق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه عن مكر النساء فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء ، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قوله عليه الصلاة والسلام : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وشاب نشأ في عبادة الله ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله " .

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال (معاذ الله إنه ربي) يعني زوجها صاحب المنزل سيدي (أحسن مثواي) أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده (إنه لا يفلح الظالمون) والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ولهذا قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من

عبادنا المخلصين ،وذلك بعد أن هم بها كما قال الله ، فهو شاب في شدة قوته ، ولكنه تذكر الله فردع نفسه ، وعصمه الله لأنه من عباده المخلصين ، واستبقا الباب ، فقد هرب منها طالبا إلى الباب ليخرج منه فرارا منها فاتبعته في أثره ، وأمسكت بثوبه لتمنعه من الهروب فمزقته من دبر ، وقدر الله دخول الزوج إلى المنزل وهما على هذه الحال ، فبدرته بالكلام وحرضته عليه (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم).

اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قال يوسف عليه السلام (هي راودتني عن نفسي) احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ، وكان من تمام نصر الله له أن قيض له شاهدا وكان من أهلها فأنطقه الله بالحق ، قيل كان صغيرا في المهد قاله ابن عباس وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير.

وقال آخرون بل كان رجلا من أقارب أطفير بعلِها وقيل قريبا إليها ،وممن قال إنه كان رجلا ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم ، وكان حكمه أن قال (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى مزقت مقدم قميصه (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان.

ولهذا قال تعالى (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أي هذا الذي جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه ثم اتهمته بالباطل ثم ضرب بعلها عن هذا صفحا فقال (يوسف أعرض عن هذا) أي لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه

الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

ثم إن الخبر اشتهر و شاع في البلد ، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن: { امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا } أي: هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، وهي مع هذا قد بلغ حبه من قلبها مبلغا عظيما.

{ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا } أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، { إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرا، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز ، ولهذا سماه مكرا، فقال:{ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ } تدعوهن إلى منزلها للضيافة.

{ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } أي: محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة، طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، { وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا } ليقطعن بها ذلك الطعام { وَقَالَتِ } ليوسف: { اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ } في حالة جماله و بهائه.

{ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ } أي: أعظمنه في صدورهن، ورأين منظرا فائقا لم يشاهدن مثله، { وَقَطَّعْنَ } من الدهش { أَيْدِيَهُنَّ } بتلك السكاكين اللاتي معهن، { وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ }

أي: تنزيها لله { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ } وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: { وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقا ومحبة وشوقا لوصاله وتوقا.

ولهذا قالت له بحضرتهن: { وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ } لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، { وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ } أي: أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء، { وَأَكُنْ } إن صبوت إليهن { مِنَ الْجَاهِلِينَ } فإن هذا جهل، لأنه آثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا، فمن أجهل منه؟!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

{ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ } حين دعاه { فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ } فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيسها، وصرف الله عنه كيدها، { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } لدعاء الداعي { الْعَلِيمُ } بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه.

فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة.وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح. { بَدَا لَهُمْ } أي: ظهر لهم { مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ } الدالة على براءته، { لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ } أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن. { و } لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من { دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ } أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، .فـ { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا } وذلك الخبز { تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ } [ص 398] أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه،فـ { قَالَ } لهما مجيبا لطلبتهما: { لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } أي: فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما،ثم قال: { ذَلِكُمَا } التعبير الذي سأعبره لكما { مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك { إِنِّي

تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلا،فلا يقال: إن يوسف كان من قبل، على غير ملة إبراهيم.

{ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإسحاق وَيَعْقُوبَ } ثم فسر تلك الملة بقوله: { مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة.

ثم صرح لهما بالدعوة إلى توحيد الله بأسلوب لطيف مقنع ، فانظر كيف استغل يوسف الموقف للدعوة مع أنهم في السجن ، ولكن المؤمن لا يفتأ يدعو لربه في كل موطن وفي كل لحظة .

فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما، بعد ما وعدهما ذلك ،

فقال { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا } وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، فإنه يخرج من السجن { فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا } أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، { وَأَمَّا الآخَرُ } وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه.

{ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ } فإنه عبرعناالخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من

وقوعه فقال: { قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره. { وَقَالَ } يوسف عليه السلام: { لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا } وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا: { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } أي: اذكر له شأني وقصتي، لعله يرقُّ لي، فيخرجني مما أنا فيه، { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ } أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه.

{ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سببا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال: { إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ } أي: سبع من البقرات { عِجَافٌ } وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كنَّ نهاية في القوة.

{ وَ } رأيت { سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ } يأكلهن سبع سنبلات { يَابِسَاتٍ } { يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ } لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد. { إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجها.

و { قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ } أي أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعذر] (1) ثم قالوا: { وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحْلامِ بِعَالِمِينَ } أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضا من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها -لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتما لها غاية، فعبرها يوسف- وقعت عندهم موقعا عظيما، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول: "أنا لها أنا لها" فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقّت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه.

و لما تراجع علماء الملك عن تأويل الرؤيا بل ووصموها بأنها أضغاث أحلام ، تذكر ذلك الرجل الذي وصاه يوسف عليه السلام أن يذكره عن الملك ، فقال أنا أنبأكم بتأويلها فأرسلوني إلى يوسف المسجون ، فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك فقال: { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

فعبر يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك – والله أعلم – أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك، لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجدب فقال: { تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا } أي: متتابعات.

{ فَمَا حَصَدْتُمْ } من تلك الزروع { فَذَرُوهُ } أي: اتركوه { فِي سُنْبُلِهِ } لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه { إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ } أي: دبروا أيضا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلا ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

{ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات. { سَبْعٌ شِدَادٌ } أي: مجدبات جدا { يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ } أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرا. { إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ } أي: تمنعونه من التقديم لهن.

{ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } أي: بعد السبع الشداد { عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، .ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

وعندئذ أمر الملك بإخراج يوسف من السجن والاستفادة منه ، ولكن لما جاءه الرسول ليخرجه امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

فـ { قَالَ } للرسول: { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } يعني به الملك. { فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح { إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } .

فأحضرهن الملك، وقال: { مَا خَطْبُكُنَّ } أي: شأنكن { إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ } فهل رأيتن منه ما يريب؟ ،فبرَّأنه و { قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ } أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة

العزيز، فـ { قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ } أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن { أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } في أقواله وبراءته.{ ذَلِكَ } الإقرار، الذي أقررت [أني راودت يوسف] { لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ }

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. { وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي } أي: من المراودة والهم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك. { إِنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان { إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي } فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده.

{ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، { رَحِيمٌ } بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال: { ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي } أي: أجعله خصيصة لي ومقربا لديَّ فأتوه به مكرما محترما،{ فَلَمَّا كَلَّمَهُ } أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا } أي: عندنا { مَكِينٌ أَمِينٌ } أي: متمكن، أمين على الأسرار، فـ { قَالَ } يوسف طلبا للمصلحة العامة: { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ } أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلا حافظا مدبرا.

{ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارِج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

قال تعالى: { وَكَذَلِكَ } أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، { مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ } في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض، { نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ } أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

{ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: { وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ } من أجر الدنيا { لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من

كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

وبعد ذلك بدأت أحداث رؤيا يوسف عليه السلام تترجم على الواقع حيث جاءت سنواتُ الجدب واحتاج الناس خصوصا من كان خارج المدن ، وقد كان يوسف عليه السلام لما تولى خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة، زروعا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، و جبا من الأطعمة شيئا كثيرا وحفظه، وضبطه ضبطا تاما، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب، حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر. { وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ } أي: لم يعرفوه ، وهذا يدل على تباعد السنين بين رؤيا يوسف وبين تحققها ، وبالتالي بين وقوع يوسف في البئر وبين رؤيتهم له عند الميرة ، كما سيأتي ذكره في نهاية قصة يوسف عليه السلام ، وذكر السُّدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبعُ السنين المخصبة، ثم تلتها سنونُ الجدب، وعمّ القحط بلاد مصر بأكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي كان يسكنها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهراءَ متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير في السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلةٌ واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر.

فلما دخلوا على يوسف وعرفهم أخذ يخطط في كيفية لم الشمل الذي فرقه الشيطان فأعطاهم ميرتهم ،و كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، وهو بنيامين.

ف { قَالَ } لهم: { ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ } ثم رغبهم في الإتيان به فقال: { أَلا تَرَوْنَ أَنِّيّ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزلِينَ } في الضيافة والإكرام.

ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: { فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ } وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

ف { قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ } دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم { وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } لما أمرتنا به.

{ وَقَالَ } يوسف { لِفِتْيَانِهِ } الذين في خدمته: { اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ } أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة. { فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا } أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } لأجل التحرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلا وافيا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

{ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ } أي: إن لم ترسل معنا أخانا، { فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ } أي: ليكون ذلك سببا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } من أن يعرض له ما يكره.

{ قَالَ } لهم يعقوب عليه السلام: { هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ } أي: لقد تقدم منكم التزام، أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى.

{ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

ثم إنهم { وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ } هذا دليل على أنه قد كان معلوما عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها. فـ { قَالُوا } لأبيهم – ترغيبا في إرسال أخيهم معهم -: { يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي } أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفَّى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟

{ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا } أي: إذا ذهبنا بأخينا صار سببا لكيله لنا، فمرنا أهلنا، وأتينا لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، { وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ } بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، { ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ } أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

فـ { قَالَ } لهم يعقوب: { لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ } أي: عهدا ثقيلا وتحلفون بالله { لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون دفعه، { فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ } على ما قال وأراد { قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته.

ثم لما أرسله معهم وصاهم، إذا هم قدموا مصر، أن { لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ } وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب ، { وَ } إلا ف { مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } فالمقدر لا بد أن يكون، { إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ } أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، { وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

{ وَلَمَّا } ذهبوا و { دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ } ذلك الفعل { يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا } وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: { وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ } أي: لصاحب علم عظيم { لِمَا عَلَّمْنَاهُ } أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

لما دخل إخوة يوسف على يوسف { آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ } أي: شقيقه وهو "بنيامين" الذي أمرهم بالإتيان به، و ضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و { قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ } أي: لا تحزن { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

{ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ } أي: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا. { جَعَلَ السِّقَايَةَ } وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ، وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: { صُوَاعَ الْمَلِكِ } قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، { فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ } أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، { أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } ولعل هذا المؤذن، لم يعلم بحقيقة الحال.

{ قَالُوا } أي: إخوة يوسف { وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ } لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه ، لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: { مَاذَا تَفْقِدُونَ } ولم يقولوا: "ما الذي سرقنا" لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

{ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ } أي: أجرة له على وجدانه { وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

{ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ } بجميع أنواع المعاصي، { وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: " تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق "{ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ } أي: جزاء هذا الفعل { إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ } بأن كان معكم؟{ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ } أي: الموجود في رحله { جَزَاؤُهُ } بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق

إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: {كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }.

.قال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا ، والمعنى جزاء هذا الجرم هو استعباد الشخص الذي يوجد المسروق في رحله ،إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضا جائزا.

فبدأ بالتفتيش في أوعيتهم وجعل أخاه آخرهم ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ثم قال الله تعالى (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر (إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء) أي في العلم (وفوق كل ذي علم عليم) وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأيا وأقوى عزما وحزما وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يعنون يوسف ، قيل كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره،وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له،وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء.،وقيل غير ذلك فلهذا (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه) وهي أي أسر قوله (وأنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) أجابهم سرا لا جهرا حلما وكرما وصفحا وعفوا فدخلوا معه في الترقق والتعطف فقالوا (يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ

أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء،هذا ما لا نفعله ولا نسمح به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف إليهم حينئذ وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جدا .

فلما أخذ يوسف أخاه بنيامين بهذه التهمة ، ومضى اجتمعوا يتناجون في هذه المصيبة التي لم يتوقعوا حدوثها ، وتذكروا عهدهم لأبيهم في الحفاظ عليه فقال كبيرهم وهو روبيل (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم) لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله فلم يبق لي وجه أقابله به (فلن أبرح الأرض) أي لا أزال مقيما ههنا (حتى يأذن لي أبي) في القدوم عليه (أو يحكم الله لي) بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي (وهو خير الحاكمين.

ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) أي اخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين.واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) أي فإن هذا الذي أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك (وإنا لصادقون قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) أي ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا هو خلقه وإنما سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل.

قال ابن اسحق وغيره لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتبا على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال وهذا كما قال بعض السلف إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) يعني يوسف وبنيامين وروبيل (إنه هو العليم) أي بحالي وما أنا فيه

من فراق الأحبة (الحكيم) فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة (وتولى عنهم) أي أعرض عن بنيه (وقال يا أسفى على يوسف) ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامنا كما قال بعضهم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال متمم بن نويرة :

لقد لامني عند القبور على البكا * رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى * فدعني فهذا كله قبر مالك

ولا يزال يعقوب يبكي على فقد يوسف الذي أنساه كل بلاء لدرجة أنه فقد بصره من كثرة البكاء فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق (قالوا) له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه (تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) يقولون لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك (قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) يقول لبنيه لست أشكوا إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى الله عزوجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجا وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال: (وأعلم من الله ما لا تعلمون) ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما.

(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أي لا تيئسوا من الفرج بعد الشدة فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون .

فانطلق الإخوة للبحث عن المفقودين حتى وصلوا ليوسف وأخبروه عن رغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم رد أخيهم بنيامين إليهم (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا، قيل كانت دراهم رديئة ، وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك.

وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) قيل بقبولها قاله السدي،وقيل برد أخينا إلينا قاله ابن جريج.

وقال سفيان بن عيينة إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير.

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلا لهم وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون .قالوا) وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مرارا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي) يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم وقوله (وهذا أخي) تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الاحتيال ولهذا قال (قد من الله علينا) أي بإحسانه

إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا (وإن كنا لخاطئين).أي فيما أسدينا إليك ،وها نحن بين يديك (قال لا تثريب عليكم اليوم) أي لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال (اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

ومن زعم أن الوقف على قوله لا تثريب عليكم وابتدأ بقوله اليوم يغفر الله لكم فقوله ضعيف

والصحيح الأول .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب بإذن الله وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات ،ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

فانطلقوا فرحين بذلك ليدخلوا على أبيهم السرور والفرح كما أدخلوا عليه الحزن ، ولكن الله سبحانه جعل الريح تسبقهم بالبشرى فقد أخرج عبد الرزاق بسنده عن ابن عباس يقوله: فلما فصلت العير قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف (فقال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام .

فلما أن جاء البشير ألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيرا بعد ما كان ضريرا وقال لبنيه عند ذلك (ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون) أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وستقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني فعند ذلك (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عزوجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه.

ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلا (سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم).

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم أرجأهم إلى وقت السحر وروى ابن جرير بسنده عن محارب بن دثار قال كان عمر يأتي المسجد فسمع إنسانا يقول " اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي " قال فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله (سوف أستغفر لكم ربي) وقد قال الله تعالى (والمستغفرين بالأسحار) [آل عمران: **17**]

وثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له "

ثم إنهم تحملوا بمن معهم من أبناء وأمتعة ، وساروا إلى مصر ، فلما علم يوسف عليه السلام بقدومهم تلقاهم يوسف عند باب المدينة (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) قيل هذا من المقدم والمؤخر تقديره ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه.

ضمن قوله أدخلوا معنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها (إن شاء الله آمنين) .

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرا بقدومه وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم ، وقد ذكر جماعة من المفسرين أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب وهو إسرائيل أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف ،وتعظيما لنبي الله إسرائيل وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم فالله أعلم.وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنسانا ،وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد كانوا ثلاثة وثمانين إنسانا.

وقال أبو إسحاق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنسانا.

قالوا وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل ، وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفسا وسموهم .

ورفعهما على العرش أي أجلسهما معه على سريره (وخروا له سجدا) أي سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما وكان هذا مشروعا لهم ولم يزل ذلك معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا.

(وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك (قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن) أي بعد

الهم والضيق جعلني حاكما نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت (وجاء بكم من البدو) أي البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) أي فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره ، ثم قال (إن ربي لطيف لما يشاء) أي إذا أراد شيئا هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته (إنه هو العليم) أي بجميع الأمور (الحكيم) في خلقه وشرعه وقدره.

وفي قوله { إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ } تلطف من يوسف عليه السلام وحسن خطابه ، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: "أحسن بكم" بل قال { أَحْسَنَ بِي } جعل الإحسان عائدا إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، وفي قوله { مِنْ بَعْدِ أَنْ نزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي } فلم يقل "نزغ الشيطان إخوتي" بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

وقد كانت مدة الفرقة طويلة واختلف فيها المؤرخون والمفسرون فقيل ثمانون سنة وقيل ثلاث وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن، وقيل خمس وثلاثون سنة قاله قتادة.

وقال محمد بن إسحاق ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة ، قال وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبا فإن

المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره.

ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوتهم يمتارون في السنة الأولى وحدهم وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين.

وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين فجاؤوا كلهم . فجملة ذلك قريبا من ست وثلاثين سنة والله أعلم .

ولما تم الأمر واستقرت الحياة وأخزي الشيطان رفع يوسف يديه وقال { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ } وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرا كبيرا للملك { وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ } أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا } أي: أدم عليّ الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، كما نقوله نحن في دعائنا { وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

وهذه الآية فيها دلالة واضحة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدا.

يراه قومه بين أظهرهم صباحا ومساء، وهو أمِّيٌّ لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون،وبهذا تتم قصة يوسف العظيمة التي اشتملت على فوائد وأحكام كبيرة جليلة كيف لا والمولى جل وعلى يقول (نحن نقص عليك أحسن القصص)

******

فوائد قصة يوسف عليه السلام

نأتي على فوائد هذه القصة العظيمة التي ما ساقها لنا سبحانه إلا لنجني منها الفوائد العظيمة ، وقد ختم الله القصة بقوله { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولِي الألْبَابِ }.

وإن من أحسن من تكلم على فوائدها فيما اطلعت عليه هو الشيخ ابن سعدي رحمه الله فنذكر ما سطره في تفسير بعد هذه القصة مع شيء من الإضافة والتعليق والاختصار .

فمن ذلك، غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، ومن دروس في الصبر ، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبيَّنها.

ومنها: أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا وجرما، لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود له معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظما محترما عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: { وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث } ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا الذي رأى أنه يعصر خمرا، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادما لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوَّله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأوَّل الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف { يا بني لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا }.

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ } ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه

الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء، ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

ولهذا – في أصح الأقوال – أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحاق وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ } وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوا بادرهم به، وتمم

ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.ثم برُّه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: { لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ } كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع، أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعا حراما لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاما رقيقا، وسماه الله شراء ، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توحّدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى. فكان ممن { خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى } ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا

ظله، أحدهم: "رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله" وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزما، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله. { وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام –لما راودته التي هو في بيتها– فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد، حاملا فإنه

يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحاكم شاهدا فقال: { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا }.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن،فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ } وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: { وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } وقالت بعد ذلك: { الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } وقالت النسوة: { حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ }.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين – إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية – أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومن الفوائد أيضا أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: { وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ }.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضارا لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدة، فـ "يوسف" عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا له: { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوفين لتعبيرها عنده – رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولا أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف – لما سأله الفتيان عن الرؤيا – قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ }.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال،

ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم – مع ذلك – على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف – بسبب جماله – حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: { قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } وقال الملك: { أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ } وقال الفتى ليوسف: { أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ } الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } وكذلك لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور، ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: { وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }.

ومنها: أن جباية الأرزاق – إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم – لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، [ص **411**] ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جدا حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته { أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزلِينَ }.

فمنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا } وقال لهم في الأخ الآخر: { هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ } ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا } فهم في الأخيرة – وإن لم يكونوا مفرطين – فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: { يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ }.

ومنها: جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهما أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته،

وقال بعد ذلك: { مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ } ولم يقل "من سرق متاعنا" وكذلك لم يقل "إنا وجدنا متاعنا عنده" بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: { وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا }.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة { وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفّى بما وعد به، ولا ينافي ذلك، قوله: { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرا، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد – بذلك – إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: { يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ } ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما، أحسن العواقب، لقوله: { قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرا حاله الأولى، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ }.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائما في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك ،فنسأله تعالى علما نافعا وعملا متقبلا إنه جواد كريم.

*****

قصة الإسراء والمعراج وفوائدها

قصة الإسراء والمعراج و التي سميت السورة بها وافتتحت بها ، حيث سبح المولى نفسه التي وصفها بالإسراء بالنبي صلى لله عليه وسلم فقال سبحانه { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }

ولقد تكاثرت الأحاديث في ذكر تفاصيل حادثة الإسراء والمعراج ، وخير من ضبطها من الرواة الإمام مسلم رحمه الله كما أخرجها في صحيحه من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة" قال: "ثم عرج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه . ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير. ثم قال: يقول الله: { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } [مريم: 57].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: و من معك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: "فأوحى الله إليّ ما أوحى، وفرض عليّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى". قال: "ما فرض ربك على أمّتك؟ قال: "قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة". قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق

ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم". قال :" فرجعت إلى ربي، فقلت: أي رب، خفف عن أمّتي، فحطّ عني خمسًا. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت: قد حطّ عني خمسًا". قال: "إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك" قال: "فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، ويحط عني خمسًا خمسًا حتى قال: يا محمد، هي خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشرًا. ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت".

هذه قصة الإسراء والمعراج في أصح ألفاظها وقد جاءت زيادات صحيحة في كتب السنة غير ما ذكر ولعلنا نتطرق لها في أثناء عرض الفوائد بإذن الله فمن فوائدها :

الأولى أن قصة الإسراء والمعراج رويت في دواوين الإسلام ومنها البخاري ومسلم ، ولكن رواية مسلم أصح وأثبت فقد رواها البخاري من طريق شريك بن أبي نمر وقد وقع له وهم في بعضها ، ورواها مسلم وضبطها .

الثانية : هل الإسراء والمعراج كان يقظه أو مناما ، وهل هو بجسده أم بروحه ، وهل حصل مرة واحدة فقط أم أكثر ؟ وجواب هذا نأخذه من ابن كثير رحمه الله حيث عرض في تفسيره أغلب الروايات التي جاءت في هذه الحادثة حيث يقول رحمه الله : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه،

فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب.

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جدًا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي صلى الله عليه وسلم به أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرر.

قال موسى بن عقبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهرًا.

والحق أنه، عليه السلام أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس، راكبًا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج وهو كالسلم ذو درجٍ يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء عليهم السلام الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليلِ في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى، عظمةٌ عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل

باني الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عز وجل عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفًا بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولا مطلوبًا إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك ، ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع – فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون هاهنا وهاهنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا، ولا ينكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظة،لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله عز وجل {

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظمًا، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم.

وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، روى الحافظ أبو نُعَيم الأصبهاني في كتاب "دلائل النبوة" من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمرو بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دَحْية بن خليفة إلى قيصر –فذكر وروده عليه وقدومه إليه. وفي السياق دلالة عظيمة على وُفُور عقل هرقل–ثم استدعى من بالشام من التجار، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم ، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما يمنعني أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ، ولا يصدقني بشيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا –أرض الحرم–في ليلة فجاء مسجدكم هذا–مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبَطْرِيقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بَطْرِيق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته فغلبني، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلا فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال:

فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية الباب مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا. وذكر تمام الحديث . ذكره السيوطي في الدر المنثور (224/5) وعزاه لأبي نعيم في الدلائل، ولم أجده في المطبوع من الدلائل.

هذا مايسر الله إيراده عن حادثة الإسراء والمعراج ، ولقد ضل قوم فجعلوا لليلة الإسراء والمعراج احتفالا وذكرى وهذه من البدع في الدين ، عصمنا الله وإياكم من مخالفة هدي سيد المرسلين

******

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) }

وأما "الكهف" فهو: الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما "الرقيم" فقال العوفي، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلَة. وكذا قال عطية العوفي، وقتادة.وقال الضحاك: أما "الكهف" فهو: غار الوادي، و "الرقيم" : اسم الوادي.وقال مجاهد: "الرقيم" : كان بنيانهم ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سِماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: "الرقيم"، قال: يزعم كعب أنها القرية.وقال ابن جريج عن ابن عباس: "الرقيم" الجبل الذي فيه الكهف.وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف.وقال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: { كِتَابٌ مَرْقُومٌ } [المطففين:9]وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: "الرقيم" فعيل بمعنى مرقوم، كما يقول للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منه فَلَجَؤُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: { رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً } أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا { وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } أي: وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا، أي: اجعل عاقبتنا رشدًا كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد من حديث عائشة "وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشدًا"، وفي المسند بسند ضعيف من حديث بُسْر بن أبي أرطاة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو: "اللهم، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة".

ثم إنه سبحانه ضرب عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا } فألقى عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ثُمَّ بَعَثْهُمْ من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ } أي: المختلفين فيهم { أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا } قيل: عددًا وقيل: غاية فإن الأمد الغاية كقوله سَبَقَ الجَوَاد إذَا اسْتَولى على الأَمَد.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ

مِّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) } شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية –وهم الشباب–وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابًا. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم –والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم.

و ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: "دقيانوس"، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقًا، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضي الله

عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" . وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفًا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون –والله يا قوم–إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يدًا واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: { وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا } ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبدًا؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا؛ ولهذا قال عنهم: { لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا } أي: باطِلا وكذبًا وبهتانًا.

{ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ } أي: هَلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحًا صحيحًا؟! { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة

قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال صلى الله عليه وسلم "يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شغف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن" ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: { وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ } أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم { فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ } أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ، فعند ذلك خرجوا هُرابًا إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى الله عليه خبرهم. كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف، وقد أخبر الله تعالى أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا }.

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه { ذَاتَ الْيَمِينِ } أي: يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: { تَزَاوَرُ } أي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: { وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ } أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق ، وهذا بيّن لمن تأمله .

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. وأهل الأردن يقولون هو عندهم ويزورونه والله أعلم بأي بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه .

و يصور لنا المولى جل وعلا حالهم في الكهف فيقول :{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) }

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ } وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر : يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتيه وَيَتَّقِي ... بأخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ ...

وقوله تعالى: { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض.

وقوله: { وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير الوصيد: الفناء.

وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: { إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ } [الهمزة: 8] أي: مطبقة مغلقة. ويقال: "وَصِيد" و "أصيد".

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

قال ابن جريج يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب –كما ورد في الصحيح –ولا صورة ، كما ورد به الحديث الحسن ، وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين فصحبه كلبه فالله أعلم.

وقد تكلم المؤرخون والمفسرون عن ذلك الكلب في وصفه واسمه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب. وهم على تلك الحال قد ألقى الله عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد

لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

فلما انقضت عدة نومهم بعثهم الله صحيحة أبداتهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: { كَمْ لَبِثْتُمْ }؟ أي: كم رقدتم؟ { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: { أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، وفي هذا رد على من قال إن هيئاتهم قد تغيرت فطالت لحاهم وأظفارهم فأصبح الناظر لهم يهابهم ، فإنه ولو حصل هذا لما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: { ابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ } أي: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا: { فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ } أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد.

فيتخير من الطعام الحلال ، وليكن حذرا في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر عليه ، فإن أصحاب دقيانوس إن علموا بمكانكم، { يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ }

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة، في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقسوس وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر:

أما الدّيارُ فَإنَّها كَديارِهم ... وَأرى رجالَ الحَي غَيْرَ رجَاله ...

فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحدًا من أهلها، لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنونًا أو مسًا، أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من هاهنا لأولى لي. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعامًا. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزا. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة؟ لعله وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى وليّ أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله، وما هو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف: مُتَوَلّى البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي، فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبره ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلمًا فيما قيل، واسمه تيدوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله، عز وجل، فالله أعلم.

وقد يخرج بعض الدجالين في هذا الزمن فيزعم أن كهفهم في تلك الناحية وأن بها عظامهم ومثل هذا يرد عليه ابن عباس رضي الله عنه كما روى ابن جرير بسنده عن قتادة قال : غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه

عظامًا، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة .

ولما ماتوا اختلف أهل تلك البلد ماذا يصنعون بهم ، فقال بعضهم اردموا عليهم الباب ، فربهم أعلم بهم ، وقال آخرون لنتخذن عليهم مسجدا ، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" يحذر ما فعلوا. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

وقد اختلف في عددهم ، كما حكاه الله في كتابه حيث حكى ثلاثة أقوال فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: { رَجْمًا بِالْغَيْبِ } أي: قولا بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: { وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقفنا.

وقوله: { مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ } أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: { مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ } قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة .

وبقي الكلام على مدة مكثهم في الكهف فقد قال سبحانه { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26) }

هذا خبَرَ من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: { وَازْدَادُوا تِسْعًا }

وعلى هذا القول غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف ، والله أعلم.

******

قصة صاحب الجنتين

قال سبحانه في سورة الكهف آمرا نبيه أن يضرب للناس بهما المثل فقال (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (33) } الآيات

أورد الله تعالى هذه القصة بعد أن ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلا برجلين، جعل الله لأحدهما بستانين من أعناب، محفوفين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ في غاية الجود؛ { وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا } وجعل الله الأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا.

فقال صاحب هاتين الجنتين لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يجادله ويخاصمه، ويفتخر عليه ويترأس: { أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا } أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.قال قتادة: تلك –والله– أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر.

فلما قال لصاحبه ذلك ، نصحه وحذره من مغبة قوله واعتقاده الفاسد ، ولكنه لم يستجب لنصح صاحبه المؤمن فدخل جنته يوما بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد و{ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا } وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها،

وكفره بالآخرة ؛ حتى إنه استبعد قيام الساعة ، بل قال إن قامت فلي عند رب خير من هذه الجنتين لأنه لم يعطني هذا المال إلا لأني مستحق له وأهل له . ولقد أنكر عليه صاحبه المؤمن تلك المقالة الكفرية ونصحه بقوله قال: { وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا } هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال و الولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: { مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ } ؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده ، فليقل: { مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ } وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده ، ولكنه لا يصح .

ثم قال له صاحبه مبينا له بالفعل ما الذي ينبغي للعبد أن يتمناه { فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ } أي: في الدار الآخرة ، لا في هذه الدار الفانية التي تزول ويزول من عليها ، ثم دعا على صاحبه أن يهلك الله جنته التي ظن أنها لا تبيد ، لكي يراجع ربه عن يقين ، دعا أن يرسل الله عليها حسبانا مِنَ السَّمَاءِ } قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي عذابًا من السماء.

ولعله كما قال ابن كثير رحمه الله : مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: { فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا } أي: بلقعًا ترابًا أملس، لا يثبت فيه قدم.وقال ابن عباس: كالجُرز الذي لا ينبت شيئًا.

أو أن يجعل الله عقوبته {أن يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا } أي: غائرًا في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } [الملك:30] أي: جار وسائج. وقال هاهنا: { أَوْ

يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا } والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه .فاستجاب الله دعاءه {فَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألهته عن الله، عز وجل { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا } وقال قتادة: يُصفّق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليه { وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ } أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز { يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا }

وفي القصة فوائد عظيمة ذكرنا بعضا منها فيما سلف ونأتي على بعض منها الآن :

من ذلك ، دوام النعم بشكرها وأنها تزول بالكفر ،كما قيل: النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت ، وهذا الرجل كفر بها ، ففرت منه وندم حين لا ينفع الندم .

ومنها ، أن الله جل وعلا يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، وأن فتح الدنيا على العبد لا يدل على خيريته ، وأن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم .

ومنها أن العبد إذا رأى شيئا يعجبه من ماله أو ولده أو مال غيره فإنه ينبغي له أن يذكر الله ويبرك كما جاء في المسند وموطأ مالك وغيرهما من حديث محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف – أنه سمع أباه يقول : «أغْتَسل أبي سَهْلُ بنُ حُنيف بالخَرَّار، فنزع جُبة كانت عليه ، وعامرُ بنُ ربيعة ينظر إليه، وكان سهلُ شديدَ البَيَاض ، حَسَنَ الجِلْدِ ، فقال عامر : ما رأيتُ كاليوم ،ولا جِلدَ مُخَبَّاة عذْرَاءَ ، فوُعِك سهلُ مكانه ، واشتَدَّ وَعْكُه ، فأُخبِرَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بوَعْكِهِ ، فقيل له: ما يَرْفَعُ رأسَه ، وكان قد أكْتُتِبَ في جيش ، فقالوا له : هو غيرُ رائح معك يارسول الله ، والله ما يرفعُ رأسَه ،

فقال : هل تَتَّهِمونَ له أحدا ؟ قالوا : عامرَ بنَ ربيعةَ، فدعاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، فتغيَّظَ عليه، وقال : عَلامَ يَقْتُلُ أحدُكم أخاه ؟ ألاَّ برَّكتَ؟ اّغتَسلْ له ، فغسل عامرُ وجهه ، ويديه ، ومِرفَقَيْه ، ورُكْبَتَيْه، وأطرَافَ رجليه، ودَاخِلةَ إزاره، في قَدَح ، ثم صُبَّ عليه من ورائه ، فَبَرَأَ سهل من ساعته».

وفي رواية نحوه إلى قوله : « فَأتَى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، فأخبره بالذي كان من شأن عامر ، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : عَلامَ يقتلُ أَحدُكم أخاه ؟ ألاَّ برَّكْتَ ؟ إن العين حق تَوضَّأ له ، فتوضأ له عامر ، وصُب عليه من خلفه، فَـرَاحَ سهلُ مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ليس به بأس»

دل الحديث أن المسلم إذا برك على أخيه وقال ماشاء الله لا قوة إلا بالله فإنه لا يضره بإذن الله .

كما دل على أن المعيون إذا صب عليه غسل العائن يبرأ بإذن الله ، وأنه يجب على من طلب منه الغسل أن يغسل لما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النبي –صلى الله عليه وسلم– قَالَ :« الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَىْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا ».و صفة الغسل أن يتوضأ داخل الإناء ثم يغسل داخل إزاره مما يلي الجسد ثم يصب على المعيون ويفرغ آخره من ورائه ، وإن حسى منه حسوات فلا بأس لوروده في بعض الروايات

ومن الفوائد أنه يؤخذ بالتهمة إذا كانت بقرينة كما في قوله (من تتهمون) .

ومن الفوائد : أن الله قد يعفو عن العبد حتى بعد وقوع العقوبة ، كما قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله حيث يقول : ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة،

التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

وغيرها من الفوائد كثير ....

*****

قصة ذي القرنين

حكى الله تعالى قصته في نهاية السورة مبيناً فضله وما آتاه الله من القوة والتمكين ، حيث يقول – جل في علاه : (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا) ، فحكى الله لنا منه ذكراً قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – : (وقد أورد ابن جرير هاهنا

والأموي في مغازيه حديثاً أسنده وهو ضعيف ، عن عقبة ابن عامر τ أن نفرا من اليهود جاؤوا يسألون النبي ρ عن ذي القرنين فكان فيما أخبرهم به أنه كان شابا من الروم وأنه بنا الإسكندرية وأنه علا به ملكٌ في السماء وذهب به إلى السد ورأى أقواما وجوههم مثل وجوه الكلاب، وفي طولٌ ونكارة و رفعه لا يصح ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل والعجب أن أبا زرعة الرازي – رحمه الله – مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة وذلك غريبٌ منه) انتهى كلام ابن كثير – رحمه الله – وقال وهب بن منبه : أنه رومي الأصل وقال السهيلي – رحمه الله – : الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد إبراهيم υ ويقال : إنه الذي قضى لإبراهيم υ حين تحاكموا إليه في بئر السباع في الشام ، والآخر أنه كان قريبا من عهد عيسى υ وقيل : إنه أفريديون الذي قتل الملك الطاغي على عهد إبراهيم υ أو قبله بزمان ، وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به فيقال إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما ، ذكره الثعلبي وغيره ، والضفائر قرون الرأس ، وقيل أنه رأي في أول ملكه أنه قابض على قرنيي الشمس فقص ذلك ففسر أنه سيغلب على ما ذرت عليه الشمس فسمي بذلك ذا القرنين ، وقيل إنما سمي بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرني الدنيا وقالت طائفة : أنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمي بذلك ذا القرنين ، وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته ، وسأل ابن الكواي علي τ عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكا ؟ فقال : لا ذا ولا ذا ، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجوه على قرنه ثم دعاهم فشجوه على قرنه الآخر فسمي ذا القرنين ، وقد أخرج الحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة τ أن النبي ρ قال : (ما أدري أتبَّع أنبيا كان أم لا ، وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا ، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟) قال ابن عساكر بعد هذا الحديث : وهذا الشك من النبي ρ كان قبل أن يبين له أمره ، ثم

أخبر أنه كان مسلماً وذاك فيما أخبرنا ثم ساق بإسناده بحديث (لا تسبوا تبّعاً فإنه كان قد أسلم) ولهذا الحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن ونحوه قول الهيثمي : يحتمل أنه ρ قاله في وقتٍ لم يأته فيه العلم عن الله تعالى ثم لما آتاه الله ما رويناه من حديث عبادة وغيره) يعني قوله ρ : ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارةٌ له ، أخرجه الشيخان وغيرهما ، ولقد اختلفوا أيضا في وقت زمانه فقال قوم كان بعد موسى υ وقال قوم كان في الفترة بين عيسى والنبي ρ وقيل كان في وقت إبراهيم وإسماعيل وكان الخضر υ صاحب لواءه الأعظم ، وبالجملة فإن الله تعالى مكنه وملكه ودانت له الملوك فروي أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة ، مؤمنا وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود واسكندر ، والكافران نمرود وبختنصر وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى : (ليظهره على الدين كله) ، ولقد مكن الله له الأرض كما قال : (إنا مكنا له في الأرض) أي أعطيناه ملكا عظيما متمكنا فيه له من جميع ما يُؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد وخدمته الأمم من العرب والعجم ومع هذا الملك آتاه الله من كل شيء سببا كما قال : (وآتيناه من كل شيءٍ سببا) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وغيرهم : يعني علما ، وقال قتادة أيضا في قوله : (وآتيناه من كل شيء سببا) قال : منازل الأرض وأعلامها ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : في قوله : (وآتينه من كل شيء سببا) قال : تعليم الألسنة كان لا يغزوا قوما إلا كلمهم بلسانهم ، وبالجملة فقد مكن الله له في الأرض تمكينا عظيما فأخذ يطوف الأرض يدعو الله تعالى ويرفع الظلم عن المظلومين وأما كيفية طوفانه في الأرض فاختلف فيها ، ففي المختار للحافظ الضياء المقدسي بسنده عن حبيب بن جماز قال : كنت عند علي τ وسأله رجلٌ عن ذي القرنين كيف بلغ المشارق والمغارب فقال سبحان الله سُخّر له

السحاب وقدر له الأسباب وبسط له في اليد ، فسار مرة جهة المغرب فسلك طريقا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض وأما الوصول إلى مشرق الشمس من السماء فمتعذر ، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من وراءه فشيء لا حقيقة له ، قال ابن كثر – رحمه الله – : وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم ، فسار حتى خلف كل شيء من وراءه ووقف على المحيط وأخذ ينظر إلى الشمس ووجدها تغرب في عينٍ حمئة ، أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه ، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهي الطين كما قال تعالى : (إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون) أي طين أملس ، وقد أورد ابن جرير بسنده تحت هذه الآيات قول ابن عباس τ فروى بسنده عن عبد الرحمن بن الأعرج يقول : كان ابن العباس τ يقول : في عينٍ حمئة ثم فسرها ذات حمأة ، قال نافع وسئل عنها كعب الأحبار فقال : أنتم أعلم بالقرآن مني ، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء ، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغير واحد ، قال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب يعني حمئة وحامية ، ولا منافاة بينهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة في ماء وطينٍ أسود كما قال كعب الأحبار وغيره ، ولما بلغ هذا المكان من المغرب وجد عندها قوما ، أي أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم فتمكن منهم وهزمهم ولهذا قال سبحانه : (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) معنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم وحكمهم فيهم وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبا وإن شاء منّ أو فدى ، فعرف عدله

وإيمانه فقال : أما من ظلم من استمر على كفره وشركه بربه فسوف نعذبه ، قال قتادة : بالقتل وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة فتدخل أفواههم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم ، والله تعالى أعلم ، ثم بيّن أنه يُعذب أيضا في الآخرة وفي ذلك بيانٌ لإيمانه بالبعث والجزاء فقال : ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، أي شديدا بليغا وجيعا أليما ، وفي هذا إنذار منه أن يبقوا على الكفر ولهذا عقّبه بنصحه وترغيبه فقال : وأما من آمن ، أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، فلما فرغ منهم سار بالاتجاه المعاكس حتى بلغ مطلع الشمس من جهة المشرق ، كما قال سبحانه : (ثم أتبع سببا ،حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) يقول سبحانه إنه سلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كل ما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الأقاليم المتاخمة لهم ، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها وعرضها حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى وجدها تطلع على قوم أي أمة لم نجعل لهم من دونها سترا ، أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس قال سعيد بن جبير : كانوا حمرا قصارا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك وقال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا سهيل بن أبي الصلت سمعت الحسن وسئل عن قوله : (لم نجعل لهم من دونها سترا) قال : إن أرضهم لتحمل البناء إذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فإذا غربت خرجوا يتراعون كما تراعى البهائم ، قال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئا فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسرابٍ حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم ، قال عبد الرزاق : أخبرنا

معمر عن قتادة قال هم الزنج وبين سبحانه أن أعمال ذي القرنين كانت مؤيدة منه سبحانه وعلى خبر بأمره كما قال سبحانه : (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) قال مجاهد والسدي : علما ، أي نحن مطّلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منه شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال سبحانه (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ) الآيات

فأخبر سبحانه أن ذا القرنين سلك طريقًا من مشارق الأرض حتى بلغ السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: "إن الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمّتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج" .

وقد حكى النووي ، رحمه الله، في شرح "مسلم" عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جدًا، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم.

وفي مسند الإمام أحمد، عن سَمُرَة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك" إلا أن الحديث لا يصح لأنه من رواية الحسن عن سمرة ولم يسمع منه على الصحيح . قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سموا هؤلاء تركًا؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة . وقد ذكر ابن جرير هاهنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلا عجيبًا في سير ذي القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وآذانهم . وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها، والله أعلم.

فعرضوا عليه مالاً على أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا منيعا يمنعهم من الخروج ، فتعفف عن ذلك ، وأخبرهم أنه في غنى عن ذلك وأن ما آتاه الله من التمكين خير مما عرضوا عليه وأنه لا يريد إلا الإصلاح والأجر ، ولكن طلب منهم الجهد البدني فقال ولكن ساعدوني { بِقُوَّةٍ } أي: بعملكم وآلات البناء، { أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ } والزبر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهي كاللبنة .

{ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ } أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولا وعرضًا. واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال. { قَالَ انْفُخُوا } أي: أجج عليه النار حتى صار كله نارًا، { قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا } قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: { وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ } [سبأ: 12] ولهذا يشبه بالبرد المحبر.

وقد ذكروا في كتب السير والتاريخ أن الخليفة الواثق بعث في دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشًا سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه بابًا عظيمًا، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك. وأن عنده حرسًا من الملوك المتاخمة له، وأنه منيف عال ، شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالا وعجائب.

وبهذا العمل الجليل من ذي القرنين انقطع شر هاتين الأمتين حيث يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه ، قابل كلا بما يناسبه فقال: { فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا } وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله. ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء . فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم، فيقتلهم بها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرًا من لحومهم ودمائهم" .

وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة . ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن كثير بعد إيراد الحديث وهذا إسناده قوي، ولكن في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار ، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيرًا ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم.

ولنعد لقصتنا فبعد أن أحكم البناء قال ذو القرنين معترفا بالفضل لأهل الفضل : { قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي } بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد. { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي } أي: إذا اقترب الوعد الحق { جَعَلَهُ دَكَّاءَ } أي: ساواه بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها. وقال تعالى: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا } [الأعراف: **143**] أي: مساويًا للأرض .

وقال عكرمة في قوله: { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ } قال: طريقًا كما كان.{ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا } أي: كائنًا لا محالة.

******

قصة الإفك

ندلف لسورة النور والتي اشتملت على قصة الإفك ، ويا لها من قصة عجيبة وعظيمة ، قد اشتملت على أحكام وفوائد عظيمة ، ولنأت عليها كما قصها المولى سبحانه إذ يقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (**11**) }الآيات

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله عز وجل براءتها صيانة لعرض الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام

فقال: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ } أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وَجوّزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريبًا من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما هذه القصة من طريق الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسَيَّب، وعُرْوَة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله، وكلّهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضًا: ذكروا أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بعدما أنزل الحجابُ، فأنا أُحْمَل في هَودَجي وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوه وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقْد من جَزْع ظَفَار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحَبَسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب –وهم يحسبون أني فيه –قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحمُ، إنما يأكلن العُلْقْة من الطعام. فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ. فبينا أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت –وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذّكْوَانيَ قد عَرَس من وراء الجيش –فادّلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني. وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب

عليّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخَمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فَوَطئ على يَدها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة. فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبْره عبد الله بن أبي بن سلول. فَقَدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرا، والناس يُفيضُون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللُّطْف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: "كيف تِيكُم؟" فذلك يَرِيبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نَقِهْت وخَرَجَت معي أم مِسطْح قبل المناصع –وهو مُتَبَرَّزُنا –ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخذَ الكُنُف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسْطَح –وهي ابنة أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسْطَح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب –فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسْطح في مِرْطها فقالت: "تَعس مسْطح". فقلت لها: بئسما قلت، تسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ قالت: أي هَنْتاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضًا إلى مرضي. فلما رجعتُ إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم، ثم قال: "كيف تِيكُم؟" قلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ –قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبَلهما –فأذنَ لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمَّتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: أيْ بُنية هَوّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قَطّ وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلتُ: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة

حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلِيّا وأسامة بن زيد حين استلبث الوحيُ، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه له من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرا. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدُقك الخبر. قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَريرة، فقال: "أيْ بَرِيرة، هل رأيت من شيء يَريبك من عائشة؟" فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرا قَطّ أغمصُه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سَلُول. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: "يا معشر المسلمين مَنْ يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي" . فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة –وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية – فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أُسَيد بن حُضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ –فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمّوا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي. قالت:

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذَنَت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس –قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يُوحَى إليه في شأني شيء –قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألْمَمْت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قَلَص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: والله ما أدري ما أقول للرسول. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله.فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. قالت: فقلت –وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ كثيرا من القرآن –: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولَئن قلت لكم إني بريئة –والله يعلم إني بريئة –لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر والله عز وجل يعلم أني بريئة تصدقوني ، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } [يوسف : **18**]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله فِيَّ بأمر يُتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرّئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمَان من العرق في اليوم الشاتي، من ثِقَل القول الذي أنزل عليه . قالت : فلما سُرّيَ عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: "أبشري يا عائشة، أما الله فقد بَرّأك ، فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ } عشر آيات. فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر، رضي الله عنه –وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره –: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدا بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: { وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ } إلى قوله { أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } [النور : 22] فقال أبو بكر : والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فَرجّع إلى مِسْطَح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينبَ بنت جحش –زوجَ النبي صلى الله عليه وسلم –، عن أمري: يا زينب، ما علمت، أوما رأيت أو ما بلغك ؟ فقالت يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيرًا. قالت عائشة: وهي التي كانت تُسَاميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله تعالى بالورع .وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط.

ورواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: لما نزل عُذْري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أَمَر برجلين وامرأة فَضُربوا حدهم .

وأخرجه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومِسْطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش.

فهـذه طـرق متعـددة، عـن أم المـؤمنين عائشـة، رضـي الله عنهـا، في المسـانيد والصـحاح والسنن وغيرها

فوائد وأحكام قصة الإفك :

فمن الفوائد ماهو واضح بتوجيه الله لنا في معرض القصة ، ومنها ما يحتاج إلى استنباط ، ولنأت أولا على الفوائد التي أرشد الله إليها :قوله سبحانه (لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم)

من منطوق ومفهوم الآية يعلم أن البلاء يكون في صورة الشر للعبد ولكنه في الباطن خير محض ، وفي هذه القصة ، يعزي الله المؤمنين بهذا المصاب العظيم ، مبينا لهم أن الخير في ثنايا البلاء ، فبه يحصل التمحيص ، وبه يرفع الله مراتب قوم ويضع به آخرين ، وبه تعظم الأجور ، وتحط السيئات ، ولذا صار أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . ولو قال قائل إن بعض البلاء يكون نقمة بل ربما أتلف الروح ، فأقول : إن البلاء يصيب الكافرين وعصاةِ المؤمنين عذابا ونقمة ويصيب الصالحين تمحيصا ورفعة ، فعلى قدر دين العبد يصب له البلاء ، فمن صبر ظفر ومن جزع خسر ، ولقد حدثت حوادث كثيرة في زمن النبوة ، وذلك لينهل منها المؤمنون العبرة والفائدة ، فقد أصاب كثيرا من الصحابة بلاء عظيم ، وفتن مدلهمة ، تجلت خلالها الفوائد الجمة التي كانت نبراسا للمؤمنين ينهلوا منها عبر الزمن الجديد ، ومنها ما وقع على سيد ولد آدم عليه

الصلاة والسلام وفي عرضه ، ليتبين للناس أن البلاء يصيب الصالحين لا كما يفهم البعض أن البلاء عقوبة عاجلة .

ومن فوائد هذه القصة على وجه العجالة جواز القرعة ، وأنها حكم شرعي يصار إليه عند الاختلاف أو التمييز بين غير مستحقين لشيء فيقدم أحدهما على الآخر ، ويكون الآخر بعده في المرة القادمة ، والقرعة معروفة في النصوص كما في قوله عن يونس عليه السلام (فساهم فكان من المدحضين) يعني اقترع معهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم في فضل الصف الأول (ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا) ، وتطبيق النبي صلى الله عليه وسلم للقرعة حيث كان يقرع بين نسائه كما في هذه القصة وغيرها .

ومن الفوائد أن سفر المرأة يجب أن يكون مع زوج أو محرم لأنها معرضة للخطر والاتهامات .

ومنها خروج المرأة إلى الغزو ، إذا كانت مع محرمها ، غير أنها لا تقاتل بل تداوي الجرحى وتنقل الماء ونحو ذلك .

ومنها وجوب الحجاب؛ فإنه إذا فُرض على أمهات المؤمنين كان على غيرهن أولى ، والأدلة على ذلك كثيرة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجه الدلالة في هذه القصة قول عائشة رضي الله عنها : فعرفني حين رآني. وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب عليّ الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخَمَّرت وجهي بجلبابي .

ومنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ، لو كان يعلم الغيب لما ترك زوجه بمفردها،ولما ترك الناس يخوضون في عرضه شهرا ، وأصحابه لا يعلمون الغيب كذلك من باب أولى لحملهم الهودج وهو خلو منها .

ومنها خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب ، خصوصا إذا أمنت الفتنة ، وكانت مع

محارمهـــا .

ومنها خروج المرأة بدون إذن زوجها في الأمور التي جرى العرف بها، أو علمت أنه لا يمانع في ذلك فعائشة رضي الله عنها لم تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجهـــــا لقضـــــاء الحاجـــــة ، وإلاَّ لمـــــا غـــــادر المكـــــان بـــــدونها .

ومنها رعاية الله لأوليائه، وهذا يتضح من جوانب عديدة : فانظر كيف أنزل الطمأنينة على عائشة وهي في الخلاء وحدها ولا زالت شابة صغيرة ، حتى نامت وبالنوم ينقطع تفكير عائشة رضي الله عنها فيما أهمها وأقلق راحتها، ويقدر الله تأخُّر صفوان ليُلحِقَها بالجيش ، وتتجلى في أعظم صورها في نزول آيات براءتها، وفي أنها مرضت بعد رجوعها على المدينة فلم تعلم بما يقال إلا قبل وقت يسير من نزول براءتها، ولو علمت من أول الأمـــــــــــــــر لكـــــــــــــــان الخطـــــــــــــــب أعظـــــــــــــــم .

ومنها أدب الصحابة وحرصهم على الأعراض ، والبعد عن الشبه فهذا صفوان رضي الله عنه ، فإنه استرجع ليوقظها ، ولم يناد عليها باسمها ، وما تكلم معها بكلمة واحدة .

ومنهـــــا الاســـــترجاع عنـــــد المصـــــائب كمـــــا علمنـــــا ربنـــــا .

ومنها إغاثة المكروب والمنقطع ، وهذا من كريم الأخلاق ونبيل الصفات ، سواء عرفت المحتاج أم لم تعرفه ، فقد ينقذ الله بك حياة آخرين .

ومنها تبرئة المرء لساحته لئلا يتهم ، فلقد قالت : " مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً" ، وقالت "وَوَاللَّهِ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ". وكما قال صلى الله عليه وسلم " على رسلكما إنها صفية "

ومنهـــــا عـــــداوة المنـــــافقين وحقـــــدهم علـــــى المســـــلمين .

ومنها أن البهتان جسر يقود المرء إلى ما فيه هلاكه ، كما قالت عائشة " فَهَلَكَ مَنْ

هَلَــــــــــــــــــــــــــكَ فِي شَــــــــــــــــــــــــــأْنِي" .

ومنها أن الأخبار السيئة تضر المريض وتزيد من مرضه ، دل على أن النفسية الحسنة والتفاؤل الطيب يساعد في الشفاء ، وذلك أن عائشة تماثلت للشفاء فلما علمت بالخبر زاد مرضـــها .

–ومنها كريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهله لا سيما إذا اشتكت واحدة منهنّ ، ألم تسمع قول عائشة " لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّـــــــــذِي كُنْــــــــــتُ أَرَى مِنْــــــــــهُ حِــــــــــينَ أَشْــــــــــتَكِي".

ومنها قلة خروج النساء من منازلهن كما قالت عائشة " وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ" يعني لقضــــــــــــــــــــــــــــــــــــــاء الحاجــــــــــــــــــــــــــــــة .

وفيه أن المرأة لا تخرج لوحدها بل تصحب من يؤمنها ، كما قال في الفتح (**479/8**) :" وَفِيهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ لِحَاجَةٍ تَسْتَصْحِب مَنْ يُؤْنِسُهَا أَوْ يَخْدِمهَا مِمَّنْ يُؤْمَن عَلَيْهَا" .

وفيه فضيلة مكانة من شهد بدراً من الصحابة ، فانظر كيف دافعت عائشة عن مسطح لأنــــــــــــه شـــــــــــهد بـــــــــــدرا ، حيـــــــــــث قالـــــــــــت فيـــــه " بِـــــئْسَ مَـــــا قُلْـــــتِ! أَتَسُـــــبِّينَ رَجُـــــلًا قَـــــدْ شَـــــهِدَ بَـــــدْرًا".

أن الدعاء على الشخص يعد من السب كما قالت عائشة لأم مسطح لما دعت عليه " أتسبين رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ؟" .

وفيها أن البدري تقع منه الذنوب ويحاسب عليها في الدنيا ، وَأَنَّ الرَّاجِح في قول الله تعالى لأهل بدر :«افعلوا ما شئتم ...» – أَنَّ الذُّنُوب تَقَع مِنْهُمْ لَكِنَّهَا مَقْرُونَة بِالْمَغْفِرَةِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى غَيْرهمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْمَشْهَد الْعَظِيم ، وَمَرْجُوحِيَّة الْقَوْل الْآخَر : أَنَّ

الْمُرَاد أَنَّ اللَّه تَعَالَى عَصَمَهُمْ فَلَا يَقَع مِنْهُمْ ذَنْب" كما رجحه الحافظ في (الفتح: 480/8) .

وفيه لزوم استئذان المرأة من زوجها لخروجها ، ولو كانت مريضة بل ولو كانت متهمة في عرضها كما قالت عائشة " أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ". وفيها من الفوائد تعزية المصاب بكلام يناسبه " يَا بُنَيَّةُ ، هَوِّنِي عَلَيْكِ ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا". ومن الفوائد " مَشْرُوعِيَّة التَّسْبِيح عِنْدَ سَمَاع مَا يَعْتَقِد السَّامِع أَنَّهُ كَذِب ، وَتَوْجِيهه هُنَا أَنَّهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى يُنَزَّه أَنْ يَحْصُل لِقَرَابَةِ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدْنِيس ، فَيُشْرَع شُكْره بِالتَّنْزِيهِ فِي مِثْل هَذَا ، نَبَّهَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْر بْن الْعَرَبِيّ" (الفتح : 480/8) . وفيه أن خبر الواحد لا يفيد اليقين كما أشار الحافظ ، لقول عائشة : "لَأَسْتَيْقِنُ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا"، ولا ينافي هذا أنه مقبول في العقائد والأحكام .

ومن الفوائد كذلك أن الاستشارة سنة نبوية ، فها هو النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه ، حتى استشار الخادمة ، وهو أمر يخصه وفي عرضه .

وفيها أنه لا يلزم الأخذ بالاستشارة ، وهي غير ملزمة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ بكل قول علي رضي الله عنه. وفيها فضل كل من دافع عن عائشة رضي الله عنه، كزينب ، وأسامة ، وأسيد ، وسعد بن معاذ ، وأبي أيوب وزوجه ، رضي الله عنهم أجمعين فقوله تعالى { لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا }

قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته، رضي الله عنهما، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار؛ أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة، رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب. أكنتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنتُ لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك

و من ذلك نصرة الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم ، لما قال سعد بن معاذ : " أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ".

وَفِيهِ أَنَّ مَنْ آذَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْل يُقْتَل؛ لِأَنَّ سَعْد بْن مُعَاذ أَطْلَقَ ذَلِكَ وَلَمْ يُنْكِرهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (الفتح :**480/8**) .

ومن الفوائد أن الله سبحانه يظهر البراءة للبريء ولو بعد حين فالنبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة " فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ".

وفيها. إحسان الظن بالله فإذا كان العبد بريئا فستظهر براءته ، لأن الله لا يحب الظلم ولا يقره ، اسمع ما قالت أم المؤمنين " أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي".

ومن أحسن الظن كان الله عند حسن ظنه تقول عائشة " فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وفيها أنه متقرر عند الصحابة أن رؤيا الأنبياء حق ووحي كما قالت عائشة "كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا".

وفيه التواضع وعدم رؤية النفس وهذا من مهمات الآداب اسمع لعائشة وهي تقول " وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى" ومن ازدرى نفسه

كان عند الله فوق ذلك ، ومن ابتلي بالعجب كان وضيعاً حقيراً ، ومن درر بكر بن عبد الله المزني رحمه الله قوله يوم عرفة :" لولا أني فيهم لقلت قد غفر الله لهم ".

وفيها فضيلة تبشير المسلم لقوله عليه الصلاة والسلام «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ» وقد مر معنا في قصة الثلاثة الذين خلفوا لما نزلت براءتهم قال كعب فأوفى رجل على سلع وركض رجل فرس إلي ، وذلك ليسوقوا له البشرى .

وفيها أنّ مع العسر يسراً ، ومع الشدة فرجاً ، ومن الكرب يجعل الله مخرجاً .

وفيها خطر الشائعات ، وأنه ينبغي للمسلم الحذر من استماعها فضلا عن تلقفها وتصديقها .

ونعلم بذلك خطأ اعتقاد بعض الناس : أنه ما من شائعة إلا وفيها نسبة من الصحة، فحادثة الإفك إفك كلها من ألفها إلى يائها .

وفيها كريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، فقد صلَّى صلاة الجنازة على ابن سلول وكفنه في ثيابه وهو الذي تولى كبر حديث الإفك . وذلك حفظا لكرامة ابنه من بعده .

وفيها أثر الورع في السلامة من الزيغ ، فزينب عصمها الله بالورع كما قالت عائشة ، رضي الله عنهما مع أنها التي تساميها يعني تنافسها في جمالها ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم لها ، ولا ريب فهي أم المساكين رضي الله عنها وعن أمهات المؤمنين .

ومنها مكانة الصديقة عائشة رضي الله عنها ، ويكفي أنّ الله لما ذكر مقالة الناس فيها سبّح نفسه :{ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} [النور : 16] .

ومنها دفاع الله عن العفيفين ، فدافع الله عن عائشة ، ومريم ، ويوسف عليهم السلام ، وأجرى كرامةً على يد جريج الراهب ، بل هذه عادة الله مع أوليائه كما قال سبحانه (

وكـــــــــــــــذلك ننجـــــــــــــــــــــي المـــــــــــــــــؤمنين) ..

ومنه أن الزنا لا يقع من أزواج الأنبياء لعصمة الله لهن إكراما لأنبيائه ولهذا قال سبحانه (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(26) النور .

وأما قول الله تعالى :{ فخانتاهم} عن امرأة نوح ولوط عليهما السلام ، فالصواب أن المقصود بالخيانة مخالفة دينهما ، وكانت امرأة نوح تسبه، وامرأة لوط تدل قومها على أضيافه، فتلك خيانتهما . وأما قول الله تعالى لنوح عليه السلام :{ إنه ليس من أهلك} أي : النـــــــــــــــــــاجين المــــــــــــــــــؤمنين .

ومنها أن من عمل خيرا لله ، فلا ينبغي له قطعه إن أساء إليه من كان يحسن إليه ولا ينبغي له أن يقسم على ذلك وعليه أن يواصل ويكفر عن يمينه كما فعل أبو بكر الصـــــــــــــــــــديق :{ ولا يأتـــــــــــــــــــــل ...}

وفيها أنّ من حلف على أمر وكان الخير في غيره كفَّر عن يمينه وفعل الخير ، كما أرشد إليه ربنا في كتابه ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم في سنته .

ومنها فضل العفو عن الناس فمن عفا عن الناس غفر الله تعالى له ذنبه .

ومنها وفاء عائشة رضي الله عنها " قَالَ عُرْوَةُ : كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ وَتَقُولُ : إنه كان ينافح عن رسول الله وتستشهد بقوله: فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِـــــــــــرْضِ مُحَمَّـــــــــــــدٍ مِـــــــــــــنْكُمْ وِقَـــــــــــاءُ".

ومنها أنّ من شكّ في براءة هذه الطاهرة النقية المبرأة فلا شك في كفره؛ لأنه كذّب القـــرآن .

ومنها أن القاضي لا يحكم بعلمه؛ بل لا بد من القرائن والأدلة أو البينة ، ولذا لم يقم

الحـــــــــــــــــــــــد علـــــــــــــــــــــــى رأس النفــــــــــــــــــــــــاق.

ومنها عدم المحاباة في الحدود، ومن أفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها أنّ المرء يتعلم من أخطائه ، فعائشة رضي الله عنها خرجت لقضاء حاجتها وكان الأولى أن تعلم بذلك لئلا يغادروا المكان دونها "وَقَدْ وَقَعَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي ضَيَاعِ الْعِقْدِ أَيْضًا أَنَّهَا أَعْلَمَتْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْرِهِ ، فَأَقَامَ بِالنَّاسِ عَلَى غَيْر مَاء حَتَّى وَجَدَتْهُ ، وَنَزَلَتْ آيَة التَّيَمُّم بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَظَهَرَ تَفَاوُت حَال مَنْ جَرَّبَ الشَّيْء وَمَنْ لَمْ يُجَرِّبـــهُ ، وَقَـــدْ تَقَـــدَّمَ إِيضَـــاحه فِي كِتَـــاب التَّـــيَمُّم" (الفـــتح : **460/8**) .

******

القصص التي ذكرت في سورة الفرقان

نأت بإذن الله على سورة الفرقان ، ونوضح ما جاء فيها من قصص ، حيث يقول سبحانه (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا..) الآيات

هذه الآية وإن كانت عامة في كل أصدقاء السوء ، إلا أن لها سببا للنزول وهي قصة عقبة بن أبي معيط مع أبي بن خلف كما قال سبحانه { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعامًا فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله" فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه، وكان عقبة صديقًا لأُبَيّ بن خلف، فلما أخبر أبي بن خلف قال له: يا عقبة صبأت؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييتُ أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال عليه السلام: "لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف" فقتل عقبة يوم بدر صبرًا. وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بيده ، أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في "الدلائل" بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت ، وقال الشعبي : كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام أَنْ بايعت محمدًا، فكفر وارتدَّ، فأنزل الله عز وجل: "ويوم يعض الظالم" يعني: عقبة بن أبي معيط بن عبد شمس بن مناف "على يديه" ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية

والكفر بالله بطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه. قال عطاء: يأكل يديه حتى تبلغ مرفقيه ثم تنبتان، ثم يأكل هكذا، كلما نبتت يده أكلها تحسرا على ما فعل. { يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ } في الدنيا، { مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا } ليتني اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم، واتخذت معه سبيلا إلى الهدى.

{ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا } يعني: أبي بن خلف. { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } عن الإيمان والقرآن، { بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } يعني: الذكر مع الرسول، { وَكَانَ الشَّيْطَانُ } وهو كل متمرد عات من الإنس والجن، وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان. { لِلإنْسَانِ خَذُولا } أي: تاركًا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب، وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله.

كما أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَثَلُ الجليسِ الصالحِ والسوءِ، كحامِلْ المسك ونافخِ الكِير، فحاملُ المسك إمَّا أن يُحْذِيَك وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيبة، ونافخُ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد منه ريحًا خبيثة" .

وأخرج أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد–أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي"

وأخرج أبو داود في سننه وكذا الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرءُ على دين خليلهِ فلينظرْ أحدُكم من يُخَالِلُ" وهذا الحديث متكلم فيه من حيث إسناده ففيه موسى بن وردان ضعفه البعض وكذا فيه زهير بن محمد ، قال الحافظ " رواية أهل الشام عنه غير مستقيمة فضعف بسببه، قال البخاري عن

أحمد : كأن زهير الذي يروي عنه الشاميون آخر . و قال أبو حاتم:حدث بالشام من حفظه ، فكثر غلطه "

لكن له طريق أخرى ، يرويه إبراهيم بن محمد الأنصاري عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة به . أخرجه ابن عساكر وقال الحاكم صحيح إن شاء الله ، ولكن في سنده إبراهيم الأنصاري فقد أورده في كتابه " الضعفاء " و قال : " له مناكير " .

وكذا قال ابن عدي فيه كما في " اللسان " لابن حجر ، و قال : " و ساق له ثلاثة أحاديث ، ثم قال : و له غير ذلك ، و أحاديثه صالحة محتملة " .

قلت : فهو ضعيف لكنه ليس شديد الضعف فيصلح للاستشهاد به فالحديث به حسن ، وقد صحح الحديث النووي رحمه الله .

ويستفاد من هذه القصة الحرص على الجليس الصالح فضلا عن الصديق فهو من باب أولى ، فإذا كان الجليس يؤثر على جليسه فما الحال بالصديق الموالف ، وكما قيل :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولنا في قصة أبي طالب مع أبي جهل عبرة فقد كاد أن يسلم لما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سياق الموت ، لولا أن الله قدر وجود أبي جهل وعبد الله بن خلف الذين صداه عن الحق بقولهم أترغب عن ملة عبد المطلب ، فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب .

وقد بين سبحانه أن جميع الأخلاء تنقلب صداقتهم يوم القيامة إلى عداوة إلا المتقين كما قال سبحانه (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) بل إن المتقي لينفع أخاه

يوم القيامة بشفاعة حسنة ، فضلا من كونه ينفعه في الدنيا بدعوة في ظهر الغيب ، ونصح هادف ، وستر للعورة وغيرها مما لا يخفى .

ولعلي أورد بعض ما صح في فضل الأخوة في الله فمن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)

وكذا ما أخرجه الترمذي من حديث معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون و الشهداء

منها ما أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : حقت محبتي للمتحابين فيّ و حقت محبتي للمتواصلين فيّ و حقت محبتي للمتناصحين فيّ و حقت محبتي للمتزاورين فيّ و حقت محبتي للمتباذلين فيّ ،المتحابون فيّ على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون و الصديقون و الشهداء .

ومنها كذلك ما أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبعثن الله أقواما يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، قال فجثا أعرابي على ركبتيه فقال يا رسول الله جلهم لنا نعرفهم قال هم المتحابون في الله من قبائل شتى وبلاد شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه

******

قصة داوود و سليمان عليهما السلام

قصة نبي الله سليمان وأبوه داود عليهما السلام ، حيث قص الله قصتهما في سورة النمل في قوله (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله ...) الآيات

فقد آتى الله سبحانه داود وسليمان علما وحكما وملكا فكانا نبيين ملكين ، فقد آتاهما الله مالم يؤت أحدا من العالمين ، فأولا كان نبي الله داود قد أنعم الله عليه بالقوة في جسمه ، حتى قتل جالوت وآتاه الله الملك بعد ذلك ثم امتن الله عليه بالنبوة ثم امتن عليه بالعبادة فكان أعبد أهل الأرض في زمانه كما قال سبحانه (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) حتى قيل لقد كان يصعد الله من الأعمال من داود مثل أعمال المؤمنين في زمنه ، ثم امتن الله عليه بأن رزقه سليمان وجعله نبيا ، كما قال

سبحانه وورث سليمان داود أي في النبوة ، ولقد شكرا هذه النعمة العظيمة شكرا عظيما ، حتى نوه الله بذكره في كتابه وكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إن الله لم ينعم على عَبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حَمْدُه أفضل من نعمته .

ولقد من الله على نبي الله سليمان حيث أورثه الملك والنبوة من بعد أبيه ، وكان شاكرا كأبيه حيث قال للناس (يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) فقد أوتي من كل شيء حتى إن الله سخر له الجن الإنس وعلم منطق الطير .

قال ابن كثير رحمه الله : وهذا شيء لم يُعطَه أحد من البشر –فيما علمناه –مما أخبر الله به ورسوله. وَمَنْ زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود –كما يتفوه به كثير من الناس –فهو قولٌ بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله، سبحانه وتعالى، كان قد أفهم سليمان، عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: { عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } أي: مما يحتاج إليه الملك، { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } أي: الظاهر البين لله علينا.أهـ

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان داود، عليه السلام، فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع". قال: "فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت

لِمَنْ في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود، فجاء داود، عليه السلام، فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذًا ملك الموت. مرحبًا بأمر الله، فتزمل داود، عليه السلام، مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان، عليه السلام، للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحا جناحا" قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، وغلبت عليه يومئذ المضرَحية .

قال أبو الفرج بن الجَوْزِيّ: المَضْرَحيّة النسور الحُمر. وقد وثق رجاله الهيثمي .

وقوله تعالى: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم يكونون في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حرًّا أظلته منه بأجنحتها.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

وفي إحدى سفرات سليمان عليه السلام مر على واد النمل كما قال سبحانه { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ } أي: حتى إذا مر سليمان، عليه السلام، بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } .

أي خافت على النمل أن تطأها الخيل بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها .

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ } أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ } أي: عملا تحبه وترضاه، { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، و ذكروا أوصافا للنملة ، من أنها كالذئب في الحجم وأنها عرجاء أو أن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، وقد أنكر ذلك ابن كثير في تفسيره وذلك أن ليس لها إسناد صحيح وكلها من الإسرائيليات .

والنمل من خلق الله الذين يوحدونه ويخلصون العمل له ، كيف لا وقد اشتهر النمل بالدقة وفي العمل الدؤوب ، فقد أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن زيد العَمّي، عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان عليه السلام، يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم، إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا. فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقد ثبت في الصحيح –عند مسلم –من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قَرَصَت نبيا من الأنبياء نملة، فأمر بقرية

النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح؟ فهلا نملة واحدة!" .

******

قصة سليمان بن داود مع الهدهد

فإن سليمان عليه السلام ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، وذلك لما آتاه الله من قوة في البصر ، وإن سليمان، عليه السلام نزل يوما ، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، { فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } .وقد أخرج الحاكم في المستدرك (405/2) من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال حدَّث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: "نافع بن الأزرق" ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غُلبت اليوم! قال: وَلِمَ؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ ترابًا، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي. فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته. فقال له: ويحك! إنه إذا نزل القَدَر عَمي البصر، وذهب الحَذَر. فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدا .

قال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قال له الطير: ما خلفك، فقد نذر سليمان دمك! فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: { لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } فقال: نجوت إذًا.

غاب زمانًا يسيرًا، ثم جاء فقال لسليمان: { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } أي: بخبر صدق حق يقين.وسبأ: هم: حِمْير، وهم ملوك اليمن.

ثم قال: { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ } ، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ.

وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مُؤخَّرُ قدميها مثل حافرَ الدابة، من بيت مملكة.

وقال زهير بن محمد: وهي بلقيس بنت شَرَاحيل بن مالك بن الريان، وأمها فارعة الجنية.

واخرج عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ } : كانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل. وكانت بأرض يقال لها مأرب، على ثلاثة أميال من صنعاء.

وأما عرشها الذي تجلس عليه فقد قال علماء التاريخ: كان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال: { وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ } .

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد. وإسناده صحيح .

إلا أن سليمان عليه السلام لم يصدقه في قوله ، وخشي أن يكون كذب في ذلك لينجو من العذاب ، فأراد أن يستثبت من قوله ، وأن يرى أثر نعمة الله عليه فقال { سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) } .

{اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}: وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوّة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدبًا ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: { يَا أَيُّهَا الْمَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدبًا. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم.

{ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } .فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } قبل سليمان، عليه السلام.

وقال ميمون بن مِهْرَان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب: باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية، فكتب: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } .

فلما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: { يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ } أي: حتى تحضرون وتشيرون.

{ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ } أي: مَنّوا إليها بعَدَدهم وعُددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: { وَالأمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } أي: نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمتثله ونطيعه.

قال الحسن البصري، رحمه الله: فوضوا أمرهم إلى عِلْجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سُخّر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهَدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا؛ ولهذا قالت: { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا } .

قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلدًا عنْوَة أفسدوه، أي: خرّبوه، { وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً } أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر.

قال ابن عباس: قالت بلقيس: { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً } ، قال الرب، عز وجل { وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خَرَاجا نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

فلما وصلت الهدية إلى سليمان عليه السلام غضب، و عدّها من قبل الرشوة ، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرًا عليهم: { أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ } أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟! { فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ } أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، { بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

{ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ } أي: بهديتهم، { فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } أي: لا طاقة لهم بقتالهم، { وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا } أي: من بلدهم، { أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ } أي: مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام. ولما تحقق سليمان، عليه السلام، قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسَرّه.

حيث علمت أنها لا نجاة لها إلا بالقدوم على سليمان وهي ذليلة كما قال سليمان عليه السلام ، فتجهزت وسارت إليه فلما علم سليمان بقدومها طائعة فرح بذلك وأراد أن

يريها من القدرة التي وهبه الله والملك العظيم ما يدعوها للإسلام ، فقال لجنوده { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) } .

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد -والله -عرفتُ، ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكاثرته شيئًا. وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه -وكان من ذهب مُفصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ -فجعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خَلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يَرَينَّه أحد حتى آتيك. ثم شَخَصَت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قَيْل منهم ألوف كثيرة. فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دَنت جمع مَنْ عنده من الجن والإنس، مِمَّنْ تحت يديه، فقال: { يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } .

وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مسترًا بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مغاليق ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال: { يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } .

وهكذا قال عطاء الخراساني، والسُّدِّي، وزُهير بن محمد: { قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } فتحرم علي أموالهم بإسلامهم.

{ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ }وهو المارد من الجن.

{ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ } قال ابن عباس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك. وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي، وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تَزول الشمس.

{ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } : قال ابن عباس: أي قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر.

فقال سليمان، عليه السلام: أريد أعجل من ذلك. ومن هاهنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسَخَّر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يَقْدموا عليه. هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة. فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ } قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكان صدّيقا يعلم الاسم الأعظم.

وقال قتادة: كان مؤمنا من الإنس، واسمه آصف. وكذا قال أبو صالح، والضحاك، وقتادة: إنه كان من الإنس –زاد قتادة: من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي: ارفع بصرك وانظر مُدّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك. وقال وهب بن منبه: امدد بصرك، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به.

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ، ودعا الله عز وجل.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهًا واحدًا، لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها. قال: فتمثل له بين يديه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عُبَّاد البحر، فلما عاين سليمان ومَلَؤه ذلك، ورآه مستقرًا عنده ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أي: هذا من نعم الله علي ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ أي: ليختبرني، ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: 46]، وكقوله ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: 44].

وقوله: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم ، ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: 8].

فلما استقر العرش عند سليمان ، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ .قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه

ومرافقه.وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر: وما كان أخضر جعل أحمر، غَيَّرَ كل شيء عن حاله.

فلما قدمت هي وجيوشها ، استقبلهم سليمان وأكرمهم ، وأحسن ضيافتهم ثم عرض عليها عرشها، وقد غير ونُكِّر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: { كَأَنَّهُ هُوَ } أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

ولم يكن هذا الفعل داعيا لها لاتباع سليمان ، بل صدها ما كانت تعبد من دون الله ، فلهذا أمر سليمان بعمل شيء عظيم ليتبين لها ما أنعم الله به على سليمان عليه السلام

.

وذلك أن سليمان، عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيما من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان، عليه السلام، إلى اتخاذه، فقيل: إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها، ولكن في ساقيها هُلْبٌ عظيم، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فساءه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا؟ –هذا قول محمد بن كعب القُرَظي، وغيره –فلما دخلت وكشفت عن ساقيها، رأى أحسن الناس وأحسنه قدمًا، ولكن رأى على رجليها شعرًا؛ لأنها ملكة ليس لها بعل فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: الموسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئًا غير الموسى يذهب به هذا الشعر، فصنعوا له النُوْرَةَ. وكان أول من اتخذت له النّورَة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ومحمد بن كعب

**

القرظي، والسدي، وابن جُرَيْج، وغيرهم. وكل هذا مما نقل عن بني إسرائيل ، والله أعلم بصحته .

ثم إن سليمان عليه السلام قال لها: ادخلي الصرح، ليريها مُلْكًا هو أعزّ من ملكها، وسلطانا هو أعظم من سلطانها. فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صرح مُمَرّد من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله.

وقال الحسن البصري: لما رأت العلْجَةُ الصرح عرفت -والله -أن قد رأت ملكًا أعظم من ملكها.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضا. ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ادخلي الصرح، ليريها ملكا هو أعز من ملكها، وسلطانا هو أعظم من سلطانها { فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا } ، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: { إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ } ، فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، عز وجل، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجدًا إعظاما لما قالت، وسجد معه الناس، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ -قال: وأنسيت ما قالت فقالت: { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، فأسلمت وحسن إسلامها.

وقد أورد المؤرخون والمفسرون تحت هذا الصرح ومعجزات سليمان أوابد نقلت عن بني إسرائيل وقد أغنانا الله، سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة.

والغرض أن سليمان، عليه السلام، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعَرَفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله، عز وجل، وقالت: { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا .

******

قصة قارون

قارون الذي ذكره الله في سورة القصص وكان في زمن موسى عليه السلام كما قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: { إِنَّ قَارُونَ

كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } ، قال: كان ابن عمه. وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي، وجمع من أئمة التفسير .وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار: قارون كان عمَّ موسى ، عليه السلام.

قال ابن جرير: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم. وقال قتادة بن دِعَامة: كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

قيل: كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم ويظلمهم، وقال قتادة: بغى عليهم بكثرة المال. وقال الضحاك: بغى عليهم بالشرك. وقال شهر بن حوشب: زاد في طول ثيابه شبرا،

وقد كثرت أمواله لدرجة أن مفاتح خزائن أمواله يحملها العصبة من الرجال ، فإذا كانت هذه المفاتيح فكيف بالخزائن كما قال سبحانه { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ } هي جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب، هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل: مفاتحه: خزائنه، كما قال: "وعنده مفاتح الغيب" (الأنعام–59) ، أي: خزائنه، ومن كثرتها إنها لَتُثْقِلُهم، وتميل بهم إذا حملوها لثقلها ، لا لكبر حجمها.

واختلفوا في عدد العصبة، قال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقيل: أربعون رجلا. وقيل: سبعون. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يحمل مفاتحه أربعون رجلا أقوى ما يكون من الرجال .

وقد ذكر سبحانه أن قارون بغى على قومه بعد أن آتاه الله الثراء. ولا يذكر القرآن فيم كان البغي، فذكره نكرة يشمل شتى الصور. فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم. وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال. حق الفقراء في أموال الأغنياء. وربما بغى عليهم بغير هذه الأسباب.

وقد بين سبحانه أن العقلاء من قومه نصحوه بالقصد والاعتدال، وهو المنهج السليم. فحذروه من الفرح الذي يؤدي بصاحبه إلى نسيان من هو المنعم بهذا المال، وينصحونه بالتمتع بالمال في الدنيا، من غير أن ينسى الآخرة، فعليه أن يعمل لآخرته بهذا المال. ويذكرونه بأن هذا المال هبة من الله وإحسان، فعليه أن يحسن ويتصدق من هذا المال، حتى يقابل الإحسان بالإحسان. ويحذرونه من الفساد في الأرض، بالبغي، والظلم، والحسد، والبغضاء، وإنفاق المال في غير وجهه، أو إمساكه عما يجب أن يكون فيه. فالله لا يحب المفسدين.

فكان رد قارون جملة واحد تحمل شتى معاني الفساد) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي .(لقد أنساه غروره مصدر هذه النعمة وحكمتها، وفتنه المال وأعماه الثراء. فلم يستمع قارون لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه.

حتى إنه خرج ذات يوم على قومه، بكامل زينته، فطارت قلوب بعض القوم، وتمنوا أن لديهم مثل ما أوتي قارون، وأحسوا أنه في نعمة كبيرة. فرد عليهم من سمعهم من أهل العلم والإيمان: ويلكم أيها المخدوعون، احذروا الفتنة، واتقوا الله، واعلموا أن ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون.

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، يأتي الرد الإلهي ليضع حدا للفتنة، وذلك لعقاب الظالم ورحمة بالناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء، فيجيء العقاب حاسما) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ (هكذا في لمحة خاطفة

ابتلعته الأرض وابتلعت داره. وذهب ضعيفا عاجزا، لا ينصره أحد،ولا ينتصر بجاه أو مـــال.

وبدأ الناس يتحدثون إلى بعضهم البعض في دهشة وعجب واعتبار. فقال الذين كانوا يتمنون أن عندهم مال قارون وسلطانه وزينته وحظه في الدنيا: حقا إن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويوسع عليهم، أو يقبض ذلك، فالحمد لله أن منّ علينا فحفظنا من الخسف والعذاب الأليم. إنا تبنا إليك سبحانك، فلك الحمد في الأولى والآخـــرة.

ومن هذه القصة نستفيد درسا ومثالا لقوله تعالى " إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " وهكذا نجد قارون يظلم قومه حين كثرت الأموال بين يديه ، وهذا دليل تفاهة من يغره المال ، فيصرفه عن وجوه الخير ، بل يشتط في الكبر والاستعلاء .

ولو تأملنا نصيحة عقلاء قومه له لوجدناها تشمل فوائد فقد نصحوه بالبعد عن البطر فهو من الآفات التي تقصم ظهر صاحبها ، وتهلكه ، وذلك لأن الكبرياء رداء الله ، والعظمة إزاره ، فمن نازعه واحدا منهما ، قذفه في النار ، ومن ادعى ذلك غضب الله عليه ، وكرهه " إن الله لا يحب الفرحين " البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ويتكبرون بأموالهم على عباد الله فما ينبغي لأحد أن يستكبر أو يتعالى . وطلبوا منه أن يطلب الدار الآخرة فيما أعطاه الله من الأموال ، " وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة " فيتصدق وينفق على الطاعات ، فهذا من شكر الله تعالى ، وسيجد في الآخـــــــرة – إن فعـــــــل ذلـــــــك – فضـــــــلاً مـــــــن الله كبـــــــيرا .
وبينوا له كما أن للإنسان أن يتمتع بالخير الذي وهبه الله إياه في الدنيا دون أن تكون الدنيا همه الأكبر أو الوحيد ، وهذا تنبيه واضح إلى أن العاقل يجعل الآخرة الباقية نصب

عينيه وهدفه الأول ، وله أن يتمتع بدنياه كما قال سبحانه " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ " ، ولكن الخطر أن تكون الدنيا مبلغ علم الرجل وأكبر همه ، والعاقل الحصيف هو الذي يجعل الدنيا دابة توصل للآخرة ويجعلها طريقا إلى الفـــــــــــــــردوس الأعلـــــــــــــــــــــــــــــى .

ومن نصحهم له أن يحسن إلى الناس ، فالإحسان من التحدث بنعمة الله ،" وأما بنعمة ربك فحدّثْ " وليس الحديث بالتفاخر والتباهي بما أنعم الله علينا فقط ، فهذا إيذاء لمشاعر الناس وإساءة إليهم . ومن أحسن إلى الناس فقد استجلب رضا الله تعالى عليه وحبه له ، ومن أحبه الله فاز وأفلح . وكما تدين تدان : فمن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليـــه .

وحذروه من الإساءة لأنها من الفساد في الأرض والإفساد طرقه كثيرة ، منها : البغي في الأرض ، وكثرة المعاصي ، وصرف المال فيما يغضب الله تعالى ... والبعد عن الإفساد والفساد من سمات العاقل اللبيب ، وعكس ذلك من سمات اللئيم الذميم . والله تعالى يكره هذا الصنف الذي يفسد في الأرض ، ومن كرهه الله تعالى كان من الخاسرين .

ومن فوائد هذه القصة أن العاقل من اتعظ بمن قبله ولم تغره الدنيا ، والجاهل من تنكب الطريق السويّ ، فأورده موارد الهلاك ، لأنه لم يستفد ممن قبله ، ولم يفهم المقصود من الإنعام عليه ، وكان قارون جاهلا أرداه جبروته ، فادّعى ما ليس له .... ادّعى أن ذكاءه وعبقريته كانا السبب في نجاحه هذا النجاح الكبير ، وأن المال جمعه بجده ونشاطه ليس غير !! وهذا مقتل المتكبرين ، وهلاك المتجبرين . هؤلاء الذين لا يتعلمون ممن غبر ، ولا يتعظـــــــــــــــون مـــــــــــــــن مصـــــــــــــــائر أمثـــــــــــــــالهم .

وقد يتساءل البعض : كيف " ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون " ؟ ألم يقل الله تعالى "

فوربك لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون " ؟ والأمر ليس فيه تعارض البتة ، إنما هو تصوير لمصيرهم السيء بأبشع صورة ، والله تعالى لعلمه بما فرّطوا وتجاوزوا لا يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها تحقيراً لهم ، وغضباً عليهم .

ومن الفوائد أن من عادة أهل الكبر أنهم يظهرون أحسن ما عندهم غير مبالين بما يحدث من جراء ذلك من انكسار لقلوب المساكين ، فقارون وأمثاله – هؤلاء الذين طُمست بصائرهم ، فما عادوا يرون إلا ذواتهم – يستعلون على عباد الله فيخرجون متعاظمين كما فعل قارون حين " خرج على قومه في زينته " متباهياً مفتخراً بأكمل زينته ذات يوم ، يليه أتباعه الكثيرون متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيول موشحة بالذهب والعقيان ، ومعه الجواري والغلمان في موكب حافل باهر فيسبي قلوب أهل الدنيا ، فيتمنون أن يكونوا مثله ، أو يكون لهم ما له ، ويعتقدون مخطئين أنه ذو حظ عظيم .
ومن الفوائد أن أهل الإيمان الذين ينظرون بنور ربهم يعلمون زيف الدنيا وصغارها ، وأن الحياة الحقة هي الحياة الباقية ، أما الفانية الزائلة فلا تستهويهم . إنهم قالوا حين سمعوا أهل الدنيا يتمنون هذا الزائل ناسين الآخرة وخلودها : " ثواب الله خير لمن آمن ، وعمل صالحاً ،ولا يُلقّاها إلا الصابرون " فالإيمان بالله أولاً ، يليه العمل الصالح ثانياً ، يليه الصبر والرضا بما قسم الله تعالى ثالثاً ثوابُ الله الجزيل الذي يغمر العباد الصالحين .
ومن الفوائد أيضا بيان أن العقوبة العاجلة للمتكبرين في الدنيا ، فقد خسف الله تعالى بقارون الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، تضيق عليه ويحترق بنيرانها جزاء وفاقاً هو ومن يسير في ركابه ، فماذا يقول هؤلاء الذين باعوا آجلاً بعاجل ، ورضوا أن يكونوا في صفوف أعداء الله ، يحاربون أولياء الله ، والمرء مع من أحب .

******

قصة نصر الله للروم على الفرس

أخرج الإمام أحمد والترمذي وغيرهما ملخصها أن الفرس هزموا الروم ، وكان ذلك قبل الهجرة ، فاغتم المسلمون لذلك ، حيث كانت الروم أهل كتاب ، وفرح المشركون لنصر الفرس لما كانوا أهل أوثان ، فأنزل الله سورة الروم ففرح المسلمون بذلك .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غُلبت الروم بين أذرعات وبُصرى، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وهي أدنى الأرض .

وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس ثم نصر الله الروم على فارس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسُّدِّي، وغيرهم. وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار، من حديث الأعمش، عن عطية (وعطية لا يحتج به) عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }

و الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويُصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محاريب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر. فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفا، فتابعها -يقال: تَقِيَّة -واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافا كثيرًا منتشرا متشتتا لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين -يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغَيَّروا دين المسيح، عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير. واتخذوا أعيادًا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك

من البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساقسة، ثم الشمامسة. وابتدعوا الرهبانية. وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما جاء في السنن عن عدة من الصحابة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة". والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل. وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا، فتمَلَّكَ عليهم في رياسَة عظيمة وأبهة كبيرة، فناوأه كسرى ملكُ الفرس، ومَلكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقة الفرس، وكانوا مجوسا يعبدون النار. والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكَسَره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك. فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف

كثيرة. فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا، ولو غبت عشرة أعوام. فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط، هذا وكسرى مُخيّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة، أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وركّبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخُذه. فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدا، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير

ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. وكان ذلك يوما مشهودًا عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون. لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادُهم قد خَرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم. فكان هذا من غَلب الروم فارسَ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم . انتهى ملخصا من كلام ابن كثير رحمه الله ، و كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإن البِضْعَ في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع. وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحي، عن الزهري، عن عبُيَد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر في مُنَاحَبَه { الم غُلِبَتِ الرُّومُ } ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟"، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

******

قصة لقمان

لقمان الحكيم الذي ذكره الله في كتابه في أكثر من موضع وسمى إحدى السور باسمه تنويها لفضله وهو لقمان بن عنقاء بن سدون. واسم ابنه: ثاران في قول حكاه السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكم. ووصفه بها لما ذكر اسمه .

وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالرجل الصالح كما أخرج الشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) (الأنعام / **82**) شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه ! قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان / **13**) ! إنما هو الشرك.

وقد اختلف السلف في لقمان : هل كان نبيًا، أو عبدًا صالحا من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني.

وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا.

وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرًا أفطس من النوبة.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة.

وقال الأوزاعي رحمه الله، حدثني عبد الرحمن بن حَرْمَلة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهْجَع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسود نوبيًا ذا مشافر .و عن مجاهد: كان قاضيا على بني إسرائيل.وذكر غيره: أنه كان قاضيا على بني إسرائيل في زمن داود، عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان، عليه السلام، عبدًا أسود غليظ الشفتين، مُصَفَّح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا، قال: نعم. فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني .

ورواه ابن جرير من حديث جابر رضي الله عنه فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفي كونه نبيا، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبدًا قد مَسَّه الرق ينافي كونه نبيا؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة -إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وَكِيع عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة فقال: كان لقمان نبيًا. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم بسنده من حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه، أنه قال يومًا –وذُكِرَ لقمان الحكيم –فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلا صَمْصَامة سكيتا، طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهارًا قط، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخَّع، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقًا نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد، فماتوا فلم يبك عليهم. وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر ،فبذلك أوتي ما أوتي.

وقد ورد أثر غريب عن قتادة، رواه ابن أبي حاتم، من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة قال: خَيّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة. قال: فأتاه جبريل وهو نائم فَذرَّ عليه الحكمة –أو: رش عليه الحكمة –قال: فأصبح ينطق بها.

قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خَيَّرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عَزْمَة لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكنه خَيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليَّ.

فهذا من رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه، فالله أعلم.

ومما ورد من حكمته ما أخرجه ابن جرير بسنده عن خالد الرَّبَعِيّ قال: كان لقمان عبدًا حبشيا نجارا، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها، فقال: أخْرجْ أطيب مُضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن

تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما.

فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا .

ومن ما نطق به من الحكمة أنه قال يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار والمؤمن يختبر بالبلاء .

وقال : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

و قال لقمان لابنه: " يا بني لا يكن الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم ".

وقال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع فإنه مخونة بالليل مذمة بالنهار ".

وقال لابنه: يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في أمرك العلماء.

وقال لقمان لابنه: قد ذقت المرار فلم أذق شيئا أمر من الفقر.

وحملت كل حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء.

ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب.

وقال لقمان لابنه: يا بني ! ! العمل لا يستطاع إلا باليقين، ومن يضعف يقينه يضعف عمله.

وقال: يا بني إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريب فاغلبه باليقين والنصيحة، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاغلبه بذكر القبر والقيامة، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة فأخبره أن الدنيا مفارقة متروكة.

أيها القارئ الكريم ، هذا شيء من أخبار لقمان الحكيم تبين لنا منها أمور :

أولا أن العرق والجنس لا يرفع العبد ولا يخفضه عند الله ، وإنما الميزان الحقيقي هو التقوى ، كما قال سبحانه (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ثانيا أن الحكمة هبة إلاهية من وهبه الله الحكمة فقد أنعم عليه بنعمة عظيمة كما قال سبحانه (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)

ولما للحكمة من أثر في سلوك العبد ومعاملته مع الله كان من أهم المهمات أن يسأل العبد ربه أن يهبه الحكمة .

******

قصة غزوة الأحزاب

وقعت الأحزاب وهي ما تسمى بغزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح ، وسميت بالأحزاب لتجمع أحزاب الكفر من كفار ويهود بقصد استئصال النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وسميت الخندق لحفر الصحابة خندقا حول المدينة لمنع المشركين من دخولها .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وأَلّبوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضا. وخرجت قريش في أحابيشها، ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفَر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات.

وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: { إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ } ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة –وهم طائفة من اليهود –لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي

صلى الله عليه وسلم وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضَري اليهودي ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال،كما قال الله تعالى: { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا } .

ومكثوا محاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريبًا من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري –وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية –ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي، رضي الله عنه، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله عز، وجل، على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار، ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين،كما قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا } .

قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم : "نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور".

وروى ابن جرير بسنده عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مَظْعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف. قال: فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لي، وقال: "من أتيت من أصحابي

فمرهم يرجعوا". قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحدا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فما يلوي أحد منهم عنقه. قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه عليّ، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأنفدها إلى الأرض.

وقد أيد الله المؤمنين بالملائكة زيادة على الريح كما قال سبحانه: { وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا } وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليَّ. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب.

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، فقال له رجل: لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟ لقد رَأيتُنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا رجل يأتي بخبر القوم، يكون معي يوم القيامة؟". فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله. ثم قال: "يا حذيفة، قم فأتنا بخبر من القوم". فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: "ائتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهم عَلَيّ". قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلَى ظهره بالنار، فوضعت سهما في كَبِد قوسي، وأردت أن أرميَه، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَذْعَرْهم عَلَيَّ"، ولو رَمَيْته لأصبته. قال: فرجعت كأنما أمشي في حَمّام، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أصابني البرد حين فَرَغتُ وقُررْتُ فأخبرتُ رسول الله صلى

الله عليه وسلم، وألبسني من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قم يا نومان ".

ولقد حصل للمؤمنين في تلك المعركة بلاء عظيم كما قص الله في كتابه {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (**10**) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (**11**) }

فقوله { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } .قال ابن جرير: ظن بعض مَنْ كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك .

وقال محمد بن إسحاق في قوله: { وَإِذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } : ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال مُعَتّب بن قشير –أخو بني عمرو بن عوف –: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد، صار إيماهم عين اليقين، { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا }

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون قال تعالى: { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا } .

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة ويصدق ظنه.

******

قصة إيلاء النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه

قصة إيلاء النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه حيث ذكر ذلك الله سبحانه في كتابه في سورة الأحزاب قال تعالى (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(28)

روى البخاري و مسلم واللفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال :

دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه و سلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال : – فأذن لأبي بكر فدخل ثم جاء عمر فاستأذن له وجد النبي صلى الله عليه و سلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا – قال : – فقال والله لأقلن شيئا أضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني نفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم وقال : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه و سلم ما ليس عنده ! ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه و سلم شيئا أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية : { يا أيها النبي قل لأزواجك } حتى بلغ – { للمحسنات منكن أجرا عظيما } قال : فبدأ بعائشة فقال : يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبوك وقالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت ، فقال : لا تسألني امرأة منهم إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتا ولكن بعثني معلما ميسرا وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بتخيير أزواجه فبدأ بي فقال : يا عائشة إني ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك قالت وقد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه قالت ثم قال : إن الله يقول { يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا } حتى بلغ – { للمحسنات منكن أجرا عظيما } فقلت أفي هذا أستأمر أبوي ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وفعل أزواج النبي صلى الله عليه و سلم مثل ما فعلت]

**

ففي هذه القصة تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم آلا من نسائه لما اجتمعن عليه كلهن يطالبنه بما ليس عنده من النفقة ، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق أيضا بعضا من نسائه منهن اللاتي دخل بها ومنهن اللاتي لم يدخل بها ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يظاهر ، لأن الظهار من أمر الجاهلية وقد قال الله عنه إنه منكر من القول وزور .

قال العلماء : وأما أمر النبي صلى الله عليه و سلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فراقه ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه .

كان للنبي صلى الله عليه و سلم أزواج منهن من دخل بها ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها و منهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها ، ولنستعرض أسماء زوجاته عليه الصلاة والسلام :

فأولهن : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب وكانت قبله عند أبي هالة واسمه زرارة بن النباش الأسدي .

ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه و سلم على خديجة غيرها حتى ماتت وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم بنت أربعين سنة وتوفيت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين وقيل : عشر وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة وهي أول امرأة آمنت به وجميع أولاده منها غير إبراهيم قال حكيم بن حزام توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالحجون ونزل رسول الله صلى الله عليه و سلم في حفرتها ولم تكن يومئذ سن للجنازة الصلاة عليها .

ومنهن : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية أسلمت قديما وبايعت وكانت عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو وأسلم أيضا وهاجروا جميعا إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية فلما قدما مكة مات زوجها وقيل : مات بالحبشة فلما حلت خطبها رسول الله صلى الله عليه و سلم فتزوجها ودخل بها بمكة وهاجر بها إلى المدينة فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألا يفعل وأن يدعها في نسائه وجعلت ليلتها لعائشة – حسبما هو مذكور في الصحيح – فأمسكها وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين .

ومنهن عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت مسماة لجبير بن مطعم – والتسمية ليست بخطبة ، إنما هي عادة بين العرب يقال فلان لفلانة ، ولا يقصدان بها خطبة – فخطبها رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال أبو بكر : يا رسول الله دعني أسلها من جبير سلا رفيقا فتزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع وبقيت عنده تسع سنين ومات رسول الله صلى الله عليه و سلم وهي بنت ثماني عشرة ولم يتزوج بكرا غيرها وماتت سنة تسع وخمسين وقيل ثمان وخمسين .

ومنهن حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم طلقها فأتاه جبريل فقال :

[إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة فراجعها] قال الواقدي : وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية وهي بنت ستين سنة وقيل : ماتت في خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية – واسم أبي أمية سهيل – تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم في ليال بقين من شوال سنة أربع زوجها منه ابنها سلمة على الصحيح وكان عمر ابنها صغيرا وتوفيت في سنة تسع وخمسين وقيل : سنة ثنتين وستين والأول أصح وصلى عليها سعد بن زيد وقيل أبو هريرة : وقبرت بالبقيع وهي ابنة أربع وثمانين سنة .

ومنهن : أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطب له أم حبيبة فزوجه إياها وذلك سنة سبع من الهجرة وأصدق النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أربعمائة دينار وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة وتوفيت سنة أربع وأربعين

ومنهن : زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه و سلم زينب ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة في سنة خمس من الهجرة وتوفيت سنة عشرين وهي بنت ثلاث وخمسين .

ومنهن : زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية كانت تسمى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة فمكثت عنده ثمانية أشهر وتوفيت في حياته في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهرا ودفنت بالبقيع .

ومنهن : جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية المطلقية أصابها في غزوة بني المصطلق فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها فقضى رسول الله صلى الله عليه و سلم كتابها وتزوجها وذلك في شعبان سنة ست وكان اسمها برة فسماها رسول الله

صلى الله عليه و سلم جويرية وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين وقيل : سنة خمسين وهي ابنة خمس وستين.

ومنهن : صفية بنت حيي بن أخطب الهارونية سباها النبي صلى الله عليه و سلم يوم خيبر واصطفاها لنفسه وأسلمت وأعتقها وجعل عتقها صداقها ، ماتت في سنة خمسين وقيل : سنة اثنتين وخمسين ودفنت بالبقيع .

ومنهن : ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة من بني النضير سباها رسول الله صلى الله عليه و سلم وأعتقها وتزوجها في سنة ست وماتت مرجعة من حجة الوداع فدفنها بالبقيع وقال الواقدي : ماتت سنة ست عشرة وصلى عليها عمر قال أبو الفرج الجوزي : وقد سمعت من يقول : إنه كان يطؤها بملك اليمين ولم يعتقها.

قلت : ولهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي في عداد أزواج النبي صلى الله عليه و سلم

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم بسرف على عشرة أميال من مكة وذلك في سنة سبع من الهجرة في عمرة القضية وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه و سلم وقدر الله تعالى أنها ماتت في المكان الذي بنى فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم بها ودفنت هنالك وذلك في سنة إحدى وستين وقيل : ثلاث وستين وقيل : ثمان وستين

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبي صلى الله عليه و سلم وهن اللاتي دخل بهن رضي الله عنهن

فَهَؤُلَاءِ اللّاتِي بَنَى بِهِنّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إحْدَى عَشْرَةَ ، فَمَاتَ قَبْلَهُ مِنْهُنّ ثِنْتَانِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ . وَتُوُفّيَ عَنْ تِسْعٍ قَدْ ذَكَرْنَاهُنّ فِي أَوّلِ هَذَا الْحَدِيثِ وَثِنْتَانِ لَمْ يَدْخُلْ بِهِمَا : أَسْمَاءُ بِنْتُ النّعْمَانِ الْكِنْدِيّةُ تَزَوّجَهَا فَوَجَدَ بِهَا بَيَاضًا ، فَمَتّعَهَا وَرَدّهَا إلَى أَهْلِهَا ، وَعَمْرَةُ بِنْتُ يَزِيدَ الْكِلَابِيّةُ وَكَانَتْ حَدِيثَةَ عَهْدٍ بِكُفْرِ فَلَمّا قَدِمَتْ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اسْتَعَاذَتْ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " مَنِيعٌ عَائِذُ اللّهِ " ، فَرَدّهَا إلَى أَهْلِهَا ، وَيُقَالُ إنّ الّتِي اسْتَعَاذَتْ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كِنْدِيّةٌ وَيُقَالُ إنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ دَعَاهَا ، فَقَالَتْ إنّا قَوْمٌ نُؤْتَى وَلَا نَأْتِي ؛ فَرَدّهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى أَهْلِهَا .

******

قصة النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم للطعام ونزول آية الحجاب

يقول سبحانه (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ..)الآيات

قال ابن كثير رحمه الله تعليقا على هذه الآية : هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } [البقرة: **125**]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه في الغيرة: { عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ } [التحريم:5]، فنزلت كذلك ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب . وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة .وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما.

أقول هذه الآية اشتملت على النهي عن دخول بيت النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر فيها آداب المجلس ، وذكر فيها الحجاب ، ونكاح زوجات النبي صلى الله عليه وسلم من بعده وغيرها مما سنتطرق إليه بإذن الله تعالى .

وقال القرطبي : وهذه الآية تضمنت قصتين : إحداهما : الأدب في أمر الطعام والجلوس والثانية : أمر الحجاب وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت في الثقلاء فأما القصة الأولى فالجمهور من المفسرين على أن سببها : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم وزوجته مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله صلى الله عليه و سلم قال أنس : فما أدري أأنا أخبرت النبي صلى الله عليه و سلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرني قال : فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب قال : ووعظ القوم بما وعظوا به وأنزل الله عز و جل : { يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي } إلى قوله { إن ذلكم كان عند الله عظيما } أخرجه أهل الصحيح وقال قتادة ومقاتل في كتاب الثعلبي : إن هذا السبب جرى في بيت أم سلمة والأول الصحيح كما رواه الصحيح وقال ابن عباس : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه و سلم فيدخلون قبل أن يدرك الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وقال إسماعيل بن أبي حكيم : وهذا أدب، أدب الله به الثقلاء وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود في بيت زينب القصة المذكورة آنفا وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : [يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن] فنزلت الآية وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر هذا أصح ما قيل في أمر الحجاب وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية لا يقوم شيء منها على ساق وأضعفها ما روي عن ابن مسعود : أن عمر أمر نساء النبي صلى الله عليه و سلم

بالحجاب فقالت زينب بنت جحش : يا ابن الخطاب إنك تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا فأنزل الله تعالى : { وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم } وهذا باطل لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب كما بيناه أخرجه البخاري و مسلم و الترمذي وغيرهم وقيل : إن [رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصاب يد رجل منهم يد عائشة فكره النبي صلى الله عليه و سلم] فنزلت آية الحجاب قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي صلى الله عليه و سلم ودخل في النهي سائر المؤمنين والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام .

وفي قوله تعالى : { بيوت النبي } دليل على أن البيت للرجل ويحكم له به فإن الله تعالى أضافه إليه فإن قيل : فقد قال الله تعالى : { واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا } (الأحزاب : **34** ،) قلنا : إضافة البيوت إلى النبي صلى الله عليه و سلم إضافة ملك وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي صلى الله عليه و سلم والإذن إنما يكون للمالك ،في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها كما تقدم فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها.

وفي قوله تعالى : { ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا } روى إسماعيل بن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال : حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلا قال : لو قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم تزوجت عائشة فأنزل الله تعالى : { وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله } الآية ونزلت : { وأزواجه أمهاتهم } وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم على حراء في نفسه لو توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم لتزوجت عائشة وهي بنت عمي قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدث به في نفسه فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله وأعتق رقيقا فكفر الله عنه وقال ابن عطية : روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه و سلم لتزوجت عائشة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فتأذى به هكذا كنى عنه ابن عباس ببعض الصحابة وحكى مكي عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله.

قصة سبأ

قال سبحانه (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) الآيات

فقد كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس –صاحبة سليمان– منهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد شذر مَذرَ.

روى الإمام أحمد وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَاب يحيى بن أبي حيَّة الكلبي، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة، عن فروة بن مُسيَك قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: "نعم، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم". فلما وليت دعاني فقال: "لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام". فقلت: يا رسول الله، أرأيت سبأ؛ أواد هو، أو رجل ، أو ما هو؟ قال: " لا ، بل رجل من العرب، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة، تيامن الأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار الذين يقال لهم: بجيلة وخثعم. وتشاءم لخم، وجذام، وعاملة، وغسَّان".قال ابن كثير رحمه الله وهذا إسناد جيد ، يعني بشواهده

قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشا ورياشا. وذكروا أنه بشَّر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعرًا:

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا ... نَبِيّ لا يُرَخِّصُ في الحَرَام ...

وَيملك بَعْدَه منْهُم مُلُوك ... يدينوه العبادَ بغَير ذام ...

ويَملك بَعدهم منا مُلُوك ... يَصير المُلك فينَا باقْتسَام ...

وَيَمْلك بَعْد قَحطَان نَبي ... تَقي خَبْتَة خير الأنام ...

وسُمي أحْمَدًا يَا لَيتَ أني ... أُعَمَّرُ بَعْد مَبْعَثه بعام ...

فأعضُده وأَحْبوه بنصْري ... بكُل مُدَجّج وبكُل رام ...

متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامي ...

وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء، وحُكمَ على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب.

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالى: { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ } ، ثم فسرها بقوله: { جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ } أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

ولكنهم كفروا هذه النعمة العظيمة ، وأعرضوا عن دين الله كما قال سبحانه : { فَأَعْرَضُوا } وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ } [النمل: 22، 24].

وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك؛ أن الله، عز وجل، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: "الجُرَذ" نقبته –قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السَّدّ فنقبته، فانهار عليهم.

فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل .

وكان من طغيانهم أن رفضوا ما هم فيه من النعم ، واشتاقوا لعيش الشظف ، كما قال سبحانه

{ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) } .

فقد كانوا في الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا، ويَقيل في قرية

ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } ، قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك.

وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسُّدِّي، وابن زيد وغيرهم : يعني: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. { قُرًى ظَاهِرَةً } أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: { وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ } أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، { سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ } أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا. { فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } ، وقرأ آخرون: "بعد بين أسفارنا "، وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة –كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد–وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة{ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ } أي: جعلناهم حديثا للناس، وَسَمَرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛

ولعل من أبرز فوائد هذه القصة أن النعم تدوم بالشكر وتزول بالكفر فهل نعتبر ؟؟

******

قصة صاحب يس

قال سبحانه (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13)إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(14)

ولقد تكلم المفسرون والمؤرخون حول هذه القرية وسردوا فيها الأقاويل والإسرائيليات ، وما حكاه الله كاف في أخذ العبرة والفائدة ومالم يذكر الله فلا فائدة في إيراده ، غير أننا في هذه الحلقة سنذكر ما يبين معنى الآيات ، ويجعل السامع يعيش مع الآيات ، متجنبين ما ينكر من القول ، أو يخالف الصحيح من المنقول ، قال ابن إسحاق –فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه–: إن القرية المذكورة هي مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: أنطيخس ، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهكذا رُوي عن بُرَيدة بن الحُصَيب، وعِكْرِمَة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية.

وزعم قتادة بن دعامة: أنهم كانوا رسل المسيح، عليه السلام، إلى أهل أنطاكية. { قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا } أي: فكيف أوحيَ إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحيَ إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة. وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر

الله تعالى عنهم في قوله: { ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا } [التغابن: 6] ، ولهذا قال هؤلاء: { مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ } أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار{ وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } يقولون إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبَّ ذلك .

فما كان من قومهم إلا ردوا عليهم بقولهم { إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ } أي: لم نرَ على وجوهكم خيرًا في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم.

ولهذا هددوهم بالرجم فقالوا{ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ } : قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشتم.قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه-: إن أهل القرية هَمّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصرهم من قومه -قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجرير -وهو الحبال-وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مستقيم النظرة .

فقال لقومه ناصحا لهم { يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم، { اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا } أي: على إبلاغ الرسالة، { وَهُمْ مُهْتَدُونَ } فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له.

وبهذا يتبين أن من لا يأخذ أجرا على أمور الدعوة فهو أحرى بالقبول .

قال ابن إسحاق –فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب–: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه.

وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: "اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون". فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك، فقتلوه، رحمه الله.

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وقال الله له: { ادْخُلِ الْجَنَّةَ } ، فدخلها فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقْم الدنيا وحزنها ونَصَبها.

وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: { يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } [يس: **20**] ، وبعد مماته في قوله: { يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } رواه ابن أبي حاتم.

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصا على هداية قومه.

روى ابن أبي حاتم قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي صلى الله عليه وسلم: ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أخاف أن يقتلوك". فقال: لو وجدوني نائما ما أيقظوني. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انطلق". فانطلق فمر على اللات والعزى، فقال: لأصبحَنَّك غدًا بما يسوءك. فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العُزى لا عُزى، أسلموا تسلموا. يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا. قال ذلك

ثلاث مرات، فرماه رجل فأصاب أكْحَله فقتله، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: "هذا مثله كمثل صاحب يس، { قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } . ورواه الحاكم في المستدرك (3/615) والطبراني في المعجم الكبير (17/148) من طريق ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، بنحوه. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (17/148) من طريق موسى بن عقبة، عن الزهري، بنحوه. وقال الهيثمي في المجمع (9/386) : "وكلاهما مرسل، وإسنادهما حسن".

******

قصة صلح الحديبية

سمي بالحديبية للمكان المعروف بالحديبية سمي ببئر كانت هنالك، هذا اسمها، ثم عرف المكان كله بذلك، وبينها وبين مكة نحو مرحلة واحدة، وبين المدينة تسع مراحل ،وكانت الحديبية سنة ست، قاله الجمهور، في ذي القعدة .

ولقد أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث المسور قصة الحديبية مفصلة حيث يقول " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش . وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس : حل حل فألحت فقالوا : خلات القصواء خلات القصواء فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما خلات القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال : والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت قال : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . قال : فانطلق حتى أتى قريشا قال : إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء وقال ذووا الرأي منهم :

هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا " فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فقام عروة بن مسعود قال : أي قوم ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى " قال : أو لست بالولد ؟ قالوا : بلى قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد إقبلوها ودعوني آته قالوا : ائته فأتاه فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذاك : أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها وإني لأرى أوباشا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك ! فقال له أبو بكر الصديق : امصص ببظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ؟ ! فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر فقال : أما والذى نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك قال : و هو يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة فقال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك ؟ - وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء - . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه قال : فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال :

أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيما له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته فقالوا : له ائته فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت فقام رجل منهم يقال له : مكرز بن حفص فقال : دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو . قال معمر : فأخبرني أيوب عن عكرمة : أنه لما جاء سهيل قال النبي صلى الله عليه وسلم : قد سهل لكم من أمركم . قال معمر : قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب : باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكتب باسمك اللهم . ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني أكتب محمد بن عبد الله . قال

الزهري : وذلك لقوله : لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : والله لا يتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب وقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . قال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ ! فبينا هم كذلك إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا لم نقض الكتاب بعد قال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأجزه لي قال : ما أنا بمجيز ذلك قال : بلى فافعل قال : ما أنا بفاعل قال مكرز : بلى قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذابا شديدا في الله . قال عمر بن الخطاب : فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ألست نبي الله حقا ؟ قال : بلى قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري . قلت : أو لست تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال : بلى فقلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق . قلت : أليس

كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال الزهري : قال عمر : فعملت لذلك أعمالا قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس قالت أم سلمة : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما . ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الذين أمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) " حتى بلغ (بعصم الكوافر) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية . ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد فقد جربت به فقال أ بو بصير : أرني أ نظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله قد أوفى الله لك ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم قال النبي صلى الله عليه وسلم ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال : وينفلت منهم أبو جندل فيلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج

من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم . فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) " حتى بلغ " (حمية الجاهلية) " وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وحالوا بينهم وبين البيت "

فوائد وحكم صلح الحديبية

نأتي على بعض ما يستفاد من صلح الحديبية واختلفوا في هذا الفتح: روي عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس: أنه فتح مكة، وقال مجاهد: فتح خيبر ،والأكثرون على أنه صلح الحديبية.

وأخرج البخاري في صحيحه من حديث البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية كنا مع النبي صلى الله

عليه وسلم أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، أسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام .

قال ابن هشام: ويدل عليه أنه – صلى الله عليه وسلم – خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف .انتهى.

قلت ثم حج بالناس وهم مائة ألف .

فمن ذلك أن نزول سورة الفتح على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم البشارات فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر نزرتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما لبثت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه، فقال: "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر".

وأخرج الشيخان من حديث أنس قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا" إلى آخر الآية، مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطهم الحزن والكآبة، فقال: "نزلت عليّ آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا"، فلما تلاها نبي الله صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم: هنيئًا مريئًا لك قد بَيَّن الله لك ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله الآية التي بعدها: "ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار"، حتى ختم الآية.

أيها القارئ الكريم : ولما كان في حجة الوداع وقف النبي الله صلى الله عليه وسلم بعرفة وقال: " أي عمر هذا الذي قلت لكم أني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والله ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وكان الناس قصر رأيهم عما كان، وكان أبو بكر – رضي الله عنه – يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وكان الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين ربه، والعباد يعجلون، والله – تعالى – لا يعجل لعجلة العبد حتى يبلغ الأمور ما أراد، لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائما عند المنحر يقرب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدنه ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينحرها بيده، ودعا الحلاق ليحلق رأسه فانظر إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه، واذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب: " بسم الله الرحمن الرحيم " فحمدت الله – تعالى – الذي هداه للإسلام.

وكان من أسباب تسميته فتحا أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجا " فكانت الهدنة معناها كذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة

للفتح سميت فتحا، لأن الفتح في اللغة فتح مغلق، والصلح كان مغلقا حتى فتحه الله – تعالى.

وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، فكان في الصورة الظاهرة ضيما للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عزا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية.

وظهر من كان يخفي إسلامه، فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وقهروا من حيث أرادوا الغلبة

ومن الفوائد كذلك بيان فضيلة بيعة الرضوان وهي لما أشيع أن عثمان رضي الله عنه قد قتل بايع النبي صلى الله عليه وسلم الناس على أن لا يفروا وسميت بيعة الرضون لرضى الله تعالى عمن بايع تحت الشجرة ، وقال عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح لن يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة .

ومن فوائده ظهور فضل عثمان رضي الله عنه ، حيث تمت بيعة الرضوان من أجله ، لما أشيع أنه قتل .

وكذلك حرص الصحابة على الجهاد ونصر الدين ، حيث تمنعوا من ذبح هديهم ، وحلق رؤوسهم ، رجاء أن ينزل الحكم بالقتال .

وفيه رجاحة عقل أم سلمة رضي الله عنها ، حيث أشارت بالرأي الصحيح على النبي صلى الله عليه وسلم ، لما امتنع الصحابة من تنفيذ أمره في الذبح والحلق ، وبهذا نعلم

أن الصواب أحيانا يكون مع النساء وأنه ينبغي للرجال أن يستشيروا أهل العقل من النساء .

وغيرها من الفوائد كثير ، وهي ظاهرة للمتأمل ، زرقنا الله وإياكم الفقه في الدين .

قصة نزول قوله تعالى ((إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا))

ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق. أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي – والد جُويرية بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها – يقول: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه و أقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، ويُرسل إليَّ رسول الله رسولا لإبَّان كذا وكذا ليأتيك بما جَمَعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سُخْطة من الله ورسوله، فدعا بسَرَوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وَقَّت لي وقتا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث

ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق –أي: خاف–فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟" . قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ } إلى قوله: { حكيم }

وقد ذكر الحديث ابن كثير في تفسيره وقال روي من طرق وهذا أحسنها ، وقد صحح الحديث العلامة الألباني رحمه الله .

وأخرجه ابن جرير بسنده من حديث أم سلمة قالت: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا في صدقات بني المصطلق بعد الوقيعة ، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط

رسوله، بعثت إلينا رجلا مصدقًا، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } .

وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حَيَّان، وغيرهم في هذه الآية: أنها نزلت في الوليد بن عقبة،

وقد رد بعض المحققين نسبة ذلك للوليد بن عقبة وقالوا : إن الروايات التي ساقت القصة معلولة، وأحسنها وهي رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعي، وفي إسنادها مجهول، وقد أنكر القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه "العواصم من القواصم" (ص102) هذه القصة قال: "وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت في ذلك –أي في شأن الوليد. وقيل: في علي والوليد في قصة أخرى– وقيل: إن الوليد سيق يوم الفتح في جملة الصبيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح رؤوسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسي خلوق، فامتنع صلى الله عليه وسلم من مسه، فمن يكون في مثل هذه السنن يرسل مصدقا، وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، وكيف يفسق رجل بهذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وللشيخ عبد الرحمن المعلمي رحمه الله كلام على الوليد بن عقبة في الأنوار الكاشفة (ص263) أثبت فيه أنه لم يؤثر له رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جملة ما نفاه هذا الحديث الذي ذكره ابن العربي.

أقول ومن قرأ ترجمة الوليد عرف أن مثل هذا قد يقع منه ، خصوصا أن رواية الإمام أحمد صحيحة

فمن ترجمته ما ذكره ابن حجر في الإصابة حيث قال: ويقال إنه نزل فيه يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا الآية قال ابن عبد البر لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن إنها نزلت فيه .

وأما من علل ذلك بكونه صبيا يوم الفتح فترده أمور كثيرة ، قال الحافظ : وقد ذكر الزبير وغيره من أهل العلم بالسير أن أم كلثوم بنت عقبة لما خرجت إلى النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرة في الهدنة سنة سبع خرج أخواها الوليد وعمارة ليرداها فمن يكون صبيا يوم الفتح كيف يكون ممن خرج ليرد أخته قبل الفتح قلت ومما يؤيد أنه كان في الفتح رجلا أنه كان قدم في فداء ابن عم أبيه الحارث بن أبي وجزة بن أبي عمرو بن أمية وكان أسر يوم بدر فافتداه بأربعة آلاف حكاه أصحاب المغازي ونشأ الوليد بعد ذلك في كنف عثمان إلى أن استخلف فولاه الكوفة بعد عزل سعد بن أبي وقاص واستعظم الناس ذلك وكان الوليد شجاعا شعرا جوادا قال مصعب الزبيري وكان من رجال قريش وسراتهم وقصة صلاته بالناس الصبح أربعا وهو سكران مشهورة مخرجة وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضا مخرجة في الصحيحين وعزله عثمان بعد جلده عن الكوفة . والله تعالى أعلم .

قصة الغرانيق العلا

لما أنزل الله سورة النجم وما فيها من صفاته العلية لم يتمالك الكفار عند سماعها إلا أن خروا لله سجدا

أخرجِ البخاري في صحيحه بسنده عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدة: { والنَّجم } ، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفًّا من تُرَاب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافرًا، وهو أمية بن خَلَف .

وقد اختلف في اسم هذا الممتنع عن السجود من هو فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة. وكلاهما قتل كافرا فالله أعلم .

أيها القارئ الكريم إن من تدبر أواخر آيات سورة النجم يجد أنها تأخذ بمعاقد القلب ، حتى يرى عظمة الله وتصاغر كل شيء عنده سبحانه ، فيجد في نفسه ضرورة ملحة في السجود لله تعالى ، فيسجد لله تعظيما وطاعة ، وهذا ماحدث لكفار قريش عندما تلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم ، سجدوا وهم لا يشعرون بأنفسهم ، لما أسرتهم الآيات وملكت قلوبهم ، وعاشوا في معانيه خروا سجدا لله ، غير أنهم لم يدخل التوحيد في قلوبهم ، فما أن رفعوا رؤوسهم إلا عادوا لما هم عليه من الكفر ، وانتشر في أواسط الناس أن كفار قريش قد آمنوا ، حتى وصل الخبر لمهاجري الحبشة فرجعوا لمكة فرحين ، وما أن دخلوا مكة إلا تبددت أحلامهم لما رأوا الشرك وقد هيمن على أهل مكة ، فعادوا سراعا من حيث جاؤوا .

وقد ذكر بعض المفسرين عند هذه الآية قصة الغرانيق ، وأن الكفار ما سجدوا إلا لما مدح النبي صلى الله عليه وسلم آلهتهم ، وقد تكلم أهل العلم قديما وحديثا عن هذا الحديث مبينين ضعفه ونكارته ومن أشهر من تكلم عنه قديما العلامة ابن كثير رحمه الله في تفسيره حيث قال بعد ذكرها وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقٍ كُلُّهَا مُرْسَلَةٌ، وَلَمْ أَرَهَا مسندة من وجه صحيح، والله أعلم

ولعلنا نمر على بعض رواياتها لنعرف المقصود من الزيادات في الرواية فإن أصل القصة كما ذكرنا أول الحلقة جاء في الصحيح ، ولكن جاءت روايات فيها زيادات منكرة كما في رواية قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ "النَّجْمَ" فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْمَوْضِعَ: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخْرَى} قَالَ: فَأَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ: "تِلْكَ الغَرَانِيقُ الْعُلَى. وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ تُرْتَجَى". قَالُوا: مَا ذَكَرَ آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ قَبْلَ الْيَوْمِ. فسجدَ وَسَجَدُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ [فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] }

وقد تكلم القاضي عياض رحمه الله عن هذه القصة في كتابه الشفاء (**107/2**) أذكره مختصرا له، قال رحمه الله:

"فاعلم، أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله. والثاني: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين

أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنَةٌ، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأها فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال: "والله ما هكذا أنزلت".إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية.

والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: فيما أحسب –الشك في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

فقد بين لك أبو بكر، رحمه الله، أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه.

أما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار، رحمه الله.

والذي منه في الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ "والنجم" وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس هذا توهينه من طريق النقل.

أما من جهة المعنى، فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل – عليه السلام– ، وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم.

أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمدا وذلك كفر، أو سهوا وهو معصوم من هذا كله.

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك.

وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندي المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة، وتعيرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة ولم يحك أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت " وإن كادوا ليفتنونك.. " الآيتين.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه، حتى يفتري وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفتري، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال صلى الله عليه وسلم: افتريت على الله وقلت ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهي تضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له، وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى: " ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء ".

وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين.

ثم ذكر الأجوبة على ذلك (2/111-114) أهـ

وممن أنكرها الإمام ابن خزيمة وقال: "هذا من وضع الزنادقة" .

للاستزادة: انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص-314 لمحمد أبي شهبة، ونصب المجانيق لإبطال قصة الغرانيق لمحمد ناصر الدين الألباني.

******

قصة غزوة بني النضير

و كان سَبَبُ ذَلِكَ فِيمَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْمَغَازِي والسَير: أَنَّهُ لَمَّا قُتِل أصحابُ بِئْرِ مَعُونَةَ، مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا سَبْعِينَ، وَأَفْلَتَ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فَلَمَّا كانَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ قَتَلَ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَكَانَ مَعَهُمَا عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَانٌ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ عَمْرٌو، فَلَمَّا رَجَعَ أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَقَدْ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ، لأدينَّهما" وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرٍ حِلْفٌ وَعَهْدٌ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ، وَكَانَ مَنَازِلُ بَنِي النَّضِيرِ ظَاهِرَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَمْيَالٍ مِنْهَا شَرْقِيَّهَا.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسحاق بْنِ يَسَارٍ فِي كِتَابِهِ السِّيرَةِ: ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ، يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، اللَّذَيْنِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ؛

لِلْجِوَارِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَدَ لَهُمَا، فِيمَا حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومان، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرٍ عَقد وَحِلْفٌ. فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا: نَعَمْ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ، مِمَّا اسْتَعَنْتَ بِنَا عَلَيْهِ. ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ –وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ– فَمَن رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ، فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً، فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟ فَانْتُدِبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشِ بْنِ كَعْبٍ أحدُهم، فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ، فصعدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَلْبَثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابُهُ قَامُوا فِي طَلَبِهِ فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ، فقَالَ: رَأَيْتُهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ. فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ بِمَا كَانَتْ يَهُودُ أَرَادَتْ مِنَ الْغَدْرِ بِهِ، وَأَمَرَ رسول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ، فَأَمَرَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَطْعِ النَّخْلِ والتَّحريق فِيهَا. فَنَادَوْهُ: أَنْ يَا مُحَمَّدُ، قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ وَتَعِيبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ، فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟

وَقَدْ كَانَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي عوف بن الخزرج، منهم عبد الله ابن أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ، وَوَدِيعَةُ، وَمَالِكُ بْنُ أَبِي قَوْقَلٍ وسُوَيد وَدَاعِسٌ، قَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ: أَنِ اثْبُتُوا وتَمَنَّعوا فَإِنَّا لَنْ نُسْلِمَكُمْ، إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرجنا مَعَكُمْ فَتَرَبَّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ

يُجْلِيَهُمْ وَيَكُفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ، عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا الْحَلْقَةَ، فَفَعَلَ، فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْإِبِلُ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنْ نِجَافِ بَابِهِ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ فَيَنْطَلِقُ بِهِ. فَخَرَجُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ، وَخَلَّوا الْأَمْوَالَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ خَاصَّةً يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ. إِلَّا أَنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيف وَأَبَا دُجانة سِمَاكَ بْنَ خَرشَة ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَّا رَجُلَانِ: يَامِينُ بْنُ عُمَير بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ جِحَاشٍ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ أَسْلَمَا عَلَى أَمْوَالِهِمَا فَأَحْرَزَاهَا.

قَالَ: ابْنُ إسحاق: قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ آلِ يَامِينَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِيَامِينَ: "أَلَمْ تَرَ مَا لقيتُ مِنَ ابْنِ عَمِّكَ، وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ شَأْنِي". فَجَعَلَ يَامِينُ بن عُمَير لرجل جُعلا عَلَى أَنْ يَقْتُلَ عَمْرَو بْنَ جِحَاشٍ، فَقَتَلَهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

قَالَ ابْنُ إسحاق: وَنَزَلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ سُورَةُ الْحَشْرِ بِأَسْرِهَا .

ومن فوائد هذه القصة :

فِي قَوْله: {مِنْ دِيَارِهِمْ لأوَّلِ الْحَشْرِ} .

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي سَعْدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَنْ شَكَّ فِي أن أرض المحشر هاهنا –يَعْنِي الشَّامَ فَلْيَتْل هَذِهِ الْآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأوَّلِ الْحَشْرِ} قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اخْرُجُوا". قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: "إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ".

وَحدَّثَنا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حدَّثنا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: لَمَّا أَجْلَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي النَّضِيرِ، قَالَ: "هَذَا أَوَّلُ الْحَشْرِ، وَأَنَا عَلَى الْأَثَرِ".

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ بُنْدَار، عَنِ ابْنِ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ، بِهِ .

وفي قوله : {مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا} أَيْ: فِي مُدَّةِ حِصَارِكُمْ لَهُمْ وقصرها، وَكَانَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ، مَعَ شِدَّةِ حُصُونِهِمْ وَمَنَعَتِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} أَيْ: جَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [النَّحْلِ: 26] .

وفي قوله : {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} أَيِ: الْخَوْفَ والهَلَع والجَزَع، وَكَيْفَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نُصر بِالرُّعْبِ مسيرةَ شَهْرٍ، صَلَوَاتُ الله وسلامه عليه. ولم يكن هذا خاص به صلى الله عليه وسلم بل كان ببركته لأمته من بعده ، وهذا واضح لمن طالع السيرة .

وفيه أيضا ظهور خبث اليهود وغدرهم ، وذلك فيما عزموا عليه من قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، مع علمهم أنه نبي ، ومع العهد الذين بينهم وبين المؤمنين ، ولكنهم قوم بهت غدر .

وفيه حماية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال سبحانه (والله يعصمك من الناس)

وفيه حنكة النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنه لما أخبره جبريل بما هموا به ، لم يصارحهم بذلك ، ولا أخبر أصحابه بل خرج من المكان بهدوء ، ثم جاءهم بالجيش ، لأنهم غدروا ونقضوا الميثاق .

وغيرها من الفوائد الظاهرة .

******

قصة حاطب بن أبي بلتعة

قال الله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ ....الآيات) وقد ذكر المحدثون وأهل التفسير سبب النزول فأخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ، فَقَالَ: "انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا". فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، قُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ. قَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ. قُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. قَالَ: فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَخَذْنَا الْكِتَابَ فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ: من حاطب بن أبي بلتعة إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟ ". قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ ديني ولا رضى بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّهُ صدقكم". فَقَالَ عُمَرُ:

دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: "إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، مَا يُدْرِيكَ لَعَلّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ".

وفي رواية في الصحيحين أيضا فَقَالَ: "صَدَقَ، لَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا". فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلأَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ: "أَلَيْسَ مَنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟ " فَقَالَ: "لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجنة – أو: قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ". فدَمِعت عَيْنا عُمر، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

وذكر ذلك أهل السير فقال مُحَمَّدُ بْنُ إسحاق بْنِ يَسَار فِي السِّيرَةِ.

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَائِنَا قَالَ: لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَمْرِ فِي السَّيْرِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَعْطَاهُ امْرَأَةً –زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنَّهَا مِنْ مُزَيْنَةَ، وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهَا: سَارَةُ، مَوْلَاةٌ لِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ–وَجَعَلَ لَهَا جُعلا عَلَى أَنْ تُبَلِّغَهُ قُرَيشًا فَجَعَلَتْهُ فِي رَأْسِهَا، ثُمَّ فَتَلَتْ عَلَيْهِ قُرُونَهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ. وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبرُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا صَنَعَ حَاطِبٌ، فَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ فَقَالَ: "أَدْرِكَا امْرَأَةً قَدْ كَتَبَ مَعَهَا حَاطِبٌ بِكِتَابٍ إِلَى قُرَيْشٍ، يُحَذِّرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ". وذكر القصة بمثل ما سبق .

فملخص القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عزم على غزو قريش لما نقضوا العهد دعا الله أن يعمي أمره على قريش ليأخذهم بغتة ، فأراد حاطب أن يتقرب للمشركين ليحفظوا أهله وماله ، فأرسل لهم يخبرهم بذلك ، لما كان الله استجاب لنبيه في دعوته

أخبره بما فعل حاطب ، وهذه قصة عظيمة تجلت فيها أحكام وفوائد كثيرة نأتي على بعض منها :

–حماية الله لنبيه، واستجابته لدعوته.

–حنكة النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب ، حيث أخفى مسيره لقريش ليبغتهم ، فقريش ليست بالسهلة ، ولا بالضعيفة ، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخلها عنوة بدون قتال ليدخل في دين الله من أراد الله له الهداية ، وهذا ما حصل بالفعل .

–الحزم في مواطن الحزم حتى ولو كان في كشف العورات ، فعلي رضي الله عنه هم أن يجرد المرأة لأن الأمر يتطلب ذلك لما فيه من صيانة الدين والمحافظة على أسرار الحرب .

–أن القربات وإن نفعت في الدنيا فلن تنفع في الآخرة إلا ما كان لله وذلك كما في قوله : {لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} وأن مَنْ وَافَقَ أَهْلَهُ عَلَى الْكُفْرِ لِيُرْضِيَهُمْ فَقَدْ خَابَ وخسِر وضَلّ عَمَلُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ قَرَابَتُهُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. كما أخرج الْإِمَامُ أَحْمَدُ بسنده عن حَمَّادُ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: "فِي النَّارِ" فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ: "إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ".وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ

–ومن الفوائد فضيلة أهل بدر التي لا يوازيها فضيلة ، كيف لا ونحن نرى أنها رفعت حد الجاسوس عن هذا الصحابي الجليل .

–ومن الفوائد وهي زبدة القصة تحريم تولي الكفار وأنها كفر مخرج من الملة ، وقد فرق العلماء بين التولي والموالاة فقالوا موالاة الكفار والمشركين إذا كان ذلك تولياً لهم فهو كفر وردة وهي محبتهم بالقلب، وينشأ عنه النُصرة والمساعدة بالمال أو بالسلاح أو

بالرأي، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، وقال الله تعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً}، وقال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...} الآية، فتولي الكفار كفر وردة؛ لأن أصل التولي المحبة في القلب ثم ينشأ عنهـــــــــــــــــــا النُصـــــــــــــــــــرة والمســـــــــــــــــــاعدة.

أما الموالاة فهي كبيرة من كبائر الذنوب، وهي معاشرة الكافر ومصادقتهم والميل إليه والركون إليه، ومساعدة الكافر الحربي بأي نوع من أنواع المساعدة، ولهذا ذكر العلماء أنه لو ساعده ببري القلم أو بمناولته شيئاً يكون هذا موالاة ومن كبائر الذنوب ، وغير ذلك من الفوائد الظاهرة ..

قصة المنافقين

سورة المنافقون حيث ذكر الله في (سورة المنافقون)من صفاتهم ، وماصنعوا بالمسلمين في غزوة أحد ، ولما فيها من الفوائد والأحكام أحببت أن نعرج عليها ، لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها ، صار أناس من

أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة ، وكان أساس المنافقين ورأسهم في حوادثهم عبد الله بن أبي بن سلول ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إسحاق فِي السِّيرَةِ: وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة –يَعْنِي مَرْجعه مِنْ أُحُدٍ–وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ بْنِ سَلُولٍ –كَمَا حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ–لَهُ مَقَامٌ يَقُومه كُلَّ جُمُعة لَا ينُكر، شَرَفًا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَرِيفًا، إِذَا جَلَسَ النَّبِيُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ قَامَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَأَعَزَّكُمْ بِهِ، فَانْصُرُوهُ وعَزّروه، وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. ثُمَّ جَلَسَ، حَتَّى إِذَا صَنَعَ يَوْمَ أُحد مَا صَنَع – يَعْنِي مَرْجِعَهُ بِثُلُثِ الْجَيْشِ–وَرَجَعَ النَّاسُ قَامَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِثِيَابِهِ مِنْ نَوَاحِيهِ وَقَالُوا: اجْلِسْ، أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، لَسْتَ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ، وَقَدْ صنعت مَا صنعتَ. فَخَرَجَ يَتَخطَّى رِقَابَ النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بَجْرًا؛ أَنْ قُمت أُشَدِّدُ أَمْرَهُ. فَلَقِيَهُ رِجَالٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِبَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالُوا: وَيْلَكَ. مَا لَكَ؟ قَالَ: قمتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ، فَوَثَبَ عَلَيَّ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَجْذِبُونَنِي وَيُعَنِّفُونَنِي، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بَجْرًا، أَنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ. قَالُوا: وَيْلَكَ. ارْجِعْ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَبْتَغِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي .

وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..) فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَذَلِكَ أَنَّ غُلَامًا مِنْ قَرَابَتِهِ انْطَلَقَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَحَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ عَنْهُ وَأَمْرٍ شَدِيدٍ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ وَيَتَبَرَّأُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْبَلَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى ذَلِكَ الْغُلَامِ فَلَامُوهُ و عذلوه

، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ، وَقِيلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ: لَوْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَجَعَلَ يَلْوِي رَأْسَهُ، أَيْ: لَسْتُ فَاعِلًا .

وروى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ سَعِيدِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا لَمْ يَرْتَحِلْ حَتَّى يُصَلِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ بَلَغَهُ أَنَّ عبدَ الله بن أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ قَالَ: {لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} فَارْتَحَلَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ آخِرَ النَّهَارِ، وَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ: ائْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ لَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} إِلَى قَوْلِهِ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ}

قال ابن كثير رحمه الله : وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَقَوْلُهُ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ لَيْسَ بِجَيِّدٍ؛ فَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، بَلْ رَجَعَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْجَيْشِ. وَإِنَّمَا الْمَشْهُورُ عِنْدَ أَصْحَابِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ، وَهِيَ غَزْوَةُ بَنِي المصطلق.

قَالَ ابْن إسحاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ مُقِيمٌ هُنَاكَ، اقْتَتَلَ عَلَى الْمَاءِ جهجاه بْنُ سَعِيدٍ الْغِفَارِيُّ -وَكَانَ أَجِيرًا- لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَسِنَانُ بْنُ وَبر قَالَ ابْنُ إسحاق: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ قَالَ: ازْدَحَمَا عَلَى الْمَاءِ فَاقْتَتَلَا فَقَالَ سِنَانٌ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ. وَقَالَ الْجَهْجَاهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ -وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَنَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ- فَلَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: قَدْ ثَاوَرُونا فِي بِلَادِنَا. وَاللَّهِ مَا مثلُنا وَجَلَابِيبُ قُرَيْشٍ هَذِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: "سَمِن كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ". وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ: هَذَا مَا صَنَعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَفَفْتُمْ عَنْهُمْ لَتَحَوَّلُوا

عَنْكُمْ من بِلَادِكُمْ إِلَى غَيْرِهَا. فَسَمِعَهَا زَيْدُ ابن أَرْقَمَ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ غُلَيِّمٌ –وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْ عَبّاد بْنَ بشرْ فَلْيَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ –يَا عُمَرُ–أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟ لَا وَلَكِنْ نَادِ يَا عُمَرُ فِي الرَّحِيلِ".

فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ بَلَغَ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَتَاهُ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ مَا قَالَ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ –وَكَانَ عِنْدَ قَوْمِهِ بِمَكَانٍ–فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ أَوْهَمَ وَلَمْ يُثْبِتْ مَا قَالَ الرَّجُلُ.

وَرَاحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهجرًا فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَرُوحُ فِيهَا، فَلَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رُحتَ فِي سَاعَةٍ مُنكَرَة مَا كُنْتَ تَرُوحُ فِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أما بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ ابْنُ أُبَيٍّ؟. زَعَمَ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَيُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ". قَالَ: فَأَنْتَ –يَا رَسُولَ اللَّهِ–العزيزُ وَهُوَ الذَّلِيلُ. ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ارْفُقْ بِهِ فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِكَ وَإِنَّا لَنَنْظِمُ لَهُ الخَرزَ لِنُتوّجه، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنْ قَدِ استلبته مُلْكًا.

فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ حَتَّى أَمْسَوْا، و لَيْلَتَهُ حَتَّى أَصْبَحُوا، وصَدرَ يَوْمَهُ حَتَّى اشْتَدَّ الضُّحَى. ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ لِيَشْغَلَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ، فَلَمْ يَأْمَنِ النَّاسُ أَنْ وَجَدُوا مَس الْأَرْضِ فَنَامُوا، وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ آدَمَ بْنِ أَبِي إِيَاسٍ .

ورواه أَحْمَدُ أَيْضًا وفيه قال زيد ابن أَرْقَمَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ النَّاسَ شدةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لا تنفقوا على من عند رسول الله حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ. وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يمينه مَا فَعَلَ. فَقَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مَا قَالُوا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقِي: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} قَالَ: وَدَعَاهُمْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَغْفِرَ لهم، فلووا رؤوسهم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ.

وفي رواية للتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ قال زيد (فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْغَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ قَطُّ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ وَقَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ، إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَرَكَ أُذُنِي، وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي وَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنْ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي. فَقَالَ: أَبْشِرْ. ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ. فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إسحاق بْنِ يَسَارٍ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ عَبدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ – يَعْنِي لَمَّا بَلَغَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِيهِ–أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْت فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي

فِي النَّاسِ، فَأَقْتُلُهُ، فَأَقْتُلُ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلُ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، مَا بَقِيَ مَعَنَا"

وَذَكَرَ عكرمةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّ النَّاسَ لَمَّا قَفَلُوا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَفَ عبدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ قَالَ لَهُ ابْنُهُ: وَرَاءَكَ. فَقَالَ: مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ. فَقَالَ: والله لا تجوز من هاهنا حَتَّى يأذنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتَ الذَّلِيلُ. فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَكَانَ إِنَّمَا يَسِيرُ سَاقَةً فَشَكَا إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنَهُ، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ. فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَمَا إِذْ أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجُز الْآنَ.

أخي في الله : إن المتأمل في هذه القصة يجني منها الفوائد العظيمة ، وما من قصة يذكرها الرب سبحانه إلا وتحوي الفوائد الجمة والعبر المنيرة التي يستضيء بها من شاء الله من عباده ، فمن أبرز الفوائد بيان صفات المنافقين ليحذرها وليحذر من أهلها من ذلك أنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ، ومن صفاتهم أنهم لا يبحثون عن المغفرة ولا التوبة بل يعاملون الله معاملة المستغني عن ربه ، فيلوون أعناقهم لي المستكبر على ربه .

ومن صفاتهم أنهم يهتمون بالظاهر ويخربون الداخل كما قال سبحانه {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} من روائها ونضارتها، {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء .

ومن صفاتهم يكثرون الحلف لتغطية نفاقهم كما قال تعالى ({اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} أي: ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

ومن صفاتهم أنهم يحسبون كل صيحة عليهم لأنهم يخافون الفضيحة ، ويعلمون أنهم على غير هدى كما قال تعالى {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم يخافون أن يطلع عليهم.

ومن الفوائد ظهور حكمة النبي صلى الله عليه وسلم وذلك عندما وصل له خبر المقولة من عبد الله بن أبي فعل فعلا يقطع دابر تناقل الخبر فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ حَتَّ أَمْسَوْا، و لَيْلَتَهُ حَتَّ أَصْبَحُوا، وصَدرَ يَوْمَهُ حَتَّ اشْتَدَّ الضُّحَى. ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ لِيَشْغَلَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ .

*****

سورة التحريم وقصة المغافير

عاتب الله جل في علاه نبيه على تحريمه ما أحل الله له ، وقد اختلف في سبب نزول هذه السورة فقيل لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه سريته مارية القبطية التي أهداها له المقوقس وهي أم ولده إبراهيم عليه السلام ، وقيل لتحريمه المرأة التي وهبت نفسها له ، والصحيح أنها نزلت في تمالئ بعض زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عليه في شربه للعسل عند بعض نسائه ، فعاتب الله نبيه على تحريم ما أحل الله له حيث يقول

سبحانه (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وهذه القصة مخرجة في الصحيح فقد أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الحلوى والعَسل، وَكَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الْعَصْرِ دَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ، فَيَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ. فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَاحْتَبَسَ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَحْتَبِسُ، فغِرْتُ فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةَ عَسَلٍ، فَسَقَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَرْبَةً، فَقُلْتُ: أَمَا وَاللَّهِ لنحتالَن لَهُ. فَقُلْتُ لِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ: إِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ، فَإِذَا دَنَا مِنْكِ فَقُولِي: أَكَلْتَ مغافير؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ عند ذَلِكَ لَا. فَقُولِي لَهُ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي أَجِدُ؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ. فَقُولِي: جَرَسَتْ نحلُه العُرفُطَ. وَسَأَقُولُ ذَلِكِ، وَقُولِي أَنْتِ لَهُ يَا صَفِيَّةُ ذَلِكِ، قَالَتْ – تَقُولُ سَوْدَةُ–: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَامَ عَلَى الْبَابِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُنَادِيَهُ بِمَا أَمَرْتِنِي فَرَقًا مِنْه، فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا قَالَتْ لَهُ سَوْدَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْتَ مغافِيرَ؟ قَالَ: "لَا ". قَالَتْ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي أَجِدُ مِنْكَ؟ قَالَ: "سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَربة عَسَلٍ". قَالَتْ: جَرَسَت نحلُه العرفطَ. فَلَمَّا دَارَ إِلَيَّ قُلْتُ نَحْوَ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَارَ إِلَى صَفِيَّةَ قَالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَارَ إِلَى حَفْصَةَ قَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ قَالَ: "لَا حاجةَ لِي فِيهِ". قَالَتْ – تَقُولُ سَوْدَةُ–: والله لقد حَرَمْنَاه. قلت لها: اسكتي

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وفيه قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ يَعْنِي: الرِّيحَ الْخَبِيثَةَ؛ وَلِهَذَا قُلْنَ لَهُ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ لِأَنَّ رِيحَهَا فِيهِ شَيْءٌ. فَلَمَّا قَالَ: "بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا ". قُلْنَ: جَرَسَت نحلُه العرفط، أَيْ: رَعَت نحلُه شَجر الْعُرْفُطَ الَّذِي صَمغُه الْمَغَافِيرُ؛ فَلِهَذَا ظَهَرَ رِيحُه فِي الْعَسَلِ الَّذِي شَرِبْتَهُ.

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: جَرَسَت نحله الْعُرْفُطَ تَجْرِس: إِذَا أَكَلَتْهُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلنَّحْلِ: جَوَارِسُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَظَلّ عَلَى الثَّمْرَاء مِنها جَوَارِسُ ...

وَقَالَ: الجَرْس والجِرْس: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ. وَيُقَالُ: سَمِعْتُ جَرْسَ الطَّيْرِ: إِذَا سمعت صَوْت مَنَاقِيرِهَا عَلَى شَيْءٍ تَأْكُلُهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: "فَيَسْمَعُونَ جَرْس طَيْرِ الْجَنَّةِ". قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كُنْتُ فِي مَجْلِسِ شُعبة قَالَ: "فَيَسْمَعُونَ جَرْشَ طَيْرِ الْجَنَّةِ" بِالشّينِ الْمُعْجَمَةِ فَقُلْتُ: "جَرْسَ"؟! فَنَظَرَ إِلَيَّ فَقَالَ: خُذُوهَا عَنْهُ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِهَذَا مِنَّا .

وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ فِيهِ أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَلِ، وَهُوَ مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ. وَفِي طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنِ عَائِشَةَ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحش هِيَ الَّتِي سَقَتِ الْعَسَلَ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ تَوَاطَأَتَا وَتَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ، وَلَا بُعْدَ فِي ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ كونهما سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، هُمَا الْمُتَظَاهِرَتَانِ الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنِ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيد اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ثَوْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} حَتَّى حَجَّ عُمَرُ وَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عدل عُمَرُ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ. فَتَبَرَّزَ ثُمَّ أَتَانِي، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنِ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنْ

تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} ؟ فَقَالَ عُمَرُ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ –قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَرِهَ–وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَلَمْ يَكْتُمْهُ قَالَ: هِيَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ.

أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، عَدَلَ إِلَى الأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ حَتَّى فَرَغَ، ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ .

هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ .

وفي هذه الحكاية عدة فوائد وأحكام :

فمن ذلك :

–الغيرة الناشئة بين الضرات تفعل الأفاعيل وأعظم، لذا ينبغي الحذر من مكر النساء في ذلك .

–أن الغيرة والخلاف يقع من المرأة الصالحة بسبب الضرائر .

–أن مراجعة المرأة لزوجها أمر لا يمانع الشرع فيه ، وإن كان الأولى للمرأة ألا تفعل .

–حسن صحبة النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه ، مع أنه رسول الأمة وهؤلاء نساؤه تراجعه إحداهن وتهجره حتى المساء ومع هذا صبر على ما يصدر منها ، وفي هذا درس عظيم لرجال الأمة أن يتحلون بالصبر فما وضع الله العصمة بأيديهم إلا ليكونوا أكثر حلما وصبرا .

–أن من كان له أكثر من زوجة فينبغي له أن يتفقد أحوالهن ، وألا يترك إحداهن ولا يسأل عنها حتى يأتي يومها .

أن من أساليب تربية الزوجات ، الهجر ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ، لما وعظهن ، ولم تجدي الموعظة ، هجرهن في المضجع ، كما قال تعالى (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا(34)

فهذا شرع الله في التعامل مع الزوجة المخطئة ، فمن سار عليه قلت خلافاته ، وأبشر بالصلاح لزوجه ، لأنه علاج من حكيم عليم .

ومن الفوائد وجوب كفارة اليمين لمن حرم على نفسه ما أحل الله له ، فقد ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِمَّنْ قَالَ بِوُجُوبِ الْكَفَّارَةِ عَلَى مَنْ حَرَّمَ جَارِيَتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ أَوْ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا أَوْ مَلْبَسًا أَوْ شَيْئًا مِنَ الْمُبَاحَاتِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَطَائِفَةٍ.

******

قصة أصحاب الفيل

لعظم شأن هذه القصة أنزل الله فيها سورة تتلى إلى يوم القيامة ، ليخلد ذكرها وينتفع بها من جاء من بعدهم ، وذلك لما فيها من العبر العظيمة والدلائل الباهرة ، ويكفي في واقعة الفيل أن الله جعلها مقدمة للنبوة ، وموطئة لقبولها كما سنبينه بإذن الله ولعلنا نمر سريعا على قصة غزو أبرهة للكعبة والأسباب التي دعت لذلك .

قَالَ ابْنُ إسحاق: ثُمَّ إن أَبْرَهَة بني الْقليس بِصَنْعَاء، كَنِيسَة لم ير مثلهَا فِي زمانها بشيء مِنَ الْأَرْضِ، وَكَتَبَ إِلَى النَّجَاشِيّ: إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، وَلَسْتُ بِمُنْتَهٍ حَتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ الْعَرَبِ.

فَذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ أَنَّ أَبْرَهَةَ اسْتَذَلَّ أَهْلَ الْيَمَنِ فِي بِنَاءِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ الْخَسِيسَةِ، وَسَخَّرَهُمْ فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ السُّخَرِ، وَكَانَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنِ الْعَمَلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ يَقْطَعُ يَدَهُ لَا مَحَالَةَ، وَجَعَلَ يَنْقُلُ إِلَيْهَا مِنْ قَصْرِ بِلْقِيسَ رُخَامًا وَأَحْجَارًا وَأَمْتِعَةً عَظِيمَةً، وَرَكَّبَ فِيهَا صُلْبَانًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَابِرَ مِنْ عَاجٍ وَآبِنُوسَ، وَجَعَلَ ارْتِفَاعَهَا عَظِيمًا جِدًّا وَاتِّسَاعَهَا بَاهِرًا، فَلَمَّا هَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَة وَتَفَرَّقَتْ الْحَبَشَة كَانَ من يتَعَرَّض لأخذ

شيء مِنْ بِنائِهَا وَأَمْتِعَتِهَا أَصَابَتْهُ الجِنُّ بِسُوءٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى اسْمِ صَنَمَيْنِ، كُعَيْبٍ وَامْرَأَتِهِ، وَكَانَ طُولُ كُلِّ مِنْهُمَا سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَتَرَكَهَا أَهْلُ الْيَمَنِ عَلَى حَالِهَا،فَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى زَمَنِ السَّفَّاحِ أَوَّلِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْعَزْمِ وَالْحَزْمِ وَالْعِلْمِ فَنَقَضُوهَا حَجَرًا حَجَرًا وَدَرَسَتْ آثَارُهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

قَالَ ابْنُ إِسحاق: فَلَمَّا تَحَدَّثَتِ الْعَرَبُ بِكِتَابِ أَبْرَهَةَ إِلَى النَّجَاشِيِّ غَضِبَ رَجُلٌ مِنَ النَّسَأَةِ مِنْ كِنَانَةَ، الَّذِينَ يَنْسَئُونَ شهر الْحَرَامَ إِلَى الْحِلِّ بِمَكَّةَ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ ، قَالَ ابْنُ إِسحاق: فَخَرَجَ الْكِنَانِيُّ حَتَّى أَتَى الْقليس فقعدَ فِيهَا ، أَيْ أَحْدَثَ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِأَرْضِهِ، فَأُخْبِرَ أَبْرَهَةُ بِذَلِكَ، فَقَالَ مَنْ صَنَعَ هَذَا؟

فَقِيلَ لَهُ: صَنَعَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي تَحُجُّهُ الْعَرَبُ بِمَكَّةَ، لما سمع بِقَوْلِك أَنَّك تُرِيدُ أَنْ تَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَى بَيْتِكَ هَذَا، فَغَضِبَ فَجَاءَ فَقَعَدَ فِيهَا، أَيْ أَنَّهَا لَيْسَت لِذَلِك بِأَهْلٍ.

فَغَضِبَ أَبْرَهَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَحَلَفَ لَيَسِيرَنَّ إِلَى الْبَيْتِ حَتَّى يَهْدِمَهُ، ثُمَّ أَمَرَ الْحَبَشَةَ فَتَهَيَّأَتْ وَتَجَهَّزَتْ.

ثُمَّ سَارَ وَخَرَجَ مَعَهُ بِالْفِيلِ، وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ فَأَعْظَمُوهُ وَفَظِعُوا بِهِ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِينَ سَمِعُوا بِأَنَّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ.

فَخرج إِلَيْهِ رجل مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ ذُو نَفَرٍ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ وَجِهَادِهِ عَنْ بَيت الله الْحَرَامِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ، وَإِخْرَابِهِ، فَأَجَابَهُ مَنْ أَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فَقَاتَلَهُ.

فَهُزِمَ ذُو نَفَرٍ وَأَصْحَابُهُ، وَأُخِذَ لَهُ ذُو نَفَرٍ فَأُتِيَ بِهِ أَسِيرًا، فَلَمَّا أَرَادَ قَتْلَهُ قَالَ لَهُ ذُو نفر: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي، فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَائِي مَعَكَ خَيْرًا لَكَ مِنَ الْقَتْلِ،فَتَرَكَهُ مِنَ الْقَتْلِ وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ فِي وَثَاقٍ وَكَانَ أَبْرَهَةُ رَجُلًا حَلِيمًا.

ثُمَّ مَضَى أَبْرَهَةُ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ يُرِيدُ مَا خَرَجَ لَهُ، حَتَّى إِذا كَانَ بِأَرْض خثعم عرض نفَيْل بن حبيب الْخَثْعَمِي فِي قبيلي خَثْعَمٍ وَهُمَا شَهْرَانُ وَنَاهِسٌ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ أَبْرَهَةُ وَأُخِذَ لَهُ نُفَيْلٌ أَسِيرًا، فَأُتِيَ بِهِ فَلَمَّا هَمَّ بِقَتْلِهِ قَالَ لَهُ نُفَيْلٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي، فَإِنِّي دَلِيلُكَ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَهَاتَانِ يَدَايَ لَكَ على قبيلي خَثْعَمٍ، شَهْرَانَ وَنَاهِسٍ، بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فَخَلَّى سَبِيلَهُ وَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ يَدُلُّهُ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِالطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ مَسْعُودُ بْنُ مُعَتِّبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرو ابْن سَعْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفٍ، فِي رِجَالِ ثَقِيفٍ، فَقَالُوا لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّمَا نَحْنُ عَبِيدُكَ سَامِعُونَ لَكَ مُطِيعُونَ، لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ خِلَافٌ، وَلَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي تُرِيدُ، يَعْنُونَ اللَّاتَ، إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ.

قَالَ ابْنُ إسحاق: وَاللَّاتُ بَيْتٌ لَهُمْ بِالطَّائِفِ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ نَحْوَ تَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ.

قَالَ: فَبَعَثُوا مَعَهُ أَبَا رِغَالٍ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ، فَخَرَجَ أَبْرَهَةُ وَمَعَهُ أَبُو رِغَالٍ حَتَّى أَنْزَلَهُ بِالْمُغَمِّسِ، فَلَمَّا أَنْزَلَهُ بِهِ مَاتَ أَبُو رِغَالٍ هُنَالِكَ، فَرَجَمَتْ قَبْرَهُ الْعَرَبُ، فَهُوَ الْقَبْرُ الذي يرْجم النَّاس بالمغمس.

وفى قِصَّةِ ثَمُودَ أَنَّ أَبَا رِغَالٍ كَانَ رَجُلًا مِنْهُمْ وَكَانَ يَمْتَنِعُ بِالْحَرَمِ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْهُ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَقَتَلَهُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: " وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنَانِ مِنْ ذَهَبٍ " فَحَفَرُوا فَوَجَدُوهُمَا قَالَ وَهُوَ أَبُو ثَقِيفٍ.

قُلْتُ: وَالْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا ذَكَرَ ابْنُ إسحاق، أَنَّ أَبَا رِغَالٍ هَذَا الْمُتَأَخِّرَ وافق اسْمُهُ اسْمَ جَدِّهِ الْأَعْلَى وَرَجَمَهُ النَّاسُ كَمَا رَجَمُوا قبر الأول أَيْضا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ إسحاق: فَلَمَّا نَزَلَ أَبْرَهَةُ بِالْمُغَمِّسِ بَعَثَ رَجُلًا مِنَ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهُ الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ عَلَى خَيْلٍ لَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَّةَ، فَسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ تِهَامَةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، وَأَصَابَ فِيهَا مِائَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا، فَهَمَّتْ قُرَيْشٌ وَكِنَانَةُ وَهُذَيْلٌ وَمَنْ كَانَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ بِقِتَالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ فَتَرَكُوا ذَلِكَ.

وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَى مَكَّةَ وَقَالَ لَهُ: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَشَرِيفِهِمْ، ثُمَّ قُلْ لَهُ إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ إِنِّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُ لِهَدْمِ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعرِضُوا لَنَا دُونَهُ بِحَرْبٍ فَلَا حَاجَةَ لِي بِدِمَائِكُمْ،فَإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حربى فائتني بِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ حُنَاطَةُ مَكَّةَ سَأَلَ عَنْ سَيِّدِ قُرَيْشٍ وَشَرِيفِهَا، فَقِيلَ لَهُ: عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ ،فَجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ مَا أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا نُرِيد حربه ومالنا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ حَرَمُهُ وَبَيْتُهُ، وَإِن يخل بينه وَبينه فو الله مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْهِ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِكَ، فَانْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَمَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ، حَتَّى أَتَى الْعَسْكَرَ فَسَأَلَ عَنْ ذِي نَفَرٍ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَحْبِسِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا ذَا نَفَرٍ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فِيمَا نَزَلَ بِنَا؟ فَقَالَ لَهُ ذُو نَفَرٍ: وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوًّا أَوْ عَشِيًّا! مَا عِنْدِي غَنَاءٌ فِي شئ مِمَّا نَزَلَ بِكَ، إِلَّا أَنَّ أُنَيْسًا سَائِسَ الْفِيلِ صَدِيقٌ لِي، فَسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ وَأُوصِيهِ بِكَ وَأُعَظِّمُ عَلَيْهِ حَقَّكَ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَى الْمَلِكِ فَتُكَلِّمَهُ بِمَا بَدَا لَكَ، وَيَشْفَعَ لَكَ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: حَسْبِي،

فَبَعَثَ ذُو نَفرٍ إِلَى أُنَيْسٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَصَاحب عين مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ، وَقَدْ أَصَابَ لَهُ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ فَاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ وَانْفَعْهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعْتَ، قَالَ: أَفْعَلُ.

فَكَلَّمَ أُنَيْسٌ أَبْرَهَةَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، هَذَا سَيِّدُ قُرَيْشٍ بِبَابِكَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْك،وَهُوَ صَاحب عين مَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوس الجبال، فائذن لَهُ عَلَيْكَ فَلْيُكَلِّمْكَ فِي حَاجَتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ أَبْرَهَةُ.

قَالَ: وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَوْسَمَ النَّاسِ وَأَعْظَمَهُمْ وَأَجْمَلَهُمْ ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ عَلَى بِسَاطِهِ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إِلَى جَانِبِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التُّرْجُمَانُ، فَقَالَ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي.

فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْت أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِأَهْدِمَهُ لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ! ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ.

فَقَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي، قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ، فَرَدَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا عَنْهُ انْصَرَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرُ، وَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ وَالتَّحَرُّزِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ

يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، وَقَالَ عَبْدُ الْمطلب وَهُوَ آخذ بِحَلقَة بَاب الْكَعْبَة:

لَا هم إِن العَبْد يمْنَع *رَحْله فامنع رحالك

لَا يغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ * وَمِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالَكْ

إِنْ كنت تاركهم وَقب * لتنا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

قَالَ ابْنُ إسحاق: ثُمَّ أَرسَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلْقَةَ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَانطَلَقَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى شَعَفِ الْجِبَالِ يَتَحَرَّزُونَ فِيهَا يَنْتَظِرُونَ مَا أَبْرَهَةُ فَاعِلٌ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ وَهَيَّأَ فِيلَهُ وَعَبَّى جَيْشَهُ، وَكَانَ اسْمُ الْفِيلِ مَحْمُودًا.

فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ إِلَى مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِ الْفِيلِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ فَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَأَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: أَيْ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْفِيلَةِ أَنَّ تَبْرُكَ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ مِنْهَا مَا يَبْرُكُ كَالْبَعِيرِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ، وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى فَضَرَبُوا رَأْسَهُ بِالطَّبَرْزِينِ لِيَقُومَ فَأَبَى، فَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقِهِ فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ فَأَبَى، فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ وَالْبَلَسَانِ مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَاثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا، حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالَ الْحِمَّصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ.

وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ الَّتِي مِنْهَا جَاءُوا، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ نُفَيْلٌ فِي ذَلِكَ:

أَلَّا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا * نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ فَلَا تَرَيْهِ * لَدَى جَنْبِ الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا

إِذًا لَعَذَرْتِنِي وَحَمِدْتِ أَمْرِي * وَلَمْ تَأْسَيْ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا

حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا * وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا

وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ *كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

قَالَ ابْنُ إسحاق: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلِكُونَ بِكُلِّ مَهْلِكٍ عَلَى كُلِّ مَنْهَلٍ، وَأُصِيبَ أَبْرَهَةُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً، كُلَّمَا سَقَطَتْ أُنْمُلَةٌ أَتْبَعَتْهَا مِنْهُ مِدَّةٌ تَمُثُّ قَيْحًا وَدَمًا، حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ، فِيمَا يَزْعُمُونَ.

قَالَ ابْنُ إسحاق: فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِمَّا يعدد اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ مَا رَدَّ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الْحَبَشَةِ لِبَقَاءِ أمرهم ومدتهم فَقَالَ تَعَالَى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ.أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ.وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ.فَجَعَلَهُمْ كعصف مَأْكُول) .

وقد تكلم بعض المفسرين والمؤرخين عن صفة الطير الأبابيل بما لا علم لهم به فلنعرض عنه فلو كان فيه خير لذكره الرب سبحانه .

و بقصة أصحاب الفيل نكون قد أتينا على جميع قصص القرآن حسب الاستطاعة من سورة البقرة إلى نهاية المصحف، نفعنا الله وإياكم بذلك و صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله و صحبه أجمعين.

******

فهرس

●	المقدمة	1
●	قصة خلق آدم عليه السلام	5
●	الفوائد المجنية من قصة آدم	16
●	قصة موسى عليه السلام	23
●	فوائد و عبر من قصة موسى عليه السلام	68

●	قصة إبراهيم عليه السلام و مناظرته لقومه	79
●	الفوائد المجنية من قصة إبراهيم عليه السلام	97
●	(قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف...)	101
●	قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم الجهاد	105
●	قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه	109
●	قصة امرأة عمران	113
●	قصة زكريا عليه السلام	115
●	قصة مريم و عيسى عليهما السلام	118
●	افتراءات اليهود والنصارى على عيسى بن مريم و أمه عليهما السلام	125
●	افتراءات النصارى على المسيح عليه السلام	128
●	غزوة بدر	136
●	قصة غزوة أحد	160

●	قصة الذين بسطوا أيديهم فكف الله أيديهم	189
●	قصة نقباء بني إسرائيل	192
●	قصة نوح و قومه	195
●	قصة هود و قومه	205
●	قصة ثمود و نبيهم صالح	214
●	قصة قوم لوط	222
●	قصة شعيب عليه السلام و قومه	233
●	قصة بلعام بن باعورا	244
●	قصة استخراج ذرية آدم وأخذ الميثاق	249
●	قصة خذلان الشيطان للكفار في غزوة بدر	253
●	قصة سبب نزول سورة التوبة	257
●	القصص الواردة في سورة التوبة	260

262	قصة الجد بن قيس	●
264	قصة الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات	●
266	قصة الذين قالوا إن نبي الله صلى الله عليه وسلم أُذُن	●
268	قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري	●
273	قصة النبي عن الصلاة عن عبد الله بن أُبي بن سلول	●
276	قصة أبي عامر الراهب و مسجد الضرار	●
282	قصة غزوة تبوك	●
287	بعض الحوادث و القصص التي حصلت في غزوة تبوك	●
294	ذكر الفوائد من غزوة تبوك	●
305	قصة غزوة حُنين	●
311	قصة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم	●
323	قصة يونس عليه السلام	●

326	قصة يوسف عليه السلام	●
353	فوائد من قصة يوسف عليه السلام	●
364	قصة الإسراء و المعراج و فوائدها	●
370	قصة أصحاب الكهف	●
379	قصة صاحب الجنتين	●
383	قصة ذي القرنين	●
390	قصة الإفك	●
395	فوائد وأحكام قصة الإفك	●
402	القصص التي ذكرت في سورة الفرقان	●
406	قصة داوود وسليمان عليهما السلام	●
410	قصة سليمان بن داوود مع الهدهد	●
419	قصة قارون	●

●	قصة نصر الله للروم على الفرس	424
●	قصة لقمان	428
●	قصة غزوة الأحزاب	432
●	قصة إيلاء النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه	436
●	قصة النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم للطعام ونزول آيات الحجاب	441
●	قصة سبأ	444
●	قصة صاحب يس	448
●	قصة صلح الحديبية	451
●	فوائد و حكم صلح الحديبية	456
●	قصة نزول قوله تعالى(إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)	459
●	قصة الغرانيق العلا	462
●	قصة غزوة بني النضير	467

471	قصة حاطب بن أبي بلتعة	●
474	قصة المنافقين	●
479	سورة التحريم و قصة المغافير	●
483	قصة أصحاب الفيل	●
		●